الرّحلة الرّوسيّة

مُشاهدات في جمهوريّة روسْيا الاتحاديّة وأحَاديث في شئون المسْلمين

بقلم

محمّد بن ناصر العبُودي

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

بسم اللہ الرحمن الرحیم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين.

أما بعد، فإنني قد زرت الإتحاد السوفيتي مرتين إحداهما كانت في عام ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م وقد كتبت عنها كتابين والثانية كانت بعد الأولى بأربع سنين أي في عام ١٤١٠هـ الموافق لعام ١٩٩٠م وهي هذه.

وقد رأيت أن أفرد كتابا عن مشاهداتي في جمهورية روسيا الاتحادية كبرى الجمهوريات السوفيتية الخمس عشرة من حيث المساحة والسكان.

فمن حيث المساحة تبلغ مساحة جمهورية روسيا هذه سبعة عشر مليونا ومائة ألف كيلو متر.

ومن حيث السكان يبلغ تعداد السكان فيها ١٥٧٣٧٤,٠٠٠ حسب إحصاء عام ١٩٨٨م، ونسبتها إلى الجنس الروسي الذي يمثل أحد الأعراق الإنسانية في الإتحاد السوفيتي في الوقت الحاضر وإن لم تكن كلها من بلاده الأصلية.

بل لم تكن تتعدى مساحة البلاد الروسية التاريخية أكثر من عشر مساحة الجمهورية هذه على وجه التقريب.

ذلك بأنهم الحقوا بها إقليم سيبريا وناهيك به مساحة واتساعًا إلى جانب ما اشتهر به من قسوة في البرد وشح في الغذاء.

وهذا الإقليم كان إقليمًا إسلاميًا في جهاته الجنوبية وكانت فيه مملكة مسلمة اسمها مملكة (سيبير) واليها نسب هذا الإقليم كله.

وقد استولى عليها الروس من ضمن ما استولوا عليه بالقوة العسكرية إبان حكم القياصرة كما اضيف إلى جمهورية روسيا هذه بلاد عريقة من بلاد

المسلمين مثل بلاد التتار واسمها الآن جمهورية تتارستان وعاصمتها مدينة قازان التي ظلت تسيطر على الجزء الأكبر من البلاد الروسية الأصلية حتى كانت إمارة موسكو الروسية وما حولها تدفع لها الإتاوة ولما حولها من بلاد التتار المسلمين فترة تزيد على قرنين من الزمان.

وقد اسموها جمهورية ذات حكم ذاتي تابعة لجمهورية روسيا هذه ومثل بلاد البشقردز وهم قوم من ذوي الأصل التركي صاروا يسمون بالبشكير أيضًا وسموا بلادهم جمهورية (باشقردز ستان) ذات الحكم الذاتي وعاصمتها أوفا.

ومثل جمهورية الداغستان وجمهورية الشيشان كما سيأتي.

وزادت مساحة الجمهورية الروسية هذه حتى وصلوا بها إلى القطب الشمالي الذي يكون عنده من يصل من الجنوب متجهًا للشمال ثم يتجاوزه ولو بخطوة فيكون متجهًا للجنوب بدلاً من كونه متجهًا إلى الشمال قبل الوصول إليه.

والشيء الذي تجب ملاحظته أن كثيراً من عامة الناس كانوا لايفرقون بين مدلول كلمتي روسيا والإتحاد السوفيتي فيرون أن كلمة روسي مرادفة سوفيتي وأن سوفيتي معناها روسي، وهذا خلط مرده إلى الجهل بأن روسي معناه: شخص من العنصر الروسي وسوفيتي معناه : مواطن من بلاد الاتحاد السوفيتي ولو لم يكن من العنصر الروسي.

فروسيا هي هذه البلاد التي تضمها جمهورية روسيا والشعب فيها روسي إذا كان من سكان البلاد الروسية الأصلاء، أما إذا كان من أهل البلاد التي ضمت إليها من الناحية الإدارية بعد توسع القيصرية الروسية في القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده، فإنهم ليسوا روسًا وإن كانوا واقعين - إداريًا - تحت جمهورية روسيا هذه، ومع هذا الاستعراض الذي قد يبدو عريضا فإنني لم أزر إلا جهات معينة من جمهورية روسيا هذه لغرض التعرف على أحوال المسلمين فيها، إلا ما كان من أمر السفر إلى مدينة (مورمانسك) التي لم تكن تغيب عنها الشمس عندما زرناها فقد كان ذلك لغرض السياحة ورؤية الشمس التي

لاتغيب عن العين في ليل أو نهار، ومعرفة ما إذا كان يمكن أن تؤلف فيها جمعية إسلامية رسمية تقوم ببناء مسجد تساعد رابطة العالم الإسلامي على بنائه.

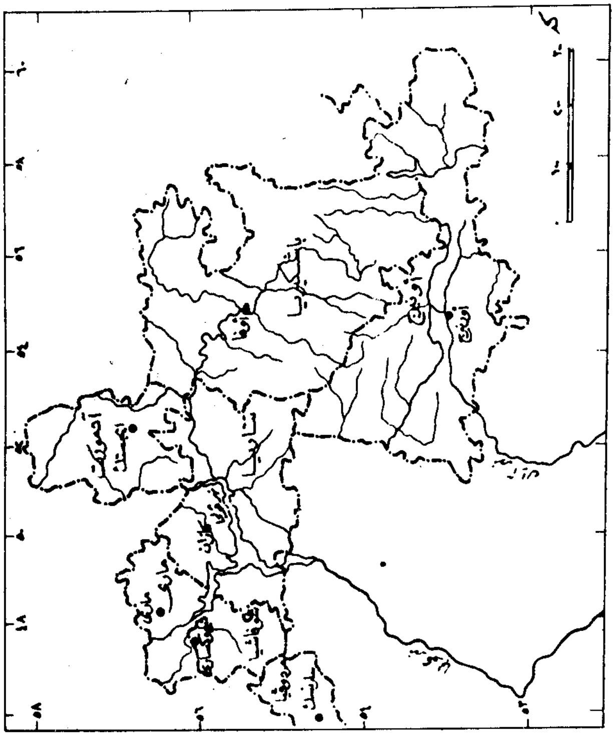
وسيجد القارئ الكريم في هذا الكتاب ما وجده في كتبي الأخرى إن كان قد قرأ شيئًا منها وهي المشاهدات العامة في البلاد والحديث بتوسع وتبسط عن أحوال المسلمين خاصة.

وقد شمل ذلك الحديث عن مدينة موسكو وعن جمهوريتي بشقردز وتتارستان إلى جانب الكلام على مدينة (مورمانسك) الواقعة داخل الدائرة القطبية الشمالية.

وكان رفقاء الرحلة هذه إلى الاتحاد السوفيتي الإخوة :

الاستاذ/ حاتم حسن قاضي مساعد الأمين العام للرابطة لشئون المنظمات والدراسات.

ورحمة الله بن عناية الله مدير الدراسات والبحوث في رابطة العالم الإسلامي، والصحفي أيمن حبيب مدير تحرير صحيفة عكاظ التي تصدر في جدة.



جمهورية روسيا الاتحادية

الأقاليم المسلمة الملحقة بجمهورية روسيا الإتحادية :

(أ) جمهورية تتارستان الذاتية الحكم.

تكونت في ٢٧ مايو ١٩٢٠م وتقع في الحوض الأوسط لنهر ايتل (الفولقا) وفي حوض رافده نهر قازان وتبلغ مساحتها ٦٨,٠٠٠كم٢ وعدد سكانها ٤٢٥٠٠٠٠ نسمة في احصاء عام ١٩٨٩م.

ونسبة المسلمين منهم ٤٨ في المائة وقد تدفق المهاجرون الروس اليها مما أسفر عن سرعة صبغ هذه البلاد الإسلامية بالصبغة الروسية حيث تبلغ نسبة العنصر الروسي فيها ٤٤ في المائة.

تمثل تتارستان التي تتخذ قازان عاصمة لها المعقل الإسلامي الأكثر قربًا من القطب الشمالي وبالتالي من موسكو وهي ملحقة بجمهورية روسيا الإتحادية ويعيش أكثر من ثلاثة أرباع التتار في خارج جمهوريتهم، فهم ينتشرون في كل جمهوريات الإتحاد السوفيتي وهم الشعب المسلم الذي تحول منذ سقوط دولته في عام ١٥٥٢م إلى شعب متفرق اضطر إلى الهروب من وجه النظام الروسي.

ويبلغ مجموع التتار في كل أراضي الإتحاد السوفيتي ٦٦٤٥٥٨٨ نسمة في عام ١٩٨٩م.

(ب) جمهورية بشقردز الذاتية الحكم :

تقع في القسم الجنوبي من جبال الأورال في أعلى (الفولقا) وقد تكونت في ٢٠ مارس ١٩١٩م كجزء من جمهورية روسيا لأنها تقع في شرق أوروبا وتبلغ مساحتها ١٤٣٥٠٠كم مربع وكان عدد سكانها ٤٣٢٠٠٠٠ نسمة في احصاء عام ١٩٨٩م نسبة المسلمين منهم ٥٥ في المائة وتبلغ نسبة الروس المهجرين ٤١ في المائة من السكان وعاصمتها (اوفا) وهي مركز الإدارة الدينية لمسلمي روسيا الأوروبية منذ القرن الثامن عشر الميلادي.

(جـ) جمهورية قباردو - بلغار الذاتية الحكم :

تحتل الجزء الأوسط من جبال القفقاس إلى الغرب من ممر داريال وقد تكونت في ٥ ديسمبر ١٩٣٦م تابعة لجمهورية روسيا الإتحادية وتبلغ مساحتها ١٢٥٠٠كم٢ وعاصمتها مدينة نالجيك وعدد سكانها ٧٦٢٠٠٠ نسمة في عام ١٩٧٩م.

أما المسلمون فنسبتهم ٥٥٪ من قبيلة قبرطاي الشركسية وقبيلتي البلغار، وأما الباقون فمنهم ٣٦٪ من الروس و٢٪ من الإوكرانيين وغيرهم.

وفي عام ١٩٤٤م اتهم الروس البلغار المسلمين بالخيانة والتعاون مع الألمان النازيين فنفوهم نفيا جماعيًا إلى سيبيريا وتركستان الغربية لكنهم بعد تبييض صفحتهم ورد الاعتبار اليهم في ١٩٦٨/١/٩م سمح لهم بالعودة إلى وطنهم الأصلي.

(د) جمهورية داغستان الذاتية الحكم :

تقع في شرقي جبال القفقاس على بحر قزوين وعاصمتها القديمة مدينة دربند المعروفة بباب الأبواب، أما عاصمتها الحالية فهي (محج قلعة) وقد تأسست هذه الجمهورية في ٢١ يناير ١٩٢١م كجزء من جمهورية روسيا ومساحتها ٥٠٣٠٠كم٢ وعدد سكانها ٢,٣٥٠,٠٠٠نسمة في عام ١٩٨٩م ويشكل المسلمون منهم ٨٥,٣ في المائة كما يشكل الروس المهجرون أغلبية العنصر الغير مسلم إذ تصل نسبتهم إلى ١١,٦ في المائة من مجموع السكان.

(هـ) جمهورية الشيشان - اينقوش الذاتية الحكم :

تقع على السفوح الشمالية لجبال القفقاس وقد تكونت من دمج منطقتي الشيشان والاينقوش في جمهورية تتمتع بالحكم الذاتي وتتبع جمهورية روسيا وذلك في ٥ ديسمبر ١٩٣٦م.

وخلال الحرب العالمية الثانية اتهم الروس مسلمي الشيشان والاينقوش بالخيانة والتعاون مع الألمان النازيين بهدف تحرير بلادهم وفي ٢٣ فبراير ١٩٤٤م نفي كل سكان الشيشان والاينقوش إلى سيبيريا وتركستان الغربية ثم الغيت الجمهورية ووزعت أراضيها على جمهوريتي روسيا وجورجيا في ٣ مارس ١٩٤٤م، وبعد موت ستالين اعيد الاعتبار اليهم وسمح لمسلمي الشيشان والاينقوش بالعودة إلى أراضيهم وإحياء جمهوريتهم في عام ١٩٥٧م.

(و) جمهورية اوستيتا الشمالية الذاتية الحكم :

تقع في شمال القفقاس وقد تأسست في الجزء الشمالي لبلاد الاوستين في ٥ ديسمبر ١٩٣٦م جمهورية ذاتية تابعة لجمهورية روسيا. أما الجزء الجنوبي من بلاد الاوستين فقد ألحق بجمهورية جورجيا، وتبلغ مساحة اوستيتا الشمالية ٨٠٠٠كم٢ وعاصمتها (ارجونيكيزي) وسكانها ٩١٩٠٠٠ نسمة منهم ٥٣ في المائة من المسلمين.

ويوجد في الاتحاد السوفيتي مناطق ذات حكم ذاتي بعضها ذات اكثرية إسلامية وتنحصر حقوق الحكم الذاتي فيها في استخدام لغة الشعب القومية في الإدارة والتعليم إلى جانب اللغة الروسية بطبيعة الحال والنظام السياسي الروسي ومنها :

١ - منطقة اديجا الاشتراكية الذاتية الحكم :

تقع في شمال شرق البحر الأسود في القفقاس وعاصمتها ميكوب وتبلغ مساحتها ٧٦٠٠كم٢ وعدد سكانها ٥٤٠٠٠٠نسمة في عام ١٩٨٩م استعمر الروس منذ نهاية القرن التاسع عشر اراضي شعب الاديج المسلم بحيث أصبح هذا الشعب أقلية في موطنه إذ بلغت نسبته بين السكان ٢٥٪ بينما الباقون ٧٥٪ في المائة هم من الروس والاوكرانيين والروس البيض والأرمن.

وقد تأسست هذه المنطقة الذاتية تابعة لجمهورية روسيا الاشتراكية السوفييتية في ٥ ديسمبر ١٩٣٦م.

٢ - منطقة قره جاي - شركس الاشتراكية الذاتية الحكم :

تقع في شمال القفقاس وقد انشئت هذه المنطقة من ضم منطقة قره جاي ومحافظة الشركس في ٣٠ أبريل ١٩٣٨م وتتبع جمهورية روسيا الاشتراكية السوفياتية وكان ستالين قد نفى شعب قره جاي المسلم إلى مجاهل سيبيريا في عام ١٩٤٤م واعيد تسمية منطقتهم باسم منطقة الشركس ذات الحكم الذاتي.

وعندما قام مجلس السوفيت الأعلى بتبرئة هذا الشعب من تهمة التعاون مع النازيين اعيد لشعب قره جاي اعتباره في عام ١٩٥٧م وسمح لهم بالعودة إلى موطنهم ورجع للمنطقة اسم منطقة قره جاي - شركس الذاتية الحكم.

تبلغ مساحة هذه المنطقة ١٤١٠٠كم² وعاصمتها (شركسك) ويبلغ سكان المنطقة ٤٥٠٠٠٠ نسمة ويشكل المسلمون الاصليون ٤٩,٢ في المائة وهم من القره جاي والشركس والابخاز المسلمين.

٣ - إقليم سيبيريا :

يعتبر من أكبر أقاليم العالم مساحة، فمساحته تزيد على ١٢٧٦٥٠٠٠كم٢ ورغم عظم رقعته فهو إقليم يتبع جمهورية روسيا الاتحادية.

وقد كانت سيبير عاصمة أول دولة إسلامية في سيبيريا الغربية قضى عليها الروس القياصرة في عام ١٥٨٠م وبعد الاستيلاء الروسي والشيوعي أصبح الإقليم منفى لكثير من الشعوب والجماعات الإسلامية مثل تتار القريم والفولقا وأتراك تركستان الغربية ومسلمي القفقاس وبهذا تكونت به جاليات مسلمة مهاجرة إلى جانب المسلمين

ويبلغ عدد سكان سيبيريا ٢٥ مليون نسمة تقريبًا وتقدر المصادر الإسلامية نسبة المسلمين بـ ٢٥ في المائة من إجمالي سكان سيبيريا.

٤ - جمهورية جوفاش الذاتية الحكم :

تقع في الحوض الأوسط لنهر الفولقا وتبلغ مساحتها ١٨٣٠٠كم٢ وعاصمتها (جيبوك سراى) وبلغ عدد سكانها ١٣١٣٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٢م وكانت نسبة المسلمين فيها تقدر بـ ٥٨ في المائة وعددهم ٧٥٨٦٤٠ نسمة تقريبًا إلا أن الجوفاش تعرضوا لعمليات التنصير الاجبارية خلال السنوات الأولى للاحتلال القيصري الروسي وتظاهرت جماعات منهم باعتناق المسيحية ولكن عندما أعلنت الحرية الدينية في روسيا القيصرية عام ١٩٠٥م أعلن جميع الجوفاش إسلامهم وسادت بلادهم نهضة إسلامية قبل الإستيلاء الشيوعي على الحكم ثم انشئت جمهورية ذاتية الحكم تابعة لجمهورية روسيا في عام ١٩٢٥م.

٥ - جمهورية موردافيا الذاتية الحكم :

تقع في الحوض الأوسط لنهر الفولقا جنوب غربي جمهورية جوفاش وتبلغ مساحتها ٢٦٢٠٠كم٢ وعاصمتها (سارانسك) ويبلغ عدد سكانها ٩٨٤٠٠٠ نسمة وكانت نسبة المسلمين فيها تقدر بحوالي ٥٥ في المائة من جملة السكان إذ يقدر عددهم ٥٤١٢٠٠ نسمة إلا أن مسلمي موردافيا قد تعرضوا أيضًا لعمليات التنصير الإجبارية في عهد القياصرة حتى إذا صدر قانون الحرية الدينية في روسيا القيصرية عام ١٩٠٥م أعلن الموردافيون إسلامهم وتأكد أنهم كانوا يتظاهرون فقط باعتناق المسيحية ثم استولى الشيوعيون على البلاد وتأسست جمهوريتهم الذاتية الحكم ملحقة بجمهورية روسيا في عام ١٩٣٤م.

٦ - **جمهورية ادمورتيا الذاتية الحكم :**

تقع على السفوح الغربية من جبال الأورال وهي أكثر المناطق الإسلامية امتداداً نحو الشمال في الاتحاد الروسي وتبلغ مساحتها ٤٢١٠٠كم٢ وعاصمتها (اينرفسك) وسكانها ١٥٠٣٠٠نسمة في عام ١٩٨٢م وكانت نسبة المسلمين فيها تقدر بحوالي ٦٠ في المائة.

إلا أنه منذ أن احتل الروس بلادهم عام ١٥٦٠م وهم يجبرون المسلمين على التنصر والارتداد عن الإسلام فاضطر الكثيرون منهم إلى الهجرة أو التظاهر بالمسيحية وعندما أعلنت الحرية الدينية في روسيا القيصرية عام ١٩٠٥م اشهر الادموريتون اسلامهم مع أفراد القبائل الوثنية والبدوية النصرانية التي اعتنقت الإسلام بفضل احتكاكهم بالمسلمين، وجن جنون القياصرة لإسلام الادمورت ونشاطهم فحجبوا عنهم الحرية الدينية ومع ذلك تمكن الادمورت من بناء بعض المساجد ولكن عاد عليهم الاضطهاد مع الحكم الشيوعي الذي حول بلادهم إلى جمهورية ذاتية تابعة لجمهورية روسيا الاشتراكية السوفياتية في عام ١٩٣٤م.

٧ - **جمهورية مارى الذاتية الحكم :**

تقع في الحوض الاوسط لنهر الفولقا وتبلغ مساحتها ٢٣٢٠٠كم٢ وعاصمتها (يوشكارولا) وسكانها ٧١٣٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٢م وكانت نسبة المسلمين فيها تصل إلى ٦٠ في المائة من إجمالي عدد السكان أي أن عددهم يقدر بحوالي ٥٦٤٨٠٠ نسمة.

وقد مر المسلمون بنفس مراحل التحدي التي مر بها جيرانهم مسلمو حوض الفولقا وتأسست جمهورية ذاتية تابعة لجمهورية روسيا في عام ١٩٣٦م.

٨ - **جمهورية (اورنبورغ) الذاتية الحكم :**

تقع في القسم الأوسط من حوض أورال وقد عرفت باسم عاصمتها التي تقع على نهر اورال عند التقائه ببعض روافده المنحدرة من باشكيريا

وعاصمتها (اورنبورغ) وتبلغ مساحتها ٨٥٠٠٠كم٢ وسكانها ٢٠٠٠٠٠٠ نسمة في عام ١٩٨٢م وتصل نسبة المسلمين إلى ٥٣ في المائة من مجموع سكانها ويقدر عدد المسلمين منهم ١٠٦٠٠٠٠ نسمة. تأسست جمهورية ذاتية تابعة لجمهورية روسيا في عام ١٩٣٤م.

المشاهدات

يوم الاثنين ١١ ذي القعدة عام ١٤١٠هـ ٤ يونيو عام ١٩٩٠م.

من جدة إلى دمشق :

اخترت السفر إلى موسكو عن طريق دمشق على السفر من طريق اسطنبول أو عَمّان مع علمي بأن الإدارة في مطار دمشق ليست مما يحرص عليه المسافر وذلك من أجل مناسبة الموعد إذْ المقرر أن نبقى في سوريا ظهر هذا اليوم وليلته ثم نغادرها إلى موسكو في صباح الغد.

وقد غادرنا جدة على الطائرة السعودية من طراز ترايستار في الساعة العاشرة والربع ضحى ولم يكن في الدرجة الأولى التي ركبناها فيها إلا قليل من الركاب ولم يكن معي من أعضاء الوفد الذي أرأسه إلى الاتحاد السوفيتي إلا الأستاذ رحمة الله بن عناية الله وتخلف الاخوان حاتم قاضي وأيمن حبيب والسبب يتعلق بالجواز والتذكرة على أن يلحقا بي مساء غد في موسكو.

وأعلنت المضيفة أن الطيران إلى دمشق سيستغرق ساعة وأربعين دقيقة ولم يكن في الرحلة ما يشغل الذهن إلا ذكريات قديمة استعادها عن الزيارة الأولى إلى دمشق قبل ٣٥ سنة.

وكان سفري في تلك المرة الأولى من جدة إلى بيروت حيث استغرق من الطيران خمس ساعات وثلثا على طائرة مروحية ذات أربعة محركات، ومن بيروت سارعت آنذاك بالذهاب إلى دمشق مدفوعًا بشوقي العظيم إلى رؤية معالم دمشق التي كنت قد قرأت عنها كثيراً في التاريخ، بل كنت كتبت بخطي فيما نسخته من الكتب كتبًا تحدثت عن معالمها ومن ذلك طبقات الحنابلة لابن رجب في مجلدين وقد نسختها قبل أن تطبع.

وكانت دمشق في القرن السابع الهجري مجالاً للمحدثين والفقهاء وخاصة فقهاء الحنابلة ومنهم على سبيل المثال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومن المحدثين الحافظ المزي والذهبي وآل قدامة الذين جمعوا بمجموعهم بين الفقه والحديث مع الزهد والورع أي العلم والعمل.

وأريد أن أتبسط في الكلام على وضع دمشق عند زيارتي الأولى لولا أنني أخشى أن أكون بذلك قد خرجت عن موضوع هذا الكتاب إلا أنني أقول باختصار: إن دمشق في ذلك الوقت تمثل أرقى بلد عربي من حيث نزاهة الإدارة ونظافة الشوارع وكثرة الإزفلت فيها وإن كانت لبنان أعلى منها في ذلك الوقت في عدد المتعلمين فإن دمشق أكثر منها تقدمًا في عدد الفنيين والمتخصصين.

وكنا نرى دمشق في ذلك الوقت مثلاً أعلى للنظافة والتنظيم في المدن العربية.

ولاشك أن مرجع ذلك إلى كوننا في بلادنا قد ارتقت بنا الحال حتى تجاوزنا أكثر البلدان التي تعتبر الآن نامية، بل تجاوزنا بعض البلدان المتقدمة في الإدارة حتى صارت بلادنا الآن ينظر إليها على أنها مثل أعلى في هذا الأمر.

في مطار دمشق :

هبطت الطائرة في مطار دمشق الدولي الساعة الواحدة ظهراً، وكانت الخطوط السعودية في جدة قد قالت: إنها ابرقت لممثلها في دمشق بأن يستقبلني ويعتني بي في مطار دمشق، تقديراً لي ولكوني من ركاب الدرجة الأولى، وقد كتبوا على تذكرتي عبارة كانوا يكتبونها عليها في الداخل والخارج وهي (V I P) وترجمتها: شخصية مهمة.

وكانت الرابطة قد أبرقت للسفارة السعودية في دمشق أمس بتوجهي إلى دمشق في طريقي إلى موسكو ولم يكن ذلك بطلب مني ولكن من أجل راحتي.

فلم نجد مستقبلاً من الجهتين كلتيهما في المطار، وكنت أرتدي الملابس العربية كاملة وهذا في دمشق معناه في عرف كثير من الموظفين المجربين هنا - الثراء ومعه السخاء والكرم.

ولم يكن يرافقني إلا الأخ الأستاذ رحمة الله بن عناية الله فسلمت جوازي لمكتب الجوازات في المطار وهو سياسي (دبلوماسي) وكان على المكتب موظفان ختما على بطاقة القدوم وعلى الجواز ثم سجلا وصولي وأنا أنظر على الحاسب

الآلي (الكمبيوتر) وكُنا شحنا أمتعة لنا كثيرة من جدة إلى موسكو عبر دمشق تتضمن هدايا لزعماء المسلمين منها العباءات العربية والساعات وسجاد الصلاة وصور الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة فتأكدنا من وصولها معنا، فتركناها في المطار لتشحن صباح غد إلى موسكو وبقيت معنا امتعتنا الشخصية.

ولم نجد موظف الخطوط السعودية إلا بعد لأي وانتظار، فقال انتظروا ساعة حتى أنتهي من الركاب مع أن بإمكانه أن يقول لنا ما يريده لأننا أفهمناه مانريد قوله وهو أننا عابرون قادمون مع السعودية ومن ركاب الدرجة الأولى ونريد أن يهيئ لنا فندقًا نقضي فيه الليلة في دمشق.

وبعد أكثر من ساعة وقد خلا المطار من الركاب جاء يقول: هذا ليس من صلاحيتي ولكن اسألوا الخطوط السورية فسألنا مديرها في المطار فقال: هذا من واجب السعودية، مع أننا سنسافر غداً بالدرجة الأولى مع السورية إلى موسكو ولدينا حجز مؤكد عليها ثم اختفيا معا.

فذهبنا نسحب أمتعتنا وحقائبنا نبحث عن فندق وكان الأصعب عدم الاتصال بالفندق لأن الاتصال بالهاتف صعب.

وبعد ساعتين كاملتين من محاولة الإتصال بالفندق أضيفت إلى الساعة الأولى داخل قاعة الوصول ركبنا سيارة فندق شيراتون من المطار إلى دمشق.

وكنت من المدمنين على زيارة دمشق وأفضلها على غيرها من العواصم العربية حتى على بيروت في قضاء الإجازة وفي اللبث لأغراض أخرى رغم كثرة ترددي عليها للعمل وذلك قبل ربع قرن أو يزيد.

ولذلك استبطأت المدة على التجول فيها وتجديد العهد بها.

وقد اعطاني فندق شيراتون بطاقة السكن في الفندق مع مفتاح الغرفة ولم يكتبوا عليها مقدار أجرة الغرفة ولم يخبرونا بذلك.

ولم يكن الأخ المرافق (رحمة الله) قد سألهم عن مقدار الأجرة في فندق (شيراتون) لأنه كان حريصًا على أن نجد غرفتين في فندق معروف، وليس من

المهم إذا كان السعر مرتفعًا لليلة الواحدة هي التي سنقيمها في دمشق.

إلى الجامع الأموي :

لم يسبق لرفيقي الأخ رحمة الله بن عناية الله - أن زار مدينة دمشق من قبل ومع ذلك كان شوقي إلى رؤية القسم القديم من المدينة أنا الذي زرته أكثر من خمسين مرة أكثر من شوق كثيرين لم يروه من قبل.

وعندما دخلنا سوق الحميدية وكان الأخ رحمة الله يرتدي الملابس العربية أحاط بي وبه جماعة من الباعة الجائلين وكادوا يسدون الطريق أمامنا بل سدوه بالفعل يعرضون بضائعهم التي لانريد شراءها، ويلحون في عرضها، وانضم إليهم بعض المستجدين الملحين (الشحاذين) مما لم أكن أعرفه في دمشق وفي سوق الحميدية هذه بالذات من قبل.

ووجدت الجامع الأموي قد أبرز أكثر مما كان عليه عندما تركته قبل سنوات فقد هدموا بيوتًا كانت لاصقة به من الجهة الغربية الشمالية فبرز حائطه القديم الذي بني منذ مئات السنين وهذا عمل جيد.

وعندما دخلته وجدتهم قد جددوا جزءاً من النقوش التي كانت موجودة فيه ومحا الزمن أقسامًا منها وقد بدت الآن مشرقة زاهية الألوان، وأهمها أشكال من غير ذوات الأرواح كالأشجار والأزهار.

ولم تزد السنون التي فارقت فيها الجامع الأموي هذا الجامع إلا جدة في نظري بل جمالاً وجلالاً وكان ما أثار إعجابي الآن أنني شاهدت طوائف من المصلين والقارئين من الاخوة السوريين وفهم فتيان وفتيات في عمر الورود وعليهم نضارة الصبا والشباب وهم في حلل قشيبة نظيفة شاهدتهم خاشعين قانتين أو تالين للقرآن الكريم منسجمين في ذلك.

وبعد صلاة التحية لهذا الجامع العظيم العريق الذي هو أقدم جامع في العالم بقي على هيئته التي كان عليها أول مرة اتخذ فيها مسجداً أو مايقرب من ذلك.

خرجنا للجولة في المناطق المحيطة به من جهة الشمال والشرق فرأيناهم اعتنوا بها بأن أبقوا على قديمها المعتاد، وجددوا وابرزوا القديم من المدارس والمساجد والأربطة التي هي أماكن سكن طلبة العلم في القديم.

وأكثر هذه المباني العامة القديمة مضت على بنائه قرون وقرون وهي على طراز عربي إسلامي يعجب الرائين، وبخاصة أنه لا أثر فيه لمدنية غير المدنية الإسلامية، ولاسيما أنها كانت قبل نشأة هذه المدنية الأوروبية بل هي مما استفادته الحضارة الغربية فقلدتها في أول نشأتها كما هو موجود مشاهد في آثار الاسبانيين والبرتغاليين وغيرهم من الأوروبيين مما مضت عليه قرون وكان بناؤه بعد سقوط الأندلس.

ومما يبهج النفس أن يلاحظ المرء أن المارة في هذه الأماكن الأثرية الإسلامية القديمة كلهم نظيف الثوب والبدن، مهذب الطبع، إما أن يسلم عليك إذا حاذاك، أوأن يرد تحيتك بتحية لطيفة أحسن منها إذا حييته.

مستشفى نور الدين :

من أهم المباني التي رأيناها إلى الجنوب من الجامع الأموي مستشفى مكتوب عليه اسمه القديم (بيمارستان نور الدين) وكتب عليه تاريخ بنائه عام ٥٤٩هجرية أي منذ أكثر من ثمانمائة وخمسين سنة.

وهو منسوب إلى نور الدين الشهيد الذي نذر نفسه لتخليص المسجد الأقصى من الإفرنج وبنى المنبر الذي نوى أن يضعه في المسجد الأقصى إذا فتحه، وظل يجاهد الافرنج ويسعى في ذلك حتى توفي ولم يقدر له أن يشهد فتح بيت المقدس بنفسه وإنما تم ذلك على يد قائد من قواده هو (صلاح الدين بن زنكي الأيوبي) رحمه الله الذي بادر حين فتح القدس إلى نصب منبر نور الدين في المسجد الأقصى، وبقي هذا المنبر فيه حتى احترق جزء منه بعد احتلال اليهود له أحرقه يهودي متعصب ذكروا أنه مجنون وهو مجنون بالتعصب فأحرق جزءاً من المسجد منه ذلك المنبر.

وكلمة (بيمارستان) التي كتبت عليه كانت تعني أول الأمر مايعادل كلمة (مستشفى) في الوقت الحاضر حيث يكون مكانًا للتطبيب والإعاشة.

وهي التي تطورت منها على القرون كلة (مارستان) لمستشفى الأمراض العقلية خاصة.

وكان وقت طعام العشاء قد أزف وكنا تغدينا مبكرين فدخلنا مطعمًا كنت اعتدت في القديم على ارتياده في قلب المدينة فوجدت أن أسعار الطعام قد تضاعفت فيه اضعافًا مضاعفة وليس ذلك بالنسبة إلى قيمتها بالليرة السورية فهذه قد تدهورت ولكن ذلك بالنسبة إلى قيمة الطعام بالدولار إذْ كنت آكل فيه وجبة كاملة بأقل قليلاً من دولار أمريكي واليوم تعشينا فيه فدفعنا عشرة دولارات أمريكية لكل واحد عن وجبة كاملة منوعة.

وهذا السعر لايعتبر غاليًا في أوروبا وأمريكا مثلاً ولكنه غالٍ بالنسبة إلى المطاعم عندنا.

ممثل السفارة السعودية :

عدنا إلى فندق شيراتون بعد الثامنة بقليل فوجدنا فيه الأستاذ (غسان علي اسكندراني) أحد موظفي سفارتنا في دمشق وذكر أنه كان قد تردد على الفندق عدة مرات مرسلاً من سفير المملكة في دمشق الأستاذ/ أحمد القحيمي وقال : إن السفير يبلغك أسفه واعتذاره لكونه لم يعرف بموعد قدومكم إلاَّ في الساعة الرابعة قال: وقد بحثت في كل الفنادق الكبيرة في دمشق حتى عرفت أنكم موجودون هنا، ثم عرض علينا القيام بما نحتاج إليه وقال: إن السفير يبلغكم ذلك فشكرناه.

وعندما علم أننا سنسافر في صباح الغد إلى موسكو وعد بالحضور في الصباح.

يوم الثلاثاء ١٤١٠/١١/١٢هـ ١٩٩٠/٦/٥م

تأخير في مطار دمشق :

حضر إلينا في الصباح المبكر الأخ (غسان اسكندراني) على سيارة السفارة السعودية ومعه نائب رئيس المراسم في وزارة الخارجية الأستاذ (أحمد حلاق) وكانت السفارة قد أخبرت وزارة الخارجية السورية بوصولي فأرسلت الاستاذ الحلاق لمرافقتي من فندق شيراتون حتى الركوب في الطائرة من باب التكريم.

شربنا معًا بعض الشاي في الفندق ثم ركبنا سيارة السفارة السعودية ومعنا الأخ أحمد الحلاق وتبعتنا سيارة المراسم السورية إلى المطار.

وكنا قبل مجيئها قد دفعنا لفندق شيراتون أجرة الليلة الواحدة للغرفة الواحدة ١٩٢ دولاراً أمريكيًا للشخص الواحد، ولم يقبلها إلا بالعملة الصعبة لأن الأجرة أصلها بالعملة الصعبة ولم يقبل حتى ليرات سورية كان قد صرفها رفيقي الأخ رحمة الله من مطار دمشق وأخذ على ذلك إيصالاً من المطار.

وحتى عندما أعطيناه الأجرة دولارات نقداً أخذ يتفحصها واحداً واحداً بيده، ويرد ما كان فيه دنس، أو ما كان مستعملاً كثيراً ويقول: اعطوني بدلاً منها جديداً، لأن (البنك) الذي نتعامل معه لايقبل إلا الدولارات النظيفة !

وهذه أجرة غالية إذ هي للسرير فقط دون إفطار، أو أي شيء آخر ويساوي ذلك أكثر من سبعمائة ريال لليلة الواحدة.

مشكلة النقود :

وعلى ذكر النقود كانت لديّ مشكلة تتعلق بها لايعرفها غيري ورفيقي الأستاذ رحمة الله وهو أنني أحمل في حقيبتي اليدوية مائتي ألف دولار أمريكي نقداً، وكلها من الأوراق فئة المائة دولار.

وقد حملتها من رابطة العالم الإسلامي اضافة إلى بعض الصكات السياحية لتوزيعها توزيعًا مباشراً على المشروعات الإسلامية من مساجد ومدارس إذا رأينا أنها بحاجة إلى ذلك.

وقد اخترت حملها نقداً من أجل انتفاع المسلمين بها أكثر من التحويلات أو الصكات السياحية وذلك أن النقد الأجنبي الصعب في الاتحاد السوفيتي كالدولار له أسعار عدة فالسعر الرسمي هو أن ٦٢ كوبي وهو الجزء من مائة أو (السنتي) من الروبل يساوي دولاراً واحداً أي أن مايزيد قليلاً على دولار ونصف يساوي روبلاً واحداً والسعر التشجيعي للسياح يزيد على ذلك عشرة أضعاف فكل دولار واحد يساوي قيمة ستة روبلات ونصفا، أما سعر السوق الحرة فإن كل ١٨ روبلا بدولار واحد.

وفي هذا الوقت الذي تراخت فيه قبضة الإدارة السوفيتية بسبب التخلي عن كثير من لوازم النظام الشيوعي صار المسؤلون في الإدارة لايلاحظون الذين يصرفون العملة في السوق الحرة أو السوداء كما يقال.

ونحن لن نصرف في السوق السوداء، وسوف نعطي ما معنا من النقود إلى المسلمين علنًا، ولكنهم سوف يستفيدون منه أكثر إذا كان بالنقد.

لذلك خاطرت بحمل هذا المبلغ الكبير في حقيبة السفر اليدوية.

وعندما وصلنا أمس إلى مطار دمشق مررنا بمكتب (الجمرك) وعنده يسجل كل قادم ما يحمله من العملة الأجنبية وبعد أن كتبت اسمي قلت للموظف إنني احمل جواز سفر (دبلوماسي) فهل يعفيني ذلك من كتابة الإقرار الجمركي بالنقود؟

قال: نعم، بكل تأكيد، تفضل، وأشار إلى طريق الخروج من المنطقة.

وكنت أنوي تسجيل هذا المبلغ الكبير وهو مائتا ألف دولار أمريكي نقداً مع ماقد يجره ذلك من خطر عظيم على حامله، لأن النقد يسهل الاستيلاء عليه بخلاف التحويل والصكات السياحية كما هو معروف وإن كنت دخلت به، وخرجت به، من دون مخالفة قانونية.

ولكن :

قصد بي مرافقاي (صالون الشرف) أو قاعة كبار الزوار في المطار وقد كتبوا عليها اسمها (قاعة الشرف الأولى) فاستقبلنا فيها الموظفون وقدموا ماشئنا من قهوة أو شراب.

وهي قاعة جميلة مؤثثة على طراز عربي أصيل ذي نقوش إسلامية الطراز أي مما كان يستعمله المسلمون في القديم، ومنها لوحات فنية عربية.

أما مقاعدها وستائرها فهي من القماش الحريري السميك الذي كان يسمى عندنا (دمشق) وأخذ الأخ (غسان اسكندراني) جوازي وجواز رفيقي وانضم إليه أحد الموظفين في القاعة وذهبا لإنهاء اجراءات الترحيل، وبقيت مع الاستاذ الحلاق في القاعة على حديث شيق.

ولكن ممثل السفارة لم يحضر الجواز ولا التذاكر ونادى منادي المطار بالصعود إلى الطائرة فأرسل أحمد الحلاق موظفا في القاعة لبحث الأمر فأبطأ أيضًا، ونادى المنادي ثانية للصعود للطائرة ولم يعد أحد.

فقلقت من ذلك لأن برنامج زيارتنا في الاتحاد السوفيتي يتأثر كله بالتأخر لاسيما أننا نريد حضور المؤتمر الإسلامي الذي سيقام غداً في مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية بشكيريا فخرجت من قاعة الشرف أنا وموظف المراسم نبتغي استجلاء الأمر فلم نجد صاحبنا السعودي الأخ غسان اسكندراني ولكننا وجدنا مدير الحركة في المطار الذي قال بحدة وغضب: أنتم تقولون إنكم أربعة واليوم بس اثنين فقلنا له: إنه لم يقل أحد هنا إننا أربعة وإنما كنا حجزنا قبل أيام أربعة مقاعد وقد وصلنا نحن الاثنين أمس، ويلحق بنا الاثنان الآخران الليلة في موسكو عن طريق الأردن والمهم أن الذين وصلوا على الطائرة السعودية أمس هما اثنان: أنا ورفيقي.

هذا وقد نادى منادي المطار النداء الأخير للطائرة ورجع الذين أرسلوا في طلب أصحابنا الذين معهم التذاكر والأمتعة فذكروا أن ممثل السفارة السعودية ليس في المطار.

وبعد مفاوضات وأخذ وردّ جاء جوازي وتذكرتي والطائرة بركابها تنتظر وقال الأستاذ أحمد الحلاق ونحن نركب السيارة إلى سلم الطائرة: إنهم لم يجدوا اسمك في الحاسب الآلي بين الركاب الذين قدموا على الطائرة السعودية أمس، لذلك لم يسمحوا لك بالسفر فقلت له : إنني رأيت الموظف قد كتب اسمي كما أن ختم الجوازات موجود على جوازي وكذلك الختم على البطاقة الخضراء، فقال إنهم لم يعتبروا من ذلك إلا ما كان مسجلاً في الحاسب الآلي (الكمبيوتر) قال: ثم جاؤا بخبير فوجد أن أحدهم قد وضع اسم راكب آخر فوق اسمك حتى طمسه.

أما ممثل السفارة السعودية الأخ غسان وكان يلهث من التعب فإنه لم يستطع أن يقول لي شيئًا أمام الموظفين.

من دمشق إلى موسكو :

وجدنا الطائرة السورية قد اشعلت محركاتها في انتظارنا وحالما ركبنا بدأت تدرج في المطار واعتذرت المضيفة عن هذا التأخير الذي قالت: إنه خارج إرادتنا، ثم غادرت المطار في العاشرة وخمس دقائق بعد تأخر ٣٥ دقيقة.

وأعلن مكبر الطائرة أن الطيران إلى موسكو يستغرق أربع ساعات إلا عشر دقائق.

والطائرة للخطوط السورية وهي نفاثة صغيرة من طراز تي يو ١٥٤ ومن صنع روسي أظن عدد مقاعدها لايتجاوز المائة.

ونظراً إلى أن تذاكرنا في الدرجة الأولى فقد اجلسونا في مقدمة الطائرة على العادة المتبعة في الطائرات السوفيتية التي يكون الفرق بين ركاب الدرجة الأولى والسياحية فيها هو أن يجلس ركاب الدرجة الأولى في مقدمة الطائرة دون أن يفصل بينهم وبين ركاب الدرجة السياحية فاصل مع إيثارهم بزيادة طفيفة من طعام أو شراب، ولكنني لاحظت وأنا في أول صف من الطائرة أنه أسوأ من مقاعد الدرجة السياحية في الطائرات العالمية لأنني إذا وقفت

مستقيمًا ضرب السقف رأسي وهو ضيق من الأمام بحيث لم أستطع أن أمد رجلي كما أفعل إذا كنت راكبًا في درجة سياحية، وقل مثل ذلك أو قريبًا منه في الطعام، فقد كان يقوم على الخدمة مضيف ومضيف وبعد الفراغ من الطعام رأيتهم اعطوا الركاب الذين حولنا صحنا فيه فاكهة سورية طازجة من المشمش والخوخ ولم يعطونا إلا بعد أن طلبنا منهم ذلك وكررنا الطلب.

إضافة إلى كون المائدة التي يوضع عليها الطعام تكاد تدخل في صدرك لضيق المكان عنها.

وقد احتجت الدخول إلى الحمام فوجدته ضيقًا خاليًا من الورق الذي تنشف به الأيدي.

وذكرت بهذه المناسبة الراحة والسعة والطعام الجيد في الدرجة الأولى في طائراتنا السعودية التي لاتقل في هذا الأمر عن طائرات الشركات العالمية المتقدمة في الإدارة. وكان من الأشياء الجيدة عندهم أن قدموا صحفًا عربية وهي جريدة البعث ومجلة الكفاح العربي وكلاهما تنطق بلسان الحكومة السورية، فقطعت الوقت في مطالعتهما لأن المنظر داخل الطائرة وخارجها ليس فيه مايسترعي الانتباه إذ المنظر خارج الطائرة كان منظر السحاب، الذي تحته ضباب حال بيننا وبين رؤية الأرض وحتى عندما أعلن الطيار اننا سنطير بعد قليل فوق مدينة كييف حيث نتجه بعدها شرقًا إلى موسكو لم نر من الطائرة (كييف) ولا مابعدها.

وذلك لارتفاع الطائرة وتكاثف السحاب.

وذكر الطيار أن درجة الحرارة في موسكو الآن هي ١٤.

فوق مطار موسكو :

قبل الهبوط بخمس وعشرين دقيقة بدأت الطائرة بالتدني فوق سحاب أبيض ما لبثت أن اخترقته إلى فراغ تحته خطوط أو خيوط من غيم أبيض رقيق نسميه في بلادنا (السدى) لأنه أشبه بسدى النسيج.

ثم اخترقته إلى سحاب ينخفض عنه كثيراً بحيث صار ذلك (السدى) يبدو عاليًا جداً فذكرت عند ذاك اختلاف اللغويين في تعريف (السدى) من الغيم، بسبب كونهم لم يدركوا موقعه من السحاب وهم على الأرض.

وعجبت من كوني عرفت هذه اللفظة اللغوية العربية في هذه الطائرة وهي تتعلق بالهواء في سماء الاتحاد السوفيتي.

وتجلت خضرة الأرض فيما حول موسكو عندما اقبلت الطائرة بسرعة على المطار فذكرت الفرق ما بين هذا المنظر وبين هبوطي الأول في هذا المطار قبل سنين وكان ذلك في منتصف شهر ابريل إلا أن كل شيء من الاشجار والنبات في موسكو كان هامداً في ذلك الوقت لم يصح بعد من سباته الشتوي الطويل فكانت الأرض تبدو رمادية غبراء اللون، وكانت درجة البرودة آنذاك صفراً مئويًا.

أما الآن فإننا في فصل الصيف والخضرة الشاملة تلف المنطقة ومع ذلك فإنني لم أغبطهم بل إنني رثيت لهم، لأن أرضهم هذه الخضراء ستعود غبراء ثالجة كأنها الصحراء التي لاترحم، وذلك في أيام الشتاء الطويل.

ولاحظت طرقًا ترابية عديدة وسط الغابات والأماكن الخضراء ربما كانت طرقًا زراعية ولكن لايجد المرء بينها وبين طرق الغابات الاستوائية في آسيا وإفريقية فرقًا.

أما منظر الأرض فإنه كان رائعًا لأنها ربى متطامنة خضر تتدرج في خضرتها وتركبها أشجار الغابات في الأماكن العالية والمواضع الضيقة.

وتنتشر المنازل الريفية متباعدة في هذه الأرض الخضراء، وإن كانت المنازل تلك ليست كثيرة بالنسبة لاتساع الأرض.

ثم رأينا طريقًا إزفلتيا مزدوجًا جيد المنظر يشق هذا الريف - وبحيرات عدة وسط هذا الجو الذي يبدو لخضرته الشديدة نديا وكان مما أثبت ذلك في الخاطر منظر سحاب منخفض كان يجود جانبًا من المنطقة فكان ودقه وهو ماؤه الهاطل متصلاً بسحابه حتى الأرض.

وكثـرت الغـابات مما يعطي انطبـاعًا بأن المنطقـة كـانت في الأصـل منطقـة غـابات إلا أنهـا قطعت من أجل الزراعـة أو من أجل رعي الحـيوان أو لأغـراض أخرى.

وقبيل الهبوط في الأرض رأينا نهر موسكو يجتاز مجراه قبل أن يصل إلى المدينة عدة تجمعات للمياه تشبه المستنقعات أو البحيرات الصغيرة المتعددة.

في مطار موسكو :

ولابد من تعريف المطار الذي يهبط فيه المسافر في موسكو باسمه لأن هناك ثلاثة مطارات كبيرة فيها.

وهذا المطار الذي هبطنا فيه الآن اسمه: (شيراما توفا الثاني)، أو شيراماتوفا رقم ٢ وهو المطار الدولي الكبير، وكانت الأرض المحيطة بمدارج المطار خضراء بالغة الخضرة بل إنها بساط سندسي ممتد إلى مدى البصر.

وكان هبوط الطائرة في الثانية تمامًا بتوقيت دمشق الصيفي المساوي لتوقيت المملكة ويساوي ذلك الساعة الثالثة بتوقيت موسكو الصيفي، وقد استغرق الطيران أربع ساعات إلا خمس دقائق.

أما هذا المطار فإن أول مايلفت النظر فيه عدا الخضرة الشاملة فيما حوله كثرة الطائرات الجاثمة فيه كثرة هائلة وكلها تابعة لشركة (ايرفلوت) السوفيتية الكبيرة التي هي أكبر شركات الطيران في العالم بالنسبة لما تملكه من أعداد الطائرات.

ومعلوم أن الاتحاد السوفيتي دولة بالغة الاتساع، هائلة المساحة فهو أكبر دول العالم قاطبة مساحة ويكفي أن تعرف أن مساحته هي ٥٦٠، ٢٨٣، ٢٢ كيلو متراً مربعًا.

ويساوي ذلك اضعاف مساحة بلادنا التي تعتبر من البلدان الواسعة ولذلك يعتمد الناس في تنقلهم بين البلاد السوفيتية إلى استعمال الطائرات ولذلك - أيضًا - صارت أجرة الإركاب داخل الاتحاد السوفيتي رخيصة جداً بل هي

أرخص بلد في العالم في هذا المجال بالنسبة لمن يدخل نقوداً من الخارج يستعملها في شراء تذاكر محلية.

وأما أهل البلاد فإنهم بسبب دخولهم المتدنية لايدفعون لركوب الطائرات إلا أجرة متدينة.

والمطار متسع المدارج جداً كما أن المساحات التي تفصل بين مدارجه واسعة، إلاّ أن مظهره من حيث مستوى الزفلتة والأبنية على البعد هي دون ذلك بكثير.

وقفت طائرتنا في مكان غير بعيد من الأبنية فجاءت إليها حافلة ليست كبيرة وحملت الركاب إلى قاعة الوصول.

وكنا ندخل فيها وركاب طائرة أخرى كبيرة يدخلون فانتظم الناس صفوفًا أمام مكاتب الجوازات فقال لي أحد السوريين الذين وصلوا معنا بالطائرة أنتم (دبلوماسيين) تقدموا فإنكم تتعبون لأنهم - يريد موظفي الجوازات - يعذبون الناس بالانتظار فرأيت ممراً لم أفطن إليه من قبل كتب عليه أنه (للدبلوماسيين) وكان أمامنا فيه عدد قليل وعندما جاء دوري قال لي الضابط اخلع نظارتك ثم نظر في عيني وختم جوازي.

هذا مع أن نظارتي بيضاء لاتخفي عيني.

وعند مكتب الجوزات من الداخل وجدنا طائفة من الإخوة المسلمين المستقبلين منهم الأخ الحاج (راوي عين الدين) إمام جامع موسكو، والشيخ نور محمد بن محمد نور الدين إمام جامع أوفا في بشكيريا والأستاذ رشيد علمان مدير مكتب العلاقات الخارجية للادارات الدينية الإسلامية في موسكو والأخ فضل الدين من موظفي المكتب المذكور، ولم يكن معهم من المستقبلين الحكوميين إلا شخص من موظفي المراسم مالبث أن ودعنا عندما تركنا المطار بخلاف المرة الأولى وقد ذكرت حديثها في كتاب (زيارة للمسلمين في الاتحاد السوفيتي) وقد رحب بنا الإخوة المستقبلون وتقدمونا إلى قاعة كبار الزوار في الطابق الثاني وهي التي كنا جلسنا فيها أول مرة بل هي القاعة الوحيدة وهي واسعة مؤلفة من أركان فيها غرف داخلية لمن يريدون أن يجلسوا وحدهم.

وتناولنا فيها الشاي والمرطبات واحسسنا فيها بالحر الذي ضايقنا لأنها مصممة لاتقاء البرد وأما الحر فإنهم لايهتمون باتقائه.

استراحة في موسكو :

لن تطول اقامتنا في موسكو إذ لاتتعدى بضع ساعات نسافر بعدها إلى مدينة (اوفا) عاصمة جمهورية بشكيريا (بشقردز) لحضور المؤتمر الإسلامي الذي سيقام فيها غداً.

ولذلك خرجنا من المطار بعد أن تسلموا امتعتنا كلها على كثرتها دون تفتيش لأنهم اعتبرونا وفداً رسمياً.

كان الهواء عندما خرجنا من المطار متوجهين إلى المدينة بارداً نسبيا وذا مطر خفيف والطريق قد امتلأ بمناقع المطر مثلما كان عليه الحال في المرة السابقة إلا في درجة الحرارة حيث كانت في المرة الماضية صفراً مئوياً وفي هذه المرة ١٦ درجة مئوية.

سلكنا الشارع الرئيسي المنطلق من المطار إلى المدينة الذي يفاجأ المرء الذي يسلكه لأول مرة أن يجد فيه حفراً صغيرة ملأها المطر فصارت مطبات صغيرة كما يفاجأ بمنظر السيارات التي تسير فيه وكونها فيها نسبة كبيرة من سيارات النقل وسيارات الحمل أما سيارات الركوب الصغيرة فإن أكثرها من طراز (لادا) الصغير الذي يصنع في موسكو وأكثرها ذو مظهر لايبدو معتنى به سواء من حيث الصباغ أو الترميم.

أما الأشجار فإنها كلها خضراء نضرة. واعترضنا نهر (موسكو) وهو يتدفق بالمياه فمر الطريق فوق جسر جيد أقيم عليه.

ثم بدت الأبنية السكنية العالية وهي (العمارات) الضخمة بطبقاتها المتعددة وهي أبنية حكومية تبنيها الحكومة للإسكان العام لسائر الناس، حيث لايستطيع السكان وبخاصة في المدن أن يبنوا لأنفسهم مساكن خاصة فتتكفل لهم الدولة بذلك، وتؤجرهم هذه المساكن على هيئة شقق أو غرف محدودة

المساحة بموجب قوانين صارمة لاتسمح للشخص بأن يحصل على أوسع منها إلا إذا كان من كبار موظفي الدولة فيستطيع أن يحصل على أكثر مما يحصل عليه غيره ولكن عليه أن يتركه حين يترك وظيفته أو يفقد مركزه في الحزب الشيوعي الحاكم.

وهذه المساحة محدودة في مدينة لينين قراد بتسعة أمتار مربعة للشخص أما في موسكو فقيل لي إنها لاتزيد على سبعة أمتار ونصف للفرد.

وأعلى سعة في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي لمسكن الفرد أو لنقل نصيب الفرد في المساكن العامة هي ثلاثة عشر متراً مربعًا، وأضيق مساحة في ذلك هي ستة أمتار مربعة.

وهذه الأمتار الستة المربعة لاتبعد كثيراً عن سعة قبر واسع ولاتدخل المرافق العامة في هذه المساحة من مطبخ وحمام فهذه لاتحتسب من الأمتار المذكورة.

فندق زاريا :

وصلنا قبل أن نصل قلب موسكو إلى فندق مؤلف من عدة أبنية متفرقة تفصل بينها حدائق من الأشجار والحشائش وعلى تلك الأبنية أرقام متسلسلة وكلها فندق واحد أو فنادق متجاورة.

وبعد لأي وتردد عرف مضيفونا رقم البناء الذي حجزوا لنا فيه وقالوا وهم يعتذرون: إن في موسكو عدة مؤتمرات الآن لذلك لم نجد غرفًا خالية في فندق فاخر فقلت لهم: إننا لن نبقى أكثر من بضع ساعات. ودخلوا لمفاوضة المسئولين في الفندق وكان المطر يهطل فأردنا الدخول إلى الفندق لنستريح في الاستقبال فيه حتى ينتهي أمر الغرف كما هي العادة فمنعنا حارس هناك عن دخول الفندق إلا بعد أن تنتهي الإجراءات ويتناول النزيل مفتاحه.

فقلنا له : قل لهم: إننا ضيوف اجانب والمطر ينزل والهواء بارد وعلينا ملابس صيفية، فقال: لقد قلت لهم ذلك، ولم يقتنعوا.

دخلنا الفندق بعد ذلك (فندق زاريا) ولو كنا في بلد غير هذه البلاد وحالة غير هذه لما رضينا سكناه لأن مستواه مستوى فنادق الدرجة الثانية التي لاتكاد تصل إلى مستوى ذات النجمات الثلاث.

ومكتب الاستقبال فيه ضيق حقير عليه عدد من الروسيات المسنات الثقيلات، وحتى المفتاح كان ثقيلاً قد زادوه ثقلاً ببكرة حديدية صغيرة قد ربطوه بها.

وفي غرفتي سريران ضيقان وأثاث خشبي قديم، وحمام خاص ليس في صنبوره ماء، وإنما يوجد الماء في صنبور الحوض في الحمام وكل شيء في هذه الغرفة غليظ قد روعيت فيه القوة دون أن يراعي فيه الجمال أو حسن المنظر.

ومشكلة العشاء:

أردت الاستراحة قليلاً استعداداً للسهر الليلة في السفر ولكن بعض الإخوة حضروا يسلمون وبعد ذلك حان وقت العشاء فنزلنا لركوب حافلة كانت حملت أمتعتنا فلم يهتد مرافقونا إلى المطعم وكان أهل الفندق قد وصفوه لهم بأنه في بناء من هذا المجمع الكبير، فداروا وداروا ولم يجدوه، فعادوا إلى الفندق حيث وصفوه ثانية وقالوا لنا: إن مطعم الفندق لايعمل.

وبعد بحث وتردد بالسيارة وجدوه.

ووجدنا على بابه حارسًا ورجلاً وأمرأة يحدثانه دون أن يدخلا فقال الإخوة المرافقون وكلهم يعرف الروسية لكونه من أهل البلاد: إنه منعهم من الدخول.

أما نحن فبعد أن تحدث مرافقونا مع الحارس ذهب إلي الداخل وقالوا: إنه ذكر أنه سوف يخبر مدير المطعم بشأننا ثم جاء الحارس وسمح لنا بالدخول ونحن أربعة أنا ورفيقي (رحمة الله بن عناية الله) والشيخ نور محمد، وأخ آخر.

وكانت المفاجأة أن هذا المطعم ليس فيه قائمة للطعام تختار منها ما تشتهيه نفسك وإنما عليك أن تأكل مايقدمه لك فأخبرناهم أننا لانقرب الخنزير ولا ما فيه خمر أو كحول فجاؤا بخضروات قليلة في حساء خفيف وسمك قليل مع

بطاطس مع خبز مقترفيه، فأكلناه ولم يصنع بنا شيئًا مما حملنا على أن نطلب مثله مرة أخرى.

وقد اخبر مرافقنا كبيرة العمال في المطعم، وكلهن من النساء بأمرنا فاجتهدت لنا ولكن امكانات المطعم لم تسمح لها بأن تقدم مانريده.

وقد استغرق إعداد الوجبتين اللتين اكلناهما وقتا طويلاً كنا بحاجة إلى توفيره للراحة.

من موسكو إلى أوفا :

في الحادية عشرة والنصف ليلاً غادرنا فندق (زاريا) قاصدين مطار (دامادي توفا) وهو غير المطار الذي نزلنا فيه، فسرنا في داخل مدينة موسكو وقتًا طويلاً ثم سلكنا طريق المطار المذكور وقد يسمونه مطار الجنوب لكون الرحلات التي تتجه إلى جنوب الاتحاد السوفيتي وأكثر شرقه تقلع منه وكان الجو غائمًا فلم نر من معالم الطريق الطويل إلى المطار شيئًا.

ووجدنا المطار نفسه خافت الأنوار في جانب من الطريق قبله إصلاح، ومقاعده من الخشب المستطيل العادي فهي غير مريحة ومع ذلك غير كافية.

ثم قامت الطائرة في الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين من قبل الفجر متأخرة عن موعد قيامها المحدد في الاصل ٣٥ دقيقة.

وكانت الطائرة مليئة بالركاب وقد اركبونا في مقدمة الطائرة إكرامًا لنا وكلها سياحية ركب معنا ثلاثة من الإخوة المستقبلين كما ركب معنا زميلنا في الوفد الأستاذ/ حاتم قاضي وزميلنا الصحفي المرافق للوفد الأستاذ أيمن حبيب وكانا قدما لتوهما من الأردن.

وكرروا هنا ما علمته عنهم من عادة جيدة في طائراتهم وهو منع الخمر والتدخين في كل الرحلة أما الضيافة فكانت قليلاً من الماء المعدني في كوب من الفخار الخشن.

ولاحظت هنا أن الشفق وهو النور من جهة الغرب كان موجوداً واضحًا مع وجود النور ظاهراً في الجهة المقابلة من الشرق.

وقد حاولت أن أحصل على إغفاءة في الطائرة لأنني لم أغف منذ ٢٤ ساعة فلم أستطع، لأنني لست ممن يسرع إليهم النوم في الطائرة.

وقد رأينا الشمس أشرقت ونحن في الطائرة وكانت الساعة هي الثالثة والنصف بعد منتصف الليل بتوقيت موسكو التي أقلعنا منها ويتأخر ساعتين عن توقيت (أوفا) التي نقصدها.

وقد استغرق الطيران من موسكو إلى (اوفا) ساعة وخمسا وثلاثين دقيقة قطعت الطائرة فيها تلك المسافة التي تبلغ ألفا وخمسمائة كيلو متر جهة الشرق من موسكو.

جمهورية بشقردز
(بشكيريا)

يوم الأربعاء ١٣/١١/١٤١٠هـ الموافق ٦/٦/١٩٩٠م

في مطار أوفا :

قبيل النزول في المطار بدت المنطقة خضراء كثيفة الإخضرار فهي كخضرة موسكو إلا أن أكثرها هنا خضرة حقول مزروعة مهذبة مع وجود مناطق متفرقة من الغابات الملتفة وقد هبطت الطائرة في الرابعة وعشر دقائق بتوقيت موسكو ويساوي ذلك السادسة وعشر دقائق بتوقيت أوفا فالفرق بينهما في التوقيت ساعتان مع أن المسافة التي تفصل بينهما هي ألف وخمسمائة كيلو متر أي كالمسافة التي تفصل بين الدمام في شرق بلادنا وجدة في غربها على وجه التقريب.

وجدنا في المطار عدداً من المستقبلين على رأسهم الشيخ عبدالرشيد رمضان من مدينة (فولجا قراد) وهو يرتدي عباءة خضراء مقصبة وهذا هو الزي التتاري القديم قد حسنوه قليلاً ليتميزوا به عن غيرهم.

وقد جاء الشيخ عبدالرشيد إلى أوفا لحضور المؤتمر الإسلامي الذي سينعقد اليوم.

فأجلسونا في قاعة كبار الزوار بينما كان بعضهم يحضر الأمتعة، وقدموا في القاعة تفاحًا طازجًا قالوا : إنه مما تنتجه المنطقة كما قدموا شراب التفاح أيضًا.

ثم حضر المفتي الشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي وسيبيريا ومعه بعض المستقبلين فحيا ورحب.

إلى مدينة أوفا :

انطلق رتل كبير من السيارات في مقدمته سيارة الشيخ المفتي طلعت تاج الدين أمامها سيارة للشرطة وكنت معه في السيارة وركب بقية أعضاء الوفد واثنان أو ثلاثة من ضيوف المؤتمر الذين قدموا إلى (أوفا) في بقية السيارات.

فكان الطريق يشق بسطا سندسية خضراً سواء منها ماكان حقولاً مزروعة وما كان أعشابًا برية، وإن شئت قلت إنها اعشاب وحشية نامية.

وقصد الموكب جامع أوفا حيث توقف هناك من أجل تسجيل اسماء الضيوف الذين حضروا للاشتراك في المؤتمر واعطائهم بطاقات العضوية فيه فجددت عهداً مضت عليه أربع سنوات بهذا الجامع العظيم الذي سلمه الله من الشيوعيين فكان في أيام طغيانهم هو المسجد الوحيد الذي بقي بأيدي المسلمين.

وشاهدت فيه منظراً كان قد اعجبني من قبل وهو إطلالة من نافذة محرابه العالية على منطقة مقابلة له من جهة الجنوب ينساب فيها نهر (ايدل) الذي يسميه الآن بنو قومنا الجاهلون بثقافة أجدادهم بنهر (الفولقا) تقليداً للأوروبيين الذين نقلوا عنهم هذه الأسماء ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن تسمياتها في كتب الثقافة العربية القديمة.

ونهر (ايدل) ثر المياه ريان الشطآن لاسيما في هذا الفصل الصيفي من السنة الذي هو لهذه البلاد الشمالية النائية بمثابة الربيع.

ورأيت حديقة المسجد مزهرة نضرة بعد أن كانت عندما رأيتها في المرة السالفة هامدة مغبرة ولاحظت أن أكثر الزهور فيها الآن هي زهور كبيرة بيض فكأنها ترمز إلى الإسلام بنقائه وإشراقه.

ثم ذهب الموكب إلى فندق روسيا الذي هو الفندق الرئيسي الراقي في المدينة حيث فرقوا الوفود من الخارج والضيوف من داخل الإتحاد السوفيتي على غرفهم فيه فكأن أن أنزلوني في جناح كبير مؤلف من قاعة استقبال وغرفة نوم فيها سريران وغرفة استراحة فيها (بيانو) لإراحة النزيل الذي يحب العزف عليه.

ووجدت في مائدة فيه الضيافة المعتادة عندهم وهي نقل بمعنى المكسرات والفاكهة من الكرز الطازج والمشمش.

وفي الساعة الثامنة كان الفطور في مطعم الفندق.

افتتاح المؤتمر الإسلامي :

وعنوانه (المؤتمر الخامس لمسلمي سيبيريا والقسم الأوروبي من الإتحاد السوفيتي).

سار الموكب في التاسعة إلى القاعة التي سينعقد فيها المؤتمر فكان أول مافعلوه وهم واقفون أن ظلوا هنيهة للتعارف لكي يتعرف بعض الوفود على بعض وقد كتبوا على مدخل المبنى بخط عربي جميل الآية الكريمة: ﴿وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ وذلك في قاعة المحاضرات بقصر الثقافة الشعبية لجمهورية بشكيريا الشعبية وكان الإخوة من أهل هذه الجمهورية (بشكيريا) ومن أهل جمهورية تتارستان المجاورة التي هي شقيقة لهم أيضًا عليهم الألبسة الوطنية التقليدية التي أدخلوا عليها إضافات وتحسينات ويسمونها الملابس التتارية الأصيلة.

فكان منظرهم وسط الجمهور الحاشد لافتا للنظر حقًا وتتألف من عباءة خضراء منقوشة بخيوط بيض للزينة وعلى الرأس قلانس - جمع قلنسوة وهي الطاقية بلغتنا العامية ولكنهم يجعلونها خضراً أو حمراً أما المشايخ وطلبة العلم فإنهم يلبسون العمائم فوق (الطواقي) المذكورة.



الشيخ طلعت تاج الدين في المؤتمر الإسلامي في اوفا على يمينه المؤلف وعلى يساره نائب رئيس جمهورية روسيا الاتحادية

ثم دخلنا إلى قاعة المؤتمر وهي واسعة كبيرة وجدناها غاصة بالجمهور من جميع الأعمار وأكثرهم من المثقفين ثقافة روسية عصرية ولكنهم من المسلمين.

وفي الحاضرين نسبة من النساء وأكثرهن جلسن خلف الرجال في مقاعد وصفوف منفصلة وإن لم يكن هذا قاعدة عامة عندهم.

وقد حضر المؤتمر وفود من عديد من الدول الإسلامية وغيرها حتى البعيدة كاليابان وفيهم من بلادنا غير وفدنا الأخ الأستاذ طارق بن لادن.

كما حضر سفراء الدول الإسلامية في الإتحاد السوفيتي أو ممثلو سفارات البلدان الإسلامية إلى جانب المؤسسات والجمعيات الإسلامية مثل منظمة المؤتمر الإسلامي التي مثلها فيه وفد من عدة أشخاص برئاسة الدكتور محمد محسن الأمين العام المساعد فيه.

كما حضر ممثلون للحكومة المركزية السوفيتية ومن كبار الدولة مثل نائب رئيس جمهورية روسيا الاتحادية ونائب رئيس وزراء جمهورية بشيكيريا ونائب رئيس شئون الأديان في الإتحاد السوفيتي كله.كما حضره عدد كبير من مصوري التلفزة والصحف سواء منهم من كان يعمل في جمهورية بشكيريا هذه أو في موسكو أو الجمهوريات الأخرى.



جانب ممن حضروا المؤتمر

وحضر أيضًا جمع غفير من رجال العلم وأئمة المساجد والعاملين في الإدارات الدينية مثل الشيخ محمد صادق بن محمد يوسف رئيس الإدارة الدينية في آسيا الوسطى وقازاقستان.

والمنصة الرئيسية واسعة جلس في صدرها رئيس المؤتمر الشيخ طلعت تاج الدين وجعلوا مكاني بجانبه على اليمين وبجانبي من جهة اليمين الدكتور محمد محسن الأمين العام المساعد في منظمة المؤتمر الإسلامي التي تمثل الدول الإسلامية، وعلى يسار رئيس المؤتمر نائب رئيس جمهورية روسيا الإتحادية فنائب رئيس جمهورية بشكيريا وذكروا أن رئيس الجمهورية الذي يسمونه رئيس مجلس السوفييت الأعلى فيها كان غائبًا عن البلاد في إجازة مرضية وإلاّ لكان حضر بنفسه وهو من أبناء المسلمين.

شعرة الرسول ولبن الخيل :

استرعى انتباهي على المنصة الرئيسية شيئان أحدهما صندوق فاخر مطعم بالصدف مغلق كان الشيخ طلعت تاج الدين قد وضعه أمامه وهو في قلب المنصة الرئيسية وكان ينظر إليه باحترام وأحيانًا كان يلمسه ويقبل يده التي لمسته إذا لم يكن يتحدث بنفسه، ولم تكن عدسات التصوير مسلطة عليه.



المنصة الرئيسية أثناء انعقاد المؤتمر من اليسار السفير محمد محسن ممثل منظمة المؤتمر الاسلامي فالمؤلف فالشيخ طلعت تاج الدين

وقد سألته أثناء البرنامج عما فيه لأنني لم أطق أن أصبر حتى ينتهي البرنامج فذكر أن فيه شعرة من شعر الرسول ﷺ وقال: إن أحد سلاطين آل عثمان كان قد أهداها لأحد رؤساء هذه البلاد في القديم.

والأمر الثاني أن على المنصة الرئيسية إلى جانب الماء زجاجات من لبن الخيل الحامض وهو الشراب المفضل عندهم، بل يكاد يكون رمز الضيافة في بلدهم.

الحفل الخطابي :

بدأ المؤتمر اعماله بآيات من الذكر الحكيم تلاها الشيخ رمضان أحد أعضاء الوفد التركي ثم تحدث الشيخ عبدالخبير جار الله إمام جامع قازان مرحبًا بالمشاركين والضيوف وذكر أن من أهداف المؤتمرين اعادة انتخاب الشيخ طلعت تاج الدين رئيسًا للإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي للإتحاد السوفيتي، وطلب من الحضور رفع صوتهم بالموافقة أو الاعتراض، فرفع معظم الحاضرين ايديهم بالموافقة على اعادة انتخاب الشيخ طلعت تاج الدين رئيسًا. ثم قدمه الشيخ عبدالخبير جار الله إلى الجمهور مهنئًا بثقة المسلمين فيه ومشيداً بمناقبه وفضله في خدمة المسلمين.

والجدير بالذكر أن الشيخ طلعت تاج الدين تلقى علومه الإسلامية الأولية على يد الشيخ عبدالخبير جار الله هذا، وهو من كبار العلماء المشهورين والمسنين بين جماعة المسلمين التتار في الإتحاد السوفيتي.

ثم تكلم الشيخ طلعت تاج الدين فشكر المسلمين على إعادة انتخابه رئيسًا لهم مجدداً العزم والهمة على العمل لما فيه خيرهم، ثم تحدث عن تاريخ الإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي حيث ذكر انها انشئت في عام ١٧٨٢م ولكن اكتمل تكوينها خلال مؤتمرها الأول في عام ١٩١٧م ومؤتمرها الثاني عام ١٩١٨م عند ما تولى رئاستها الشيخ ضياء الدين فخر الدين ثم عقدت الإدارة الدينية مؤتمرها الثالث في عام ١٩٢٣م وفي عهد الدكتاتور جوزيف ستالين خيم الركود على نشاط الإدارة الدينية بسبب استبداده وجرائمه.

وعقب الحرب العالمية الثانية عقد المؤتمر الرابع في عام ١٩٤٨م حيث ترأس الشيخ شاكر فيال الدين الإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي التي لم تتمكن منذ ذلك الوقت من عقد مؤتمر لها إلا هذا المؤتمر الحالي الذي تم تنظيمه في ٦، ٨ يونيه ١٩٩٠م ثم أشار إلى أنه تولى رئاسة هذه الإدارة الدينية في عام ١٩٨٠م وكان عدد المساجد التي تشرف عليها ١٤ مسجداً من اصل ٢٧٥٠ مسجداً قبل الحكم الشيوعي.. ثم اثنى بالشكر على الرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف وسياسته التي عرفت بالمصارحة وإعادة البناء ومايتبعه من منهج قائم على توفير الحريات والحقوق وتحسين الأحوال الاقتصادية، مما أدى إلى تمتع المسلمين بحرياتهم ونشاطهم حيث جرى الاحتفال بمرور ١١٠٠عام على دخول الإسلام إلى منطقة حوض نهر الفولقا في شهر محرم ١٤١٠هـ كما أن عدد المساجد التي فتحت في أنحاء الإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي بلغت أكثر من ٢٥٠ مسجداً، وأن المعهد الإسلامي الذي فتح في جامع اوفا تخطط الادارة الدينية لإنشاء مبانيه قريبًا.

وأشار إلى وصول المصاحف التي أهداها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز لهم وأن المساعي تبذل في إرسال الحجاج السوفيت إلى الأراضي المقدسة، وذكر أيضًا أن الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة تبرع للإدارات الدينية في الإتحاد السوفيتي بمبلغ مليون دولار.

بعد ذلك تكلم بيريبينوسوف فيودورفيج نائب رئيس جمهورية روسيا الإتحادية لشئون الأديان فهنأ الشيخ طلعت تاج الدين على إعادة انتخابه رئيسًا للإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي للإتحاد السوفيتي، وتحدث عن سياسة حرية الدين التي كفلها القانون السوفيتي وحرية الناس في ممارسة شعائرهم الدينية وعن انتعاش النشاط الثقافي والديني بفضل سياسة الرئيس ميخائيل جورباتشوف في المصارحة وإعادة البناء التي اتاحت فرصة هبوط الطائرات التي حملت هدايا خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز من المصاحف إلى مسلمي الإتحاد السوفيتي وكذلك أشار إلى الاستعدادات التي تجرى لسفر الحجاج السوفيت إلى الأراضي المقدسة.

ثم تحدث السيد حبيب الله شيخ مراد أوغلي نائب رئيس جمهورية باشقردستان الذاتية الحكم بعد أن هنأ الشيخ طلعت تاج الدين برئاسة الإدارة الدينية، عن التطورات التي احرزتها بلاده في مختلف النواحي الحضارية.

وكان الخطباء يتكلمون بلغتهم وكانت هناك ترجمة فورية للعربية من مسماع واحد يوضع على أحد الأذنين يصعب تثبيته إلا إذا أمسك به المرء بيده وجعله فوق أذنه فكنت أجد من ذلك حرجًا لكوني بجانب رئيس المؤتمر من المنصة الرئيسية، بل إن مقعدي هو المقعد الثاني لأنني على يمين الرئيس.

وبعد ذلك تقدم محاسب الجمعية الإسلامية في سيبريا وهي إحدى الجمعيات التي تتبع الإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي من الإتحاد السوفيتي فألقى كلمة الجمعية وفي نهايتها سرد حساب الجمعية بالروبل الواحد بحيث بينَّ مداخلها ومصارفها وعقب الشيخ طلعت على ذلك بتعقيب مستضيف كان منه قوله: البترول عندنا في بلادنا ونحن فقراء، لأن دخله يذهب لغيرنا وعندنا المعادن في جمهوريتنا ولكننا لاننال منها إلاَّ أجر عمالنا.

وقال في تعقيب آخر على ذكر رواتب أئمة المساجد: نرجو منكم جميعًا ألاَّ يعطي أحد منكم الإمام أي مبلغ من المال لأننا نعطيه راتبًا شهريًا يعادل راتب رئيس البلدية، ومسكنًا، ونزيده على ذلك سيارة لتنقلاته فلم تعطونه زيادة على ذلك؟

فترة استراحة :



صورة تذكارية في أثناء استراحة المؤتمر

كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة فأعلنت فترة استراحة لمدة نصف ساعة لتناول الشاي والمرطبات تتم بعدها العودة إلى القاعة لاستئناف أعمال المؤتمر حتى الساعة الثانية حيث تنتهي الجلسة الأولى هذا اليوم فكانت الاستراحة على شاي وقهوة ومياه معدنية وعصير من عصير الفاكهة وحلوى وبسكويت وكان أهم من ذلك أن تحلق أعضاء المؤتمر على موائد يتناولون ذلك وهم يتحدثون بعضهم إلى بعض، ويقدم بعضهم بعضًا إلى صاحبه أو اصحابه.



نماذج المساجد في المنطقة اثناء فترة الاستراحة في المؤتمر

ثم عاود المؤتمرون الاجتماع في القاعة، وقد انتظم جمعهم الحاشد فيها مع أنه لم يكن منتظراً أن يتم كالجلسة الافتتاحية ولكن لم يغادر أحد منهم المؤتمر فيما يظهر.

وفي هذه الجلسة التكميلية للجلسة الافتتاحية قرر المؤتمرون ارسال برقيات منهم إلى عدد من رؤساء الدول وملوكها منهم الرئيس السوفيتي جورباتشوف وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز والملك الحسن الثاني ملك المغرب والأمير زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة والشيخ جابر آل صباح أمير دولة الكويت والسيد حامد الغابد الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي والأمين العام لرابطة العالم الإسلامي الدكتور عبدالله نصيف وقد طلب مني الشيخ طلعت وبعض سفراء الدول الإسلامية أن اتولى مع لجنة صياغة هذه البرقيات لأن المؤتمر طلب أن تقرأ عليهم في جلسة المساء.

وكلف الأخ الاستاذ المنصف القليبي من موظفي منظمة المؤتمر الإسلامي أن يتولى الكتابة للجنة فحضر معنا الأخ الدكتور زين العابدين بن ناصر من مصر.

كما تكلم عدد من الخطباء منهم الشيخ محمد صادق محمد يوسف والدكتور محمد محسن عن منظمة المؤتمر الإسلامي والشيخ عبدالخبير جار الله.

وهذه نصوص البرقيات المرسلة إلى بعض رؤساء الدول الإسلامية.

أوفا في ١٤ ذي القعدة ١٤١٠هـ

خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إن المشاركين في المؤتمر الخامس لمسلمي القسم الأوروبي في الاتحاد السوفيتي وسيبريا المنعقد حاليًا في أوفا عاصمة باشكريا ينوهون بمكرمتكم الجليلة المتمثلة في إهداء مليون مصحف شريف لمسلمي الاتحاد السوفيتي التي هي بادرة متجددة تضاف إلى مكرماتكم العديدة فيما تقدمونه نحو اخوانكم المسلمين اينما وجدوا.. وهذا ما يرسخ الاعتقاد لدى المؤتمرين بأنكم حقًا جديرون بحمل الأمانة المتمثلة في خدمة الحرمين الشريفين والسعي فيما يرفع من شأن الإسلام والمسلمين.

كذلك فإننا نقدر دور منظمة المؤتمر الإسلامي التي ترعونها وتدعمونها خير عناية ودعم.

أدامكم الله تعالى خير سند ونصير للإسلام والمسلمين.

رئيس المؤتمر

طلعت تاج الدين

جلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية ورئيس لجنة القدس،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

إن المشاركين في الدورة الخامسة للمؤتمر العام لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا يثمنون مشاركة سفير جلالتكم في موسكو في هذا المؤتمر التاريخي والمصيري في حياة المسلمين السوفيت ويعتبرون هذه المبادرة

الطيبة ليست غريبة على جلالتكم ومجهوداتكم الخيرة في خدمة أمتكم وقضيتها الأولى فلسطين والقدس الشريفة.

اثابكم الله وزادكم توفيقا لخدمة ديننا ومقدساتنا الغالية والله يحفظكم

رئيس المؤتمر

المفتي طلعت تاج الدين

حضرة صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير دولة الكويت ورئيس منظمة المؤتمر الإسلامي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن المشاركين في الدورة الخامسة للمؤتمر العام لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا المنعقدة في اوفا عاصمة باشكريا يرفعون لسموكم عبارات الشكر والتقدير على حسن عنايتكم باخوتكم المسلمين في الاتحاد السوفيتي والدفاع عن حقوقهم في الدين بعزة وكرامة.

وان مشاركة منظمة المؤتمر الإسلامي في اعمال المؤتمر التاريخي لهو أفضل برهان على جدية منظمتكم ورئاستكم الموفقة لها.

بارك الله تعالى جهودكم الخيرة في نصرة الإسلام والمسلمين وادام توفيقكم لما فيه الخير والصلاح والله يحييكم ويرعاكم.

رئيس المؤتمر

المفتي طلعت تاج الدين

أما البرقية التي ارسلها المؤتمر إلى الرئيس جورباتشوف رئيس الاتحاد السوفيتي فإن نصها هو الآتي :

سيادة الرئيس ميخائيل جورباتشوف رئيس اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية - المحترم

تحية واجلالة

لقد عقد المؤتمر العام لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا دورته الخامسة في أوفا وحضره ممثلو عدة دول ومنظمات وهيئات اسلامية عالمية وممثلو الإدارات الدينية لمسلمي جمهوريات الاتحاد السوفيتي.

وقد نوه المشاركون بالخطوات الشجاعة التي اقدمتم عليها ضمن سياسة إعادة البناء والتي تمكن من خلالها المسلمون من استعادة مؤسساتهم الإسلامية من مساجد ومدارس ومن المحافظة على مايكفل هويتهم وثقافتهم الإسلامية المتميزة ولاشك أن التاريخ سيسجل لكم هذه المواقف بكل فخر وتقدير.

كذلك اطلع المشاركون الاجانب على ما حصل عليه المسلمون من حقوق اساسية وسوف ينقلون ذلك إلى مراجعهم الرسمية والشعبية وإلى كافة الهيئات الإسلامية في العالم يأمل المشاركون أن تكون هذه الخطوة الايجابية مقدمة لأن ينال المسلمون السوفيت كل ما يصبون إليه في سبيل الحفاظ على كيانهم ضمن هذه الدولة العظيمة.

كما يبدون إرتياحهم إلى احتمال اعادة النظر من الحكومة السوفيتية في موضوع هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين والقدس الشريف.

وتقبلوا سيادة الرئيس أسمى عبارات الود والتقدير.

رئيس المؤتمر

طلعت تاج الدين

غداء المؤتمر :



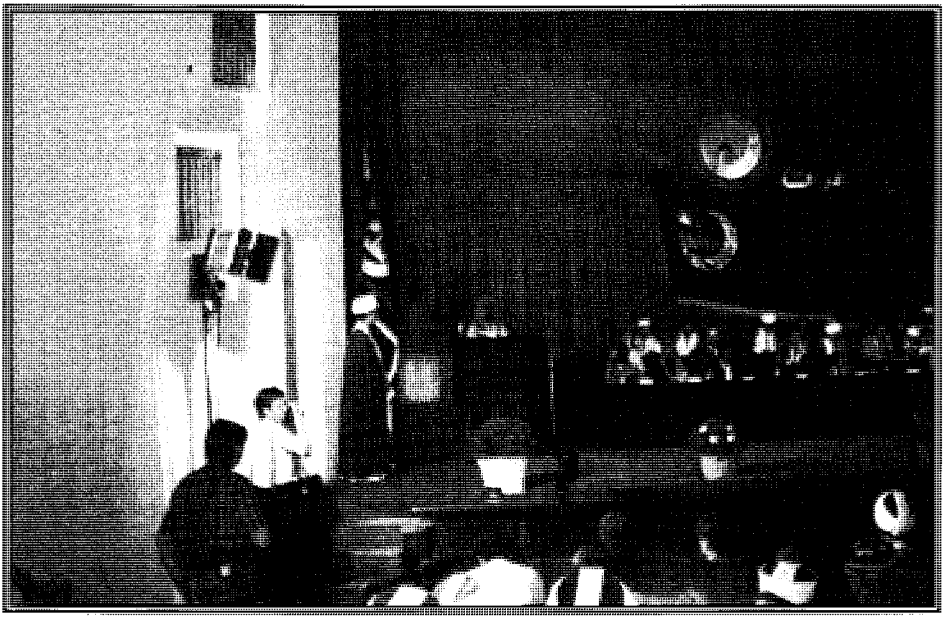
على مائدة الغداء التي اقامتها الادارة الدينية في أوفا

انتهت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر في الساعة الثانية وصلى بعضهم في مقر المؤتمر في قصر الثقافة وآخرون ذهبوا إلى الفندق حيث نووا أن يجمعوا الظهر مع العصر لكونهم مسافرين وذلك لحضور حفلة الغداء الكبرى التي أقامها المؤتمر للوفود وأعضاء المؤتمر من داخل الاتحاد السوفيتي وخارجه في فندق روسيا الذي يحل فيه أكثرهم.

فكانت حفلة سخية وجدناهم قد ملأوا موائد الطعام بمقدمات المائدة التي منها قطع من اللحم المقدد والمخللات والزجاجات المتنوعة من ألبان الخيل والسلطات التي تبين أنها أو أكثرها مستورد أو مما أنتجته المزارع المحمية عن البرد إلى جانب بعض الفواكه المجففة والطازجة ثم صاروا يأتون بالأصناف الرئيسية الحارة من الطعام وأهم مافيها صحن من لحم الغنم الدسم فهكذا هم في هذه البلاد الباردة يحبون اللحم الدسم لأن الدسم يسبب الدفء.

الجلسة الثانية :

استأنف المؤتمر اعماله في الساعة الخامسة فألقيت كلمتي التي كان رئيس المؤتمر طلب مني أن ألقيها في الجلسة الأولى فقلت له: إن هناك من هم أولى بذلك.



المؤلف يلقي كلمة في المؤتمر الإسلامي

وقد القيتها مرتجلة وكان الشيخ طلعت تاج الدين قد طلب مني أن تكون كلمتي مكتوبة حتى تسهل ترجمتها قبل القائها فكتبت منها شيئًا ثم لم استطع أن ألقيه مكتوبًا جريا على عادة أخذت بها نفسي وهي أن تكون كلمتي التي القيها في مثل هذه الاجتماعات مرتجلة غير مكتوبة وقد قلت في كلمتي:

أيها الإخوة المسلمون الكرام أيها الأصدقاء الأعزاء لقد جئنا من مهابط الوحي ومن منطلق الإسلام الأول من مكة المكرمة نحمل اليكم تحيات رابطة العالم الإسلامي وجميع العاملين فيها وعلى رأسهم معالي الأمين العام للرابطة الدكتور عبدالله عمر نصيف كما نحمل اليكم تحيات إخوانكم في المملكة العربية السعودية وخاصة منهم أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة.

ومن خلال رابطة العالم الإسلامي نبلغكم تحيات إخوانكم المسلمين في جميع أنحاء المعمورة فرابطة العالم الإسلامي يمثل فيها المسلمون من أنحاء العالم على حد سواء لا فرق بين أسود وأبيض أو بين أهل الشرق وأهل الغرب (إنما المؤمنون إخوة).

وتحت شعار الرابطة التي يشرفها أن يكون في مظلة الآية القرآنية الكريمة:- ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعًا ولاتفرقوا**﴾.

مستهدية بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

إيها الإخوة الكرام :

لقد تلقت رابطة العالم الإسلامي الدعوة الكريمة لحضور هذا المؤتمر بسرور بالغ وبادرت بإيفادنا لحضوره.

وذلك انطلاقًا من سياسة الرابطة القائمة على الأخوة الإسلامية وعلى التضامن الإسلامي والتعاون على البر والتقوى امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾.

وهي السياسة الرشيدة الثابتة التي سارت عليها دولة المقر أي الدولة التي تقيم الرابطة فيها وهي المملكة العربية السعودية وعلى رأسها خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود حفظه الله الذي كان يأخذ زمام المبادرة في هذا المضمار ومن ذلك وليس آخره إهداؤه مليون نسخة من المصحف الشريف إلى الإخوة المسلمين في البلاد السوفيتية.

رهي الهدية التي وصل اليكم الجزء الكبير منها، والباقي هو قيد الوصول إن شاء الله، وكان مما يبهج ويعطي الدليل الحي الجديد على أن الدين الإسلامي هو خير للجميع من مسلمين وغير مسلمين أن الطائرات السوفيتية نزلت في مطار جدة في المملكة العربية السعودية لنقل هذه المصاحف إلى الإخوة المسلمين في مختلف أنحاء الإتحاد السوفيتي.

فأعطى ذلك الدليل الحي على التعاون الثقافي الخالص الذي ينبغي أن يحكم العلاقات بين الثقافات المتنوعة.

أيها الحفل الكريم :

لقد تابعت رابطة العالم الإسلامي التطورات المشجعة التي حدثت في الإتحاد السوفيتي بالنسبة إلى المشروعات الإسلامية فقد كان لسياسة إعادة البناء التي قام عليها الرئيس جورباتشوف ومعاونوه في المسئولية أثر كبير على الإخوة المسلمين في الاتحاد السوفيتي مثلهم في ذلك مثل سائر مواطني البلاد السوفيتية.

فأعيدت اليهم بعض المساجد وصدر الترخيص ببناء مساجد جديدة كما فتحت فصول لتعليم الدين الإسلامي وسمح بطباعة الكتب الإسلامية.

وكان من أبرز ذلك أثراً في نفوس المسلمين تيسير الحج للمسلمين السوفييت حتى زاد عدد الحجاج من الإتحاد السوفيتي في هذا العام عن الف واربعمائة حاج بعد أن كان طيلة خمسين سنة لايزيد على بضعة عشر حاجًا وإننا نرجو أن تزداد هذه الخطوات المشكورة رسوخًا ، وأن يتمتع الإخوة المسلمون في الإتحاد السوفيتي بالحرية التامة في ممارسة شعائر دينهم وفي أداء فريضة الحج كل عام.

وهذه بادرة طيبة للمسلمين ليس في الاتحاد السوفيتي وحده بل تجاه المسلمين في أنحاء العالم.

أيها الإخوة الكرام إن الإسلام دين الأخوة والتعاون، وأولى الخطوات نحو التعاون هي الإتصال والتزاور وإن إقامة هذا الإجتماع المبارك لمناسبة عقد مؤتمر الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي وسيبريا جاء من وحي هذا المعنى الجليل.

ونحن نكبر ذلك ونقدره تمام التقدير ونعتبره إسهامًا في التعاون بين الجمعيات والهيئات الإسلامية.

وإن ذلك يذكرنا بماضي هذه المنطقة عندما اعتنق بعض أهلها الدين الإسلامي قبل ألف عام أو تزيد عن اقتناع ورضا وأرسلوا إلى الخليفة العباسي في بغداد المقتدر بالله أن يرسل إليهم من يرشدهم إلى أمور دينهم فأجابهم إلى ذلك وجاءت البعثة على رأسها قاضي بغداد ومعها الكاتب ابن فضلان الذي سجل في تلك الرحلة مشاهداته القيمة عن نواحي الحياة في هذه المنطقة وما كان جهة الشمال منها من البلاد الروسية والاسكندنافية وبذلك صارت تلك الرحلة مرجعًا للمؤرخين والباحثين في تاريخ هذه المنطقة حتى الآن بحيث ضمت معلومات لاتوجد في غيرها من المراجع.

وذلك كله بفضل التعاون الديني الإسلامي الخالص من الدوافع السياسية أو غيرها.

وما أشبه الليلة بالبارحة حين يدعو صديقنا المفتي الشيخ طلعت تاج الدين وإخوانه العاملون معه في الإدارة الدينية هنا إخوانا لهم من المسلمين العاملين في الهيئات الإسلامية لابدافع أن يرشدوه وإخوانه المسلمين هنا إلى دينهم فهو ولله الحمد عالم من العلماء الاجلاء ويساعده إخوانه من الأئمة والخطباء في الإدارة على سعة رقعتها وتباعد نواحيها وإنما من أجل التعاون على البر والتقوى تعاونًا ثقافيًا إسلاميًا خالصًا خاليًا من دوافع السياسة أو المنافع المادية الأخرى.

وبذلك يتحقق مظهر من مظاهر الإخوة الإسلامية التي يكون فيها الخير للمسلمين ولغيرهم من المواطنين من غير المسلمين عن طريق الصداقة والتعاون المثمر دون التدخل في الأمور السياسية الداخلية للدول.

سماحة المفتي، أصدقاءنا من رجال الدولة والإدارة، اخواني الحضور :

إن الإسلام في هذه المنطقة من الإتحاد السوفيتي الواقعة حول نهر الفولقا يعطي الدليل الحي الملموس في الرد على من يزعمون أن الإسلام انتشر بقوة السيف، فلم يكن هناك سيف إسلامي وصل إليها عندما اعتنق أهلها الأوائل

الدين الإسلامي، وإنما هو الاقتناع الحر بهذا الدين الحنيف الذين اختاره الأجداد وحافظ عليه الأحفاد حتى وصل الآن إلى رعاية الإدارة الدينية في القسم الأوروبي وسيبريا من الإتحاد السوفيتي.

وقد وجدت الإدارة في إجراءات الانفتاح على النفس والانفتاح على الإخوة المسلمين في خارج الإتحاد السوفيتي ماسوف يكون له الأثر الفعال بإذن الله في رسوخ الإسلام في نفوس ناشئة المسلمين في هذه البلاد وتأكيد الثقافة الإسلامية العريقة في تربية أبنائهم.

ومثل آخر يعطيه وجود الإسلام في هذه المنطقة حول نهر الفولقا وهو أن الإسلام دين إنساني عالمي وليس دين انغلاق على عنصر دون عنصر أو بلد دون بلد.

فهو ليس دين العرب وحدهم وإنما شرف الله من آمن به من العرب فحملوه إلى الآخرين.

وكان بين الذين شرفهم الله بحمله، وشرفهم بصحبة رسوله ﷺ صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي.

ثم تتابعت جنود الله تترى من أناس معروفين عند الناس وأناس مجهولين عند الناس معروفين عند الله نشر الله بهم الإسلام وأضاء بهم عقول كثير من الأقوام.

ومايزال الإسلام حتى لحظتنا هذه يباشر القلوب فتؤمن به، بل وتكون من جنوده.

وأقرب الأمثلة على ذلك في عدة جزر من جزر جنوب المحيط الهادئ مثل تونغا وساموا فضلاً عن نيوزلندا التي توجد فيها الآن سبع جمعيات إسلامية ولها العديد من المساجد منها مسجدان في مدينة أوكلاند في الجزيرة الشمالية من نيوزلندا وفي الجزيرة الجنوبية التي تعادل في قربها من القطب الجنوبي موقع بلادكم في القرب من القطب الشمالي تقريبًا.

لذلك يقول إخوتكم المسلمون في مدينة (اكرايست تشيرتش) نحن أقرب من يقول: الله أكبر إلى القطب الجنوبي، يريدون أنهم أقرب من ينادون بالأذان في الموقع إلى القطب الجنوبي.

وهذا مثل قول الإخوة المسلمين في جزر فيجي: نحن أول المسلمين الذين تطلع عليهم الشمس ويريدون من ذلك أنهم أول المسلمين في الموقع بعد خط التاريخ الدولي الذي يقسم المحيط الهادئ من الشمال إلى الجنوب ويقع على خط الطول ١٨٠ المقابل لخط كرينتش.

وعند ذلك الخط يتغير التاريخ اليومي فيكون على من قدم إليه من جهة الشرق أن يسقط من حسابه يومًا واحداً وعلى من قدم إليه من جهة الغرب أن يزيد يومًا واحداً.

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن في فيجي وحدها (٤٧) مسجداً و١٥ مدرسة إسلامية والأمثال على انتشار الإسلام في هذا العصر الحديث كثيرة لايتسع المجال لذكرها وإنما نشير إشارة إلى أن مدينة بروكسل مثلاً قد بلغ عدد المساجد فيها الآن مايزيد على ثلاثين مسجداً ولله الحمد.

أيها الإخوة في الإسلام: مرة أخرى أحييكم باسم رابطة العالم الإسلامي والمنتمين إليها، ونيابة أيضًا عن أعضاء وفد الرابطة الموجودين معنا الآن وهم الأستاذ حاتم قاضي والأستاذ رحمة الله بن عناية الله والأستاذ أيمن حبيب.

حفلة الفن الشعبي :

في مساء اليوم قدمت جمعية الفنون والمسرح لجمهورية باشقردستان عروضًا شعبية تضمنت بعض الاناشيد الوطنية الإسلامية التي تصور سقوط مدينة قازان الإسلامية في أيدي الروس عام ١٥٥١م وكذلك ماساة المسلمين الذين خربت مساجدهم وجوامعهم في عهد ستالين وكانت عروضًا مفعمة بالحزن والأسى اثارت الحسرة في نفوس الحاضرين على أيام مجد المسلمين في هذه المنطقة التي منيت بالحكم الروسي والشيوعي.

ولم أحضر هذه الحفلة لكوني لم أنم منذ ٣٦ ساعة وأخبرنا الإخوة الذين حضروا الحفلة أنها كانت شيقة وأن مغنية فيها بدأت بقراءة الفاتحة ثم غنت عن الأمجاد الإسلامية الضائعة لهذا الشعب المسلم حتى أبكت كثيراً من الحاضرين.

يوم الخميس ١٤/١١/١٤١٠هـ ٧/٦/١٩٩٠م :

المؤتمر تستمر أعماله :

استؤنفت أعمال المؤتمر الخامس لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي من الإتحاد السوفيتي في هذا الصباح وكانت أولى كلمة لأحد زعماء تتار القريم الذين كان الروس في عهد ستالين قد نفوهم من بلادهم في القريم إلى سيبريا وإلى أماكن نائية قاسية المناخ في الإتحاد السوفيتي بتهمة كونهم مالؤا الألمان إبان الحرب العالمية الثانية.

فكان مما جاء في كلمته قوله: لقد صبرنا على النفي والآن نعود إلى وطننا ونحن ثمانمائة ألف إنسان بدون مساعدة.

وقال: يجب علينا أن نعيد الروح الدينية الإسلامية إلى شعبنا العريق في إسلامه ولكن مساجدنا مخربة، ودورنا بل جميع المباني الثقافية اللازمة لذلك تحتاج إلى بناء ولذلك نحن نحتاج إلى المساعدة من إخواننا المسلمين على هذه الأمور الثقافية.

فقلت للشيخ طلعت تاج الدين رئيس المؤتمر إنه يمكنك أن تقول له: إن رابطة العالم الإسلامي مستعدة لمساعدتهم وينبغي وضع الترتيبات اللازمة لذلك التي أولها أن يوضحوا بيانا بحاجاتهم الملحة.

ثم تكلم نائب رئيس المسلمين في جمهورية قازاقستان باللغة العربية مثلما كان الشيخ محمد صادق قد تكلم بالعربية أمس وذلك أنهما لايستطيعان الكلام بالتتارية ولايريدان التكلم باللغة الروسية التي يفهمها الجميع هنا.

ثم تكلم أحد الموظفين الحكوميين الذين يفترض أنهم أعضاء في الحزب الشيوعي أو من المناصرين له واسمه (كريم باووشي) مدير المركز الاجتماعي في ناتا، هكذا ذكروه.

فقال بعد البسملة: هذه أول مرة في حياتي أقول فيها: بسم الله الرحمن الرحيم في أول كلامي. وتحدث عن الماضي العريق في هذه البلاد للإسلام وقال: المهم الآن أن نعرف كيف نوصل إلى ابنائنا السعادة الروحية والإيمان بالتعاليم المقدسة للدين الإسلامي وقال: أول ذلك أن نعمل على استعادة جوامعنا التي سلبت منا.

وقد أثارت كلماته الحماسية التي تدل على صدق مشاعره حماس الحاضرين حتى بكيت عند ما رأيت ذلك منهم.

وقال: لقد كانت جريدتنا الإسلامية تصدر حتى أوقفت في عام ١٩٠٨م والآن عاودت الصدور ولكننا لانستطيع الحصول على الورق اللازم لإصدارها مع أن بلادنا وهي جمهورية بشكيريا تنتج ٧٠٪ بالمائة مما تحتاجه من الورق.

وقال قولا صفقوا له حتى اهتزت القاعة بالتصفيق: لابد من تعليم اللغة العربية كلغة ثانية بديلة من الألمانية أو الفرنسية.

ثم وافقوا على قرار بتدريس اللغة العربية في مدارس المسلمين.

وبعده تكلم أحد الإخوة من داغستان باللغة الروسية فقاطعوه وقالوا: لانريد أن يتحدث أحد بالروسية، فقال: اعذروني فإن لغتي العربية ضعيفة ولغتي الأصلية وهي الداغستانية لاتعرفونها لذلك اضطررت للكلام باللغة الروسية.

عطلة الجمعة للعمال :

ناقش المؤتمر مناقشة حرة موضوع التعطيل يوم الجمعة للعمال المسلمين من أجل أداء صلاة الجمعة، فقال الشيخ طلعت: نحن نراهم يعطلون العمل في بعض الأحيان لمدة خمس عشرة دقيقة من أجل التدخين لأنه لايسمح بالتدخين في محل العمل فلم لايخصص وقت يعطل فيه العمل لأداء الصلاة؟ وقال: في

الماضي صادرت البلدية مصاحف جاءتنا فقلنا لهم آنذاك: خذوا الخبز واعطونا المصاحف، والآن تغيرت الحال فالمصاحف وصلت وسلمت للمسلمين فيجب أن تتغير الأشياء الأخرى أيضًا.

ثم تكلم الإمام عبدالله هكذا لم يزيدوا في اسمه على (عبدالله) وكنت التقيت به في محج قلعة عاصمة الداغستان في المرة السالفة وقد ذكروا أنه سيلقي كلمة مسلمي القوقاز فتكلم بالعربية وحدها ودارت كلمته عما ينبغي أن يكون عليه إمام المسلمين ويفهمون من ذلك أن المراد به رئيس الإدارة الدينية لذلك قاطعه الشيخ طلعت بالعربية منكراً عليه مايقوله فقطع كلمته ونزل عن المنصة.

الرثاء بالغناء :

أرادوا تنويع الكلمات فنادوا على مغنية شعبية تترية أي من أهل هذه البلاد، لأنهم جميعًا حتى البشكيريين يعتبرون أنفسهم من الناحية التاريخية من التتار.

فنهضت من آخر الصفوف امرأة في نحو الثلاثين من عمرها تقدمت وهي في ثياب ساترة محتشمة وثوبها أخضر اللون وقد غطت شعرها بشال أبيض وقد أصبح اللون الأخضر شعاراً للمسلمين في هذه البلاد وربما كان شعاراً لهم في السابق أحيوه إحياء واسمها (كلذاده صفي الله).

وقد ذكرت في كلمة مختصرة قبل القاء الأغنية أنها قروية وأنها لأول مرة تحضر مثل هذا الاجتماع وذكرت أنها تحضر الحفلات الموسيقية والاجتماعات الشعبية ويحضرها رجال الدين في بعض الأحيان وأنها فرصة للحديث في شئون الدين إلى عامة الناس الذين لايجدون وسيلة للمعرفة الإسلامية إلا من خلالها ثم ابتدأت الغناء بصوت شجي حزين يشبه البكاء والنوح وهو في الحقيقة نوح على أمجاد للمسلمين ضاعت وكرامات لهم أهدرت وثقافة إسلامية عريقة أميتت، وكان صوتها مؤثراً وكان الشيخ طلعت تاج الدين يترجم لي كلمات

الأغنية فيما بيني وبينه فبكيت والله كما بكى بعض القوم الذين يفهمون لغتها.

هذا وقد لاحظت أن الخطباء وصفوا في كل خطبهم العهد الستاليني بأنه عهد الظلم، والعهد البريجنيفي وهو العهد الذي سبق عهد جورباتشوف بأنه عهد الركود.

وفي هذه الجلسة ناقش المؤتمرون أموراً اجرائية نظامية متعلقة بأمور المسلمين هنا منها موضوعات ترشيح وانتخاب أعضاء مجلس الشيوخ المسلمين، ومجلس العلماء ولجنة التفتيش المركزية التي تتبع الإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي للإتحاد السوفيتي ويستعين بهم رئيسها الشيخ طلعت تاج الدين على تصريف أمور المسلمين لمدة خمسة أعوام وهي الفترة القانونية للإنتخاب.

كما ناقش المؤتمرون مشروع النظام الداخلي للإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي للإتحاد السوفيتي الذي ينظم اعمال الخطباء والمدرسين والأئمة والمؤذنين وموظفي الإدارة الدينية وما يستلزم ذلك من الاجراءات الإدارية والمالية والمتابعة.

ونظراً لشح المعلومات، بل ندرتها عن الأمور المتعلقة بأوضاع المسلمين في هذه البلاد، ولكون البلاد تجتاز الآن مرحلة تاريخية رأيت اثبات مشروع النظام الداخلي للإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الإتحاد السوفيتي وسيبريا رغم حرصي على عدم نقل النصوص في كتبي التي ألفتها في الرحلات.

مشروع النظام الداخلى

للنظارة الدينية لمسلمى القسم

الأوروبى من الاتحاد السوفيتى وسيبريا

٦ ـ ٨ يونيو ١٩٩٠م

أوفا

١ - المعلومات العامة

١ - تعتبر النظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي للاتحاد السوفيتي وسيبريا اتحاداً دينيًا لمسلمي الاقليم المذكور اعلاه ويعتمد على الالتزام بدعوة الله العظيم: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا**﴾.

٢ - تعتمد النظارة الدينية في تحقيق نشاطاتها على المفاهيم والاسس التالية:

- صدق الله العظيم : القرآن.
- السنة لمحمد رسول الله ﷺ.

قواعد الشريعة الغراء المعبر عنها في اجتهاد الفقهاء الملتزمين باركان القرآن الكريم وسنة الرسول.

- قرارات المؤتمر.
- النظام الداخلي الحالي.
- المراعاة والاحترام لقوانين الدولة.

٣ - أن الهيئات العليا للسلطة والإدارة الدينيتين هي مؤتمر مندوبي خدمة الدين والرعايا لمسلمي القسم الأوروبي وسيبريا والمجلس الأعلى للنظارة ومجلس الشيوخ للنظارة ومجلس العلماء وشيخ الإسلام المفتي.

٤ - أما هيئة الإدارة المحتسبية فتمثل بالإمام المحتسب مع الاجتماع المحتسبي ومجلس المحتسبات.

٥ - يعتبر رئيس المجلس الإمام الخطيب مع اجتماع الرعية ومجلسها المتولية هيئة الإدارة الرعية.

٦ - إن حقوق المحكمة الشرعية فيمتلكها المؤتمر والمجلس الاعلى للنظارة ومجلس العلماء والاجتماع المحتسبي واجتماع الرعية.

٧ - تمتلك النظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا والمحتسبات والرعايا والمدارس الدينية بالصلاحيات الحقوقية الاهلية (المدنية).

٢ - مؤتمر مندوبي خَدمة الدين والرعايا لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا

١ - يعتبر مؤتمر مندوبي خدمة الدين ورعايا المسلمين للاقليم والمنتخبين في اجتماع الجمعة للرعية هيئة عليا للنظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا.

٢ - تعقد المؤتمرات الدورية من قبل سماحة المفتي والمجلس الاعلى للنظارة الدينية مرة واحدة كل ٥ سنوات.

٣ - يعلن المجلس الاعلى للنظارة الدينية موعد عقد المؤتمر وجدول اعماله قبل انعقاد المؤتمر بما لايقل عن شهرين.

٤ - اما المؤتمرات (الاستثنائية) فتعقد من قبل المفتي أو المجلس الاعلى بمبادرتهما أو يطلب ما لايقل عن ثلث المندوبين للمؤتمر الاخير.

٥ - يعقد المؤتمر غير الدوري (الاستثنائي) خلال مدة شهر واحد ويعتبر مفعولاً (صالحا للانعقاد) إذا تمثل فيه ما لايقل عن ثلثي مجموع الرعايا (جميعا) (كافة) للنظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا.

٦ - تحدد معدلات التمثيل في المؤتمر بالمجلس الاعلى للنظارة الدينية.

٧ - يعتبر المفتي والقاضي وأعضاء مجلس العلماء وأعضاء لجنة التفتيش المركزية والأئمة المحتسبون وطلاب (طلبة) المدارس والمعاهد الدينية وموظفو النظارة الدينية مندوبي المؤتمر بموجب منصبهم.

٨ - المؤتمر.

(أ) يتخذ المؤتمر قرارات نهائية خاصة بقضايا التعليم الإسلامي النظرية ويؤمن بذلك وحدة رعايا النظارة لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا والاحتفاظ بالعلو الإلهي للدين الإسلامي والاخلاق والاخلاص للدين.

(ب) يستمع إلى تقارير مجلس الشيوخ للنظارة الدينية ومجلس العلماء ولجنة التفتيش المركزية ويصادق عليها.

(جـ) يعيد النظر في النظام الداخلي للنظارة الدينية ويصادق عليه.

(د) يرسم (يحدد) البرنامج طويل الامد حول مسائل النشاط الداخلي والخارجي للنظارة الدينية.

(هـ) ينتخب المفتي ونصف العدد لأعضاء مجلس الشيوخ للنظارة الدينية ومجلس العلماء وأعضاء لجنة التفتيش المركزية وذلك بالتصويت السري المباشر.

(و) يعبر عن الموقف بالقضايا الانسانية العامة المعاصرة.

(ز) يصادق صلاحيات جميع المندوبين وجدول الاعمال للمؤتمر وبرنامج عقد الجلسات وجدول اعمالها وينتخب هيئة المؤتمر امانته وعناصر العمل الاخرى باغلبية عادية.

(حـ) يدرس بصفة المستوى القضائي الاخير في هذا العالم الانحرافات القانونية النظرية في نشاط المفتي.

(ط) يحكم بصفة المرجع الاخير بكافة القضايا المدروسة مسبقا في المجلس الاعلى والمنقولة إلى المؤتمر لاجل القرار النهائي.

٩ - أما المؤتمر فيرأسه (فيديره) المفتي وفي حالة غيابه اقدم القضاة.

١٠- يعتبر نصاب المؤتمر قانونيًا إذا حضره المندوبون المنتخبون شرعيًا والذين يمثلون ثلثي الرعايا للنظارة الدينية.

١١- تتكون هيئة المؤتمر من رئيسها المفتي والمندوبين الستة بدرجة (برتبة) القضاة والمندوبين الستة المنتخبين بالمؤتمر نفسه تدير الهيئة جلسات المؤتمر.

١٢- تتكون امانة المؤتمر من سكرتيرها ومساعديه من خدَمة الدين والمندوبين من الرعايا.

تتحمل الامانة مسؤولية اعداد الوثائق والمعلومات لعمل المؤتمر وتدوين بروتوكولات الجلسات التي توقع من قبل رئيس هيئة المؤتمر وأعضائها والسكرتير.

١٣- تشكل هيئة المؤتمر والامانة عناصر العمل الاخرى مجلسًا للمؤتمر يعتبر مجلس المؤتمر هيئة قيادية للمؤتمر وتتخلص صلاحياته فيما يلي:

- دراسة وبحث للمسائل الخاصة بجدول الاعمال وتقدم الاقتراحات حول كيفية بحثها بالمؤتمر.
- تنسيق كافة النشاطات للمؤتمر.
- بحث القضايا الجارية (الخاصة بجدول الاعمال) والبروتوكولية.
- التأمين الاداري الفني لعمل المؤتمر الطبيعي.

١٤- تسبق قراءة سورة القرآن الكريم مراسم افتتاح المؤتمر وجلساته اليومية.

١٥- يرأس الرئيس جلسات المؤتمر أو باقتراحه أحد من نوابه.

١٦- قد يشترك في الجلسات العلنية للمؤتمر الضيوف من العلماء والخبراء (الاختصاصيين) والمراقبين وغيرهم من الضيوف ويحدد مدى اشتراكهم بالنظام ولم يمتلكوا بحق التصويت الحاسم.

١٧- تتقدم هيئة المؤتمر بالاقتراحات حول انعقاد الجلسات المغلقة لبحث المؤتمر.

١٨- وفقا لقرار المؤتمر قد ينتخب شيخ الإسلام المفتي في الجلسة المغلقة.

١٩- يعتبر قرار المؤتمر صالحًا إذا صوتت إلى جانبه أغلبية المشتركين قد يذكر النظام المقر بالمؤتمر طريقة اخرى لاتخاذ القرارات وفي حالة تعادل الاصوات يتخذ القرار الذي يصوت إلى جانبه رئيس المؤتمر.

٢٠- تصبح قرارات المؤتمر وتقريراته نافذة من لحظة اتخاذها.

٢١- في حال خروج عضو من أعضاء الهيئات المنتخبة بالمؤتمر قبل الموعد باسباب ما يكتمل قوامها باقتراح المفتي أو مجلس الشيوخ في المجلس الاعلى للنظارة ثم يصادق عليه المؤتمر.

٣ - المجلس الأعلى للنظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا

١ - في الفترة الواقعة بين مؤتمرين يمتلك المجلس الاعلى للنظارة الدينية بكمال الحكم التشريعي والتنفيذي والقضائي.

٢ - يتكون المجلس الاعلى للنظارة الدينية من أعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء مجلس العلماء باشتراك اعضاء لجنة التفتيش المركزية بصوت استشاري.

٣ - قد يدعى للاشتراك في المجلس الاعلى بصوت استشاري الأئمة المحتسبون والائمة الخطباء.

٤ - يعلن المفتي ومجلس الشيوخ للنظارة الدينية انعقاد المجلس الاعلى بقدر الحاجة مرة واحدة على الاقل كل سنة.

قد يعقد المجلس الاعلى غير الدوري (الاستثنائي) باقتراح المفتي أو بطلب ما لايقل على ثلث مجموع الاعضاء لمجلس الشيوخ للنظارة الدينية.

٥ - يقدم (يرفع) المجلس الأعلى التقارير إلى المؤتمر مندوبو خدمة الدين والرعايا للنظارة الدينية.

٦ - يتمتع المجلس الاعلى بصلاحيات تالية :

- على وشك المؤتمر التقدم باقتراحات حول جدول الاعمال والبرنامج ونظام الجلسات وكذلك حول مراسم انتخاب المفتي والمرشحين.
- المراقبة على تجسيد قرارات المؤتمر.

- مراعاة المحافظة على وحدة الرعايا للنظارة الدينية والعلو الإلهي للدين وقواعد الاخلاق الإسلامية.
- حل القضايا المبدئية بنشاط النظارة الدينية الداخلي والخارجي.
- تقدير مدى النجاح في نشاط النظارة الدينية.
- بحث ودراسة الانحرافات النظرية والقانونية في نشاط أعضاء مجلس الشيوخ وخدمة الدين بناء على طلب مجلس العلماء.
- الاقرار (المصادقة) أو الالغاء والتعديل للتشريعات التي اصدرت مجلس الشيوخ للنظارة الدينية.
- المصادقة على الميزانية المركزية وميزانيات المؤسسات الهيكلية للمحتسبات.
- اقرار (المصادقة على) التعيينات الخاصة بالانتخاب والتحويل والتسريح من المناصب لخدمة الدين بناء على طلب المفتي.
- الدراسة والبحث للتقارير حول حالة المحتسبات وتقدير مدى نجاحها.
- تحديد قيم الرواتب واجر التقاعد للأئمة المحتسبين والأئمة الخطباء والمؤذنين وكيفية منحهم باجازات.
- المصادقة على خطط العمل السنوية لمؤسسات النظارة الدينية والدراسة والبحث لتقاريرها.
- اتخاذ القرارات حول أهم أوجه للعمل الجاري في المؤسسات الدينية.
- إذا ابرزت الحاجة التقدم بالطلب إلى لجنة التفتيش المركزية بشأن اجراء التفتيش في المحتسبات والرعايا.
- فحص (اختبار - تفقد) سلامة الاستخدام للنظام الداخلي الحالي وتوضيح المسائل الخلافية.

٧ - يبحث المجلس الاعلى للنظارة الدينية مسائل تالية :

- في المرجع الأول الشكاوى من المفتي والقضاة واعضاء مجلس العلماء ولجنة التفتيش المركزية.
- في المرجع الثاني النهائي في هذا العالم الشكاوى من الأئمة المحتسبين والأئمة الخطباء.

٨ - يقوم مجلس الشيوخ باعداد وانعقاد جلسات المجلس الاعلى كما يتقدم بجدول الاعمال وبرنامج الجلسات ونظامها والاقتراحات حول طريقة (كيفية) دراسة وبحث القضايا الناشئة بالمجلس الاعلى وكذلك ببحث مسائل اجراء الجلسات والبروتوكول.

٩ - ينتخب سكرتير المجلس الاعلى من بين اعضائه ويتحمل مسؤولية توفير الوثائق اللازمة لعمل المجلس الاعلى وتدوين البروتوقولات، يتم التوقيع على البروتوكولات من قبل رئيس المجلس الاعلى وسكرتيره واعضائه.

١٠- تسبق قراءة سورة القرآن الكريم مراسم افتتاح المجلس الاعلى وجلساته.

١١- أما جلسة المجلس الاعلى فيرأسها المفتي أو احد من أعضاء مجلس الشيوخ بناء على اقتراحه.

١٢- قد يحضر ممثلو رعايا النظارة الدينية والخبراء والاختصاصيون والمراقبون والضيوف دون حق الصوت الحاسم (صوت القرار) بعض جلسات المجلس الاعلى ويحدد النظام مدى اشتراكهم في عمل المجلس الاعلى.

١٣- تتخذ قرارات المجلس الاعلى باغلبية الاصوات ما عدا الاحوال الخاصة المذكورة في نظام اجراء الجلسات للمجلس الاعلى وفي حالة تعادل الاصوات يعتبر صوت الرئيس قاطعًا.

١٤- يسمح بغياب اعضاء المجلس الاعلى عن جلسات في حال المرض أو السبب المعذور الآخر فقط، يعتبر غياب عضو المجلس الاعلى عن ثلاثة مجالس دون السبب المعذور عدم الاعتبار (لاجماع الامة) ففي هذه الحالة يحق للمجلس الاعلى للنظارة الدينية طرح مسألة عزل هذا العضو عن

قوام المجلس الاعلى للتصويت مع المصادقة اللاحقة عليه (العزل) في المؤتمر.

١٥- ان النصاب القانوني للمجلس الاعلى فيساوي لثلثي اعضائه.

١٦- تصبح قرارات المجلس الاعلى ومراسيمه نافذة بمجرد اتخاذها.
أما المصادقة عليها أو تعديلها أو الغائها فتحقق بالمؤتمر فقط.

١٧- في حالة عدم موافقة المفتي على القرار المبدئي المتخذ بالمجلس الاعلى فيوقف المفتي عمله وفقا لصلاحيات سلطته الدينية والتنفيذية ويتقدم بطلب الانعقاد للمؤتمر الاستثنائي.

٤ - المفتي

١ - يعتبر شيخ الاسلام المفتي المنتخب بمؤتمر خدمة الدين ومندوبي الرعايا لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا رئيسًا لمسلمي الاقليم المذكور أعلاه كما يعتبر رئيسًا للنظارة لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا.

٢ - يعتبر المفتي رئيس الأئمة - اخونداً لمسجد بلغار الجامعي في قازان والمسجدين الجامعين في اوفا وموسكو ويعين الأئمة المحتسبين في جمهوريتي الحكم الذاتي السوفيتي باشكيريا وتاتاريا ومحافظة موسكو مباشرة.

٣ - يعتبر رتبة (مقام) المفتي مدى حياة.

٤ - يبدى المفتي عناية ورعاية بالرضاء الداخلي والخارجي للنظارة الدينية والرعايا الموحدة بها.

٥ - يحقق المفتي رئاسة النظارة الدينية مشتركًا مع مجلس الشيوخ ومجلس العلماء والمجلس الاعلى للنظارة الدينية.

٦ - وفقا لمنصبه يدعو المفتي انعقاد المؤتمر والمجلس الاعلى ومجلس الشيوخ

ومجلس العلماء للنظارة الدينية ويرأس جلساتها.

٧ - ولاجل تحقيق سلطته التنفيذية يتمتع المفتي بصلاحيات تالية :

- يصادق على المشاريع المعدة بمجلس العلماء.
- يضمن تجسيد قرارات المؤتمر.
- يتقدم بالرسائل والقرارات واجبة التنفيذ.
- قدم للمؤتمر والمجلس الاعلى للنظارة الدينية تقريرا حول نشاط النظارة الدينية خلال الفترة المنصرمة.
- يعمل في سبيل (يناضل من اجل) تعزيز وحدة الصفوف لخدمة الدين والرعايا.
- ينظم المراقبة على كافة المؤسسات الدينية.
- يمارس العلاقة مع رؤساء النظارات الدينية الاخرى لمسلمي الاتحاد السوفيتي والمنظمات الاسلامية في الخارج ورؤساء المنظمات الدينية للاديان الاخرى.
- يعتبر مفوضًا للنظارة الدينية ومسلمي القسم الاوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا في وجه الدولة وهيئاتها والمؤسسات الدينية الحكومية الاجنبية والدولية.
- يصدر القرارات الخاصة بالتعيين والتحويل والفصل من المنصب لخدمة الدين آخذا بعين الحساب توصية مجلس العلماء.
- ينفذ عملية القبول والفصل لعاملي النظارة الدينية وأبنيتها الفرعية.
- يراقب على كيفية تنفيذ خدَمة الدين لواجبهم الخاص بالمحافظة على الحالة المناسبة للمساجد والرعايا وسلامتها.
- يتمتع بحق الزيارة لجميع الرعايا في النظارة الدينية حينذاك يؤدي الصلوات والطقوس المناسبة بصفة الامام.

- يقدم خدَمة الدين ورؤساء الرعايا نصائح وتوجيهات حول حياتهم الخاصة واداء الواجب الديني وفي حالة تجاهلهما يطرح هذه المسألة على بساط النقاش لمجلس العلماء أو المجلس الاعلى للنظارة الدينية.
- يراجع القضايا الخلافية بين خدَمة الدين الذين توجهوا إلى وساطته طوعا (بالطرح) دون القضاء (التحقيق) الشكلي حيث يعتبر قرار المفتي واجب الطاعة لكلا الطرفين.
- يقرر مسائل الاجازات لاعضاء مجلس الشيوخ ومجلس العلماء والمجلس الاعلى للنظارة الدينية والائمة المحتسبين.
- يتقدم إلى مجلس الشيوخ للنظارة الدينية بمسألة بعث خادم الدين إلى الخارج بمهمة.

٨ - يتمتع المؤتمر بحق احالة المفتي إلى المرافعة (القضاء) وحل مسألة (تقاعده).

٩ - في حالة وفاة المفتي أو استقالته (تقاعده) أو استحالة تنفيذه لواجباته باسباب ما فينفذها بالنيابة مؤقتا سكرتير مجلس العلماء ويعقد خلال ثلاثة اشهر مؤخراً لأجل انتخاب المفتي (الجديد).

١٠- يجب على المرشح في منصب المفتي أن يستجيب (يتفق و) لمتطلبات تالية:

(أ) استيعاب التعليم الديني وامتلاك الخبرة (الكافية) للادارة الدينية يعني يجب إلا تقل مدة خدمته الدينية في صفوف الدين للنظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا عن ١٠ سنوات.

(ب) التمتع بالسمعة الخيرة الطيبة وثقة خَدَمَة الدين وابناء الرعايا من إخلاصه في خدمة الاسلام والوطن.

(جـ) ألا يقل عمره عن ٤٠ سنة.

٥ - مجلس الشيوخ للنظارة الدينية

١ - يتكون مجلس الشيوخ للنظارة الدينية من ٦ أشخاص برتبة القاضي الدينية ويدعو أن يقدم المساعدة للمفتي في تحقيقه للسلطة التنفيذية والقضائية.

٢ - ينتخب ٣ أعضاء من مجلس الشيوخ بالمؤتمر لمدة ٥ سنوات ويعين المفتي ٣ أعضاء آخرين لنفس المدة وعلى أعضاء مجلس الشيوخ للنظارة الدينية أن يكونوا من خدمة الدين استوعبوا المستوى الكافي من التعليم الديني (المتوسط والعالي) وقد خدموا في مساجد النظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا لمدة لاتقل عن ٧ سنوات وان يتمتعوا بالسمعة الطيبة والحسنة وثقة اتباع المساجد.

٣ - يحقق المفتي وفقا لمنصبه قيادة (ادارة) مجلس الشيوخ للنظارة الدينية كما يعين امينًا مسؤولا من أعضاء مجلس الشيوخ والذي يعتبر مساعداً لرئيس النظارة الدينية في الشؤون الإدارية.

٤ - تعقد جلسات مجلس الشيوخ من قبل رئيس النظارة الدينية بقدر الحاجة ولا اقل من ٤ مرات سنويًا.

٥ - يعتبر اشتراك اعضاء مجلس الشيوخ في جلساته امراً ضروريًا ويسمح بغياب عنها بالاسباب المعذورة فقط حيث يعتبر الغياب عن ٣ جلسات متتالية دون سبب معذور أمر عدم الاعتبار (الاحترام) لاجماع الامة يحق لمجلس الشيوخ أن يطرح امام المجلس الاعلى مسألة عزل هذا العضو عن قيام مجلس الشيوخ ثم المصادقة عليه في المؤتمر.

٦ - يساوي النصاب القانوني لمجلس الشيوخ لثلثي اعضائه.

٧ - يحدد رئيس النظارة الدينية جدول الاعمال للجلسات ويبحثه اعضاء مجلس الشيوخ في الجلسة الأولى في كل دورة.

وفي حالة ادراج في جدول الاعمال المسائل التي للبحث والدراسة الابتدائية فيوجهها الامين المسؤول للنظارة الدينية مسبقا قبل شهر واحد من بداية الدورة لاعضاء مجلس الشيوخ يحق لأعضاء مجلس الشيوخ التقدم بالاقتراحات حول جدول الاعمال في فترة تسبق بداية الدورة لا أقل من ١٠ أيام.

٨ - يدير اعمال الجلسة رئيس النظارة الدينية أو الأمين المسئول أو عضو مجلس الشيوخ المعين برئيس النظارة الدينية.

٩ - وفي حالة غياب رئيس النظارة الدينية بسبب مايعين أحداً من أعضاء مجلس الشيوخ رئيس الجلسات بالنيابة.

١٠- يعين الأمين المسئول لمجلس الشيوخ من بين اعضائه وفي جلسته الأولى ويتحمل مسئولية اعداد الوثائق اللازمة لادارة الدورة وتدوين سجل الجلسات وارسال (توزيع) قرارات مجلس الشيوخ.

١١- يتم حل المسائل في الجلسات بموافقة عامة لجميع الحاضرين فيها أو بأغلبية الاصوات، يعتبر صوت رئيس النظارة الدينية رئيسيًا (حاسمًا) في حالة تعادل الاصوات لاتوصى بالامتناع عن التصويت.

١٢- يحق لأعضاء مجلس الشيوخ في حالة عدم الموافقة بالقرار المتخذ التعبير عن رأيهم (موقفهم) الخاص في نفس هذه الجلسة مع شرح قاعدته (اصله) والتي تسجل في بروتوكول.

أن التعبير عن الموقف الخاص لايوقف تنفيذاً للقرار المتخذ.

١٣- يتم بحث مسألة تغيير جدول الاعمال للدورة وتوقيف القرار المتخذ أو الغاءه بصورة جماعية.

١٤- وفي حالة اعتراف رئيس النظارة الدينية بعدم تناسب القرار المتخذ لخير النظارة الدينية وفائدتها فيقدم احتجاجه عليه الذي يبحث في نفس الجلسة ويسجل في البروتوكول (المحضر).

في حالة رفض الاجتماع توقف القضية (المسألة) وتحول (تنقل) لبحث المجلس الاعلى للنظارة الدينية وعند استحالة تأجيل الامر (القضية) وضرورة اتخاذ القرار الفوري يتصرف رئيس النظارة الدينية حسب هواه قد يطرح القرار المتخذ بمثل هذه الطريقة على بساط البحث في الاجتماع غير الدوري للمجلس الاعلى للنظارة الدينية الذي يحق له المصادقة على القرار المتخذ سابقًا أو الغاؤه.

١٥- عند بحث قضية الشكوى من عضو مجلس الشيوخ يحق لاشخاص معينين حضور الجلسة والتقدم بالشرح حول جوهر الشكوى وعليه أن يغادر القاعة عند اتخاذ القرار.

وفي حالة بحث الشكوى من رئيس النظارة الدينية يفوض صلاحيات رئيس الجلسة مؤقتا لاحد من أعضاء مجلس الشيوخ.

١٦- يتم التوقيع على بروتوكول (محضر) الجلسات برئيس النظارة الدينية والامين المسئول وأعضاء مجلس الشيوخ الحاضرين جميعًا.

١٧- تصبح قرارات مجلس الشيوخ نافذة بمجرد توقيعها ويعاد بحثها في حالة ايجاد التفاصيل والدلائل الجديدة التي تغير جوهر الامر تمامًا.

١٨- ينفذ رئيس النظارة الدينية مراقبة عليها على سلامة معالجة القضايا في امانة مجلس الشيوخ ودقة تنفيذ القرارات المتخذة.

١٩- وهناك أمام مجلس الشيوخ واجبات تالية :

- المراقبة والعناية بالفهم الصحيح للتعليم الإسلامي وقواعد الاخلاق الإسلامية والاخلاص للدين.
- المحافظة على الوحدة مع النظارات الدينية الأخرى لمسلمي الاتحاد السوفيتي والمنظمات الاجتماعية الإسلامية والدينية الاجنبية والدولية والإقليمية.
- خدمة قضية الوحدة الداخلية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا والتفافهم حول النظارة الدينية.

- تنظيم نشاط النظارة الدينية الداخلي والخارجي وحل المسائل الظاهرة عند ذلك.
- اصدار القرارات الانضباطية الخاصة لخدمة الدين.
- المحافظة على العلاقات الطبيعية المتعارف عليها بالجميع القائمة بين النظارة الدينية من جهة والدولة وهيئات الحكم التابعة لها من جهة اخرى.
- تنسيق الاعمال لكافة المساجد والمؤسسات التابعة للنظارة الدينية في جميع مجالات نشاطها.
- الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والثقافية للمسلمين والمجتمع بأجمعه.
- التوجه بالرسائل للمسلمين في الاتحاد السوفيتي وخارجه.

مجلس العلماء

١ - يتكون مجلس العلماء من ٦ أعضاء برتبة «القاضي» الدينية ويدعى أن يقدم المساعدة اللازمة للمفتي ومجلس الشيوخ للنظارة الدينية في تحقيقهما للسلطة التشريعية والقضائية.

٢ - يتم انتخاب ٣ اعضاء لمجلس العلماء بالمؤتمر ويعين المفتي أعضاء آخرين من خدمة الدين المستوعبين لمستوى التعليم الديني الكافي (المتوسط أو العالي) والذين قد خدموا في المساجد لمدة لاتقل عن ٧ سنوات ويتمتعون بالسمعة الطيبة والحسنة وثقة اتباع المساجد.

٣ - ينفذ اعضاء مجلس العلماء واجباتهم لمدى حياتهم ويترأس المفتي مجلس العلماء وفقًا (بموجب) لمنصبه ويعتبر أمين (سكرتير) مجلس العلماء مساعداً للمفتي في مسائل الدين الإسلامي.

٤ - يتحمل مجلس العلماء في نشاطه المسؤلية امام المفتي والمجلس الأعلى للنظارة الدينية والمؤتمر.

٥ - أما واجبات مجلس العلماء فهي التالية :

- الاحتفاظ بعلو الدين الإسلامي والمراقبة على مراعاة قواعد الاخلاق للشريعة من قبل خَدَمَة الدين.

- المحافظة على وحدة مساجد النظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا.

- ايضاح القضايا المحلة للعصر الراهن من وجهة النظر الإسلامية وقواعد الشريعة الإسلامية.

- المراقبة على توافق (تنافس) نشاط خدمة الدين للنظارة الدينية جميعًا وقوانين الشريعة المحمدية وقواعدها.

- حل الخلافات بين قيادة النظارة الدينية والقضاة والائمة المحتسبين والخطباء.

- وضع مشاريع الفتاوى ومراسم تنفيذها.

- تفسير القضايا والمسائل الخاصة بالطقوس الإسلامية.

- وضع التوجيهات المنهجية المتعلقة بالمهام والواجب للمرشد الروحي.

- المراقبة على صحة طباعة القرآن الكريم وترجمة المطبوعات الدينية واعدادها للاصدار.

- تفتيش كيفية العمل التعليمي التربوي في المدارس والمعاهد الدينية.

- وضع واعداد مراجع القواعد الدينية والكتب المدرسية وغيرها من المراجع من المدارس.

- تحليل مستوى التعليم والتثقيف الديني ووضع النصائح والارشادات العملية الخاصة برفعه.

- اختيار وامتحان مرشحي المجالس المحتسبة في المناصب الدينية وتقديمهم لمصادقة المفتي.

- تعقد جلسات مجلس العلماء بقدر الحاجة فيها ولا أقل من ٤ مرات سنويًا يدير رئيس النظارة الدينية أو أمين مجلس العلماء باشارته اعمال الجلسة.

٧ - قد يحضر جلسات مجلس العلماء خَدَمَة الدين الاخرون والضيوف الاختصاصيون بصوت استشاري.

٨ - تصبح قرارات مجلس العلماء نافذة بمجرد اتخاذها وفي حالة عدم الموافقة بالقرار المتخذ من قبل اعضاء المجلس أو شخص اتخذ القرار بشأنه فيحق له أن يتقدم إلى المجلس الاعلى للنظارة الدينية باثبات عدم موافقته ويعتبر قرار المجلس الاعلى للنظارة الدينية امرا نهائيًا.

لجنة التفتيش المركزية

١ - تنتخب في المؤتمر بالتصويت السري وتتحمل المسئولية امامه.

٢ - تتكون لجنة التفتيش من رئيسها والاعضاء الاربعة وتنتخب لمدة ٥ سنوات.

٣ - تفتش اللجنة الأمور التالية :

- صحة استخدام (تصريف) ميزانية النظارة الدينية والمحتسبات والمساجد ونشاطها الاقتصادي والمالي عن طريق اجراء التفتيشات الدورية (المخططة) وإذا أبرزت الحاجة غير الدورية (المخططة).
- توفير الاموال وشرعية وصحة تصريفها وتدوين كتب الدخل والنفقات.
- المراقبة على صيانة الممتلكات.
- الجرد السنوي للموجودات.
- المراقبة على تسجيل التبرعات.

٤ - بعد اتمام التفتيشات والاختبارات تكتب (تؤلف) لجنة التفتيش الوثائق وتقدمها للجنة الدورية أو الاستثنائية للمجلس الأعلى أو المؤتمر.

٥ - وتخضع مباشرة للجنة التفتيش المركزية لجان التفتيش المحلية المتكونة من ٣ أعضاء والمنتخبة لمدة ٥ سنوات والتي تشكل لدى المحتسبات والمساجد.

مؤسسات النظارة الدينية

١ - تشكل الابنية الهيكلية للنظارة الدينية بهدف المعالجة السريعة وبحل للمهام اليومية للنظارة الدينية.

٢ - يرأس نشاط هذه المؤسسات مسؤولو النظارة الدينية الذين يعينهم المفتي.

٣ - يتم تأمين هذه المؤسسات واعادة تنظيمها أو الغاءها بموجب قرار المفتي أو مجلس الشيوخ أو المجلس الاعلى أو مؤتمر النظارة الدينية وفقًا لمستوياتها.

٤ - وهناك المؤسسات التالية :

(أ) قسم الشئون الإدارية والاقتصادية برئاسة الأمين المسئول لمجلس الشيوخ للنظارة الدينية.

(ب) قسم التعليم والتحرير برئاسة كبير المدرسين في رتبة القاضي الدينية.

(جـ) قسم العلاقات الخارجية برئاسة رئيس قسم في رتبة القاضي الدينية.

٥ - تحدد صلاحيات هذه المؤسسات بنطاق المهام المكلفة بها والنظام حولها الذي يجب أن يضعه مجلس الشيوخ للنظارة الدينية.

تحقق مؤسسات النظارة الدينية اعمالها في الوحدة والتعاون الوثيقين من خلال تنسيق جهودها في حل المهام ذات الطابع العام المشترك.

المحتسبات :

١ - إن ادارة المحتسبة عبارة عن الاتحاد الديني الاقليمي للمسلمين المتكون من

١٠ إلى ١٥ مسجداً في نطاق الجمهورية أو المحافظة أو الاقليم وتتحمل المسئولية المباشرة امام المفتي ومجلس الشيوخ للنظارة الدينية.

٢ - تدعى ادارة المحتسبة لمساعدة مجلس الشيوخ في الامور التالية :

- تنفيذ قرارات المؤتمر (باتباع المساجد) بالملل.
- تنفيذ التعليمات والتوجيهات لمجلس الشيوخ الخاصة بالشئون الدينية والخدمة.

٣ - كما تكلف إدارة المحتسبة بتحقيق الامور التالية (بتنفيذ الواجبات التالية):

- المراعاة والمراقبة على الملل والمساجد في الإقليم بخصوص صيانة الدين الإسلامي وتفسيره السليم وصيانة الاخلاق الإسلامية.
- المحافظة على الوحدة مع المحتسبات الاخرى في القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا.
- ضبط المسائل الخاصة بخدمة الدين.
- اصدار القرارات الانضباطية بشأن خدمة الدين في المحتسبة.
- التشفع إلى مجلس الشيوخ للنظارة الدينية حول افتتاح الملل والمساجد الجديدة وبناء المساجد والمدارس وترميم المساجد والمدارس الموجودة وتجديدها.
- توزيع الرواتب الشهرية لخَدَمَة الدين في مساجد المحتسبة.
- ضبط وتنسيق للاجازات لخَدَمَة الدين في المساجد.
- كتابة (تأليف - وضع) التقارير السنوية الخاصة بحالة المحتسبة وتقديمها لمجلس الشيوخ في النظارة الدينية.
- التشفع إلى المفتي من خلال مجلس العلماء حول التحويل والعزل والتعيين للائمة الخطباء والائمة والمؤذنين.

- بحث التقارير وخطط الاعمال المرفوعة بالائمة الخطباء والملل والمساجد والمصادقة على الميزانية السنوية وجدول (قائمة) الملاك للمساجد.
- إذا ابرزت الحاجة (في حالة الضرورة - عند الضرورة) اجراء التفقد والتفتيش لنشاط الائمة الخطباء والملل والمساجد.
- بحث الشكاوى من الأئمة الخطباء ومخالفتهم القانونية في المرجع القضائي الأول (الابتدائي).
- بحث الشكاوى من المؤمنين ومخالفتهم القانونية في المرجع القضائي النهائي.

٤ - أن ادارة المحتسبة عبارة عن مجلس المحتسبة المتكون من لا أقل من ٣ أعضاء ينتخبهم اجتماع المحتسبة لمدة ٥ سنوات.

٥ - يرأس مجلس المحتسبة الامام المحتسب المعين بالمفتي على أساس التقدّم من مجلس الشيوخ للنظارة الدينية.

٦ - أن أعضاء اجتماع المحتسبة هم الأئمة الخطباء ورؤساء المتوليات للمحتسبة.

٧ - تعقد جلسات مجلس المحتسبة لا أقل من ٤ مرات سنويًا.. أما الجلسة الاستثنائية فتعقد بناء على طلب الإمام المحتسب أو ثلث مجموع الاعضاء لمجلس المحتسبة.

٨ - يعقد اجتماع المحتسبة (مرة واحدة) سنويًا. أما الاجتماع الاستثنائي فيعقد بناء على طلب الامام المحتسب أو ثلث مجموع الاتباع المساجد المحتسبة.

٩ - تملك إدارة المحتسبة حسابًا (رصيداً) في البنك ومحاسبًا صرافًا تتشكل ميزانية إدارة المحتسبة من الميزانية العامة للنظارة الدينية بشكل استثنائي.

لجان التفتيش للمحتسبات

١ - تعمل لدى المحتسبات لجان التفتيش المتكونة من ٣ أعضاء والتي تنتخب لمدة ٥ سنوات.

٢ - يتم انتخاب أعضاء لجنة التفتيش في اجتماع المحتسبة بالتصويت العلني المباشر.

٣ - وفي نشاطها تتحمل هذه اللجان المسؤلية مباشرة أمام لجنة التفتيش المركزية واجتماع المحتسبة ومجلسها.

٤ - تقدم لجان التفتيش للمحتسبات التقارير حول العمل المنفذ للجنة التفتيش المركزية والامام المحتسب واجتماع المحتسبة ومجلسها.

٥ - وهناك الواجبات التالية للجنة التفتيش للمحتسبة :

- اجراء التفتيشات المنتظمة للنشاط المالي والاقتصادي للمحتسبة ومساجدها وبينها تفتيش توفر الاموال وحركاتها (تداولها) والشرعية والصحة للنفقات وتدوين كتب الدخل والنفقات.
- المراقبة على حالة (صيانة) الممتلكات والمباني والمنشآت.
- حساب التبرعات و(المراقبة عليها) اختبارها.
- بحث العرائض والبلاغات القادمة من اتباع المساجد وخدمة الدين.
- المراقبة على تنفيذ القرارات والتوجيهات للهيئات العليا من قبل المتولية.

٦ - يجرى التفتيش بحضور المسؤلين الذين بعد اتمام الاختبار يجب أن يطلعوا على وثيقة التفتيش ويوقعوها.

وفي حالة عدم الموافقة بوثيقة التفتيش يحق لهم توجيه اعتراضاتهم وملاحظاتهم الكتابية مع الحجج والعلل والبراهن إلى لجنة التفتيش المركزية أو مجلس الشيوخ للنظارة الدينية.

٧ - وعند اكتشاف الاستهتارات والابتزاز للاموال والممتلكات بالتهاون أو بطمع يجب على لجنة التفتيش للمحتسبة أن تتخذ الاجراءات الكفيلة بالتعويض الكامل من قبل المسؤلين للخسائر الملحقة.

٨ - ترسل نسخ وثائق التفتيش إلى كل من لجنة التفتيش المركزية للنظارة الدينية وإدارة مجلس المحتسبة ومتولية المسجد الذي تعرض للتفتيش.

٩ - تشترك لجنة التفتيش للمحتسبة في جلسات اجتماع المحتسبة بحق الصوت الاستشاري.

المساجد :

١ - أن مجموعة المسجد عبارة عن ملة المسلمين المتكونة من خدمة الدين والاتباع الموجودين حول المسجد وأن الملة عبارة عن جزء النظارة الدينية ويديرها قانونيًا الامام الخطيب مشتركًا مع المتولية المنتخبة باجتماع المسجد لمدة ٣ سنوات.

٢ - تشكل مجموعة المسجد على اساس الموافقة الطوعية للا أقل من ١٠ مؤمنين وتسجل من قبل اللجنة التنفيذية لمجلس نواب الشعب بالناحية على أساس الطلب المقدم وفقًا للنظام القائم.

٣ - تبدأ مجموعة المسجد المسجلة بالنشاط بعد بركة المفتي.

٤ - قد تحصل هذه المجموعة من هيئات الدولة المحلية على المسجد المقدم لها والمباني والمنشآت الأخرى وكذلك الممتلكات بحق الاستخدام المجاني وتتحمل المسؤلية عن صيانتها.

٥ - ويحق لها وفقًا للنظام القائم أن تؤجر وتبنى وتشتري البيوت والقاعات لاحتياجتها كما يحق لها أن تشترى في الملك الممتلكات اللازمة (الضرورية) تحقق مجموعات المساجد بناء المساجد واعادة بنائها وترميمها الكلي بالموافقة مع النظارة الدينية آخذا بعين الاعتبار توصياتها وقواعد الشريعة الإسلامية.

٦ - في حالة انتهاء وجود مجموعة اتباع المسجد تتصرف النظارة الدينية بملكيتها.

٧ - تحقق المساجد نشاطها على الاموال الآتية من تبرعات المؤمنين اثناء اداء الطقوس الدينية ومن الممارسات الاقتصادية المعتمدة على النظام القانوني تعتبر الملكية المشترى بالملة على اموالها الخاصّة أو وفقًا لاسس القانون الاهلي القائم ملكية مجموعة المسجد.

٨ - ان كافة الايرادات الناتجة عن الطقوس الدينية والتبرعات والخ تحسب وتسجل وتنقل (تحول) إلى المسجد في البنك.

٩ - لاتدفع المساجد الرواتب والاجور الأخرى لخدمة الدين لأنها تدفع لهم من صندوق المحتسبة على أساس الاستجارة المؤلفة بصراف المسجد.

١٠- يصرف المسجد أمواله وفقًا للنسب التالية :

(أ) يحول خمس الاموال لانفاق النظارة الدينية واعداد (تأهيل) الكادر.

(ب) يحول الخمس الثاني إلى صندوق الرواتب لخدمة الدين.

(جـ) يحول الخمس الثالث إلى النظارة الدينية لاستخدامها لأهداف الرحمة والبر.

(د) يبقى الخمس الرابع في صندوق الرواتب لموظفي المسجد وخدمته.

١١- أن هيئات الإدارة في المسجد هي اجتماع المسجد برئاسة الإمام الخطيب والمتولية باعتبارها الهيئة التنفيذية.

١٢- قد يملك المسجد أكثر من أمام واحد ومؤذن واحد وذلك بالموافقة مع الإمام والتعيين بقرار المفتي.

الأئمة الخطباء

١ - يرأس كل ملة مسجد الإمام الخطيب الذي يعينه المفتي لاجل رئاسة المؤمنين الدينية وإدارة خدمة الدين واتباع المسجد.

٢ - يتحمل الإمام الخطيب المسئولية عن الحالة الدينية الاخلاقية والتربية المناسبة لاتباع المسجد وتوطيد وحدتهم وعليه أن يؤدي الجدية كافة واجباته الدينية والادارية المحددة بمنصبه وفقًا للنظام الحالي.

٣ - وهناك الواجبات التالية للامام الخطيب :

- قيادة خدَمة الدين في المسجد في أداء واجباتهم الدينية والادارية.
- المراقبة على حالة المسجد وزينته وتوفر لوازم الصلاة.
- العناية بصحة الصلاة واجلالها في المسجد.
- العناية بالتنفيذ الصحيح والدقيق لارشادات (تعليمات) المفتي والهيئات العليا الأخرى.
- انعقاد اجتماع المسجد مشتركًا مع المتولية.
- المراقبة على تنفيذ القرارات لاجتماع المسجد وتجسيدها.
- رئاسة الجلسات اثناء اجتماع المسجد.
- تقديم (رفع) التقارير السنوية للمحتسبة حول حالة المسجد ونشاطه الشخصي.
- المراسلة الرسمية.
- المراقبة على تدوين ارشيف المسجد وخزنه واعمال الكتابة وتداول الاموال والوسائل المادية.

٤ - يمكن أن يمنح الامام الخطيب بالإجازة ويترك مسجده موقتا بسماح الإمام المحتسب والموافقة مع المتولية.

اجتماع المسجد

١ - ان اعضاء اجتماع المسجد هم اتباع المسجد البالغين لعمر ١٨ سنة والمتميزين بالاخلاق الإسلامية الطيبة (الحسنة) وغير المحيلين على المحكمة أو القضاء الديني والمشتركين بنشاط في أمور الملة.

٢ - يرأس الإمام الخطيب اجتماع المسجد ويعتبر عضواً دائمًا (ضروريًا) له حسب منصبه.

٣ - يتم قبول الاعضاء الجدد في قوام الاجتماع (عضوية الاجتماع) مثل عزلهم بواسطة قرار الاجتماع جوابا للطلب المناسب للراغب.. تخزن قائمة اعضاء الاجتماع للمسجد في ارشيفه.

٤ - يتمكن الاجتماع من عزل (فصل) عضو من اعضائه إذا اعترفت الاغلبية بعدم تناسب هذا الشخص لمنصبه.

٥ - يعقد اجتماع المسجد بصورة منظمة (دورية) من قبل الامام الخطيب مشتركًا مجلس المسجد لا أقل من مرة واحدة كل نصف سنة مع الابلاغ المسبق عنه لهيئات سلطة الدولة المحلية.

٦ - يعمل الاجتماع على أساس جدول الاعمال المقدم بالإمام الخطيب مشتركًا مع مجلس المسجد.

٧ - يرأس الامام الخطيب الجلسات وفقًا للنظام المقبول.

٨ - تتخذ القرارات بأغلبية الاصوات العادية وفي حالة تعادل الاصوات يصبح نافذاً القرار الذي يشاركه (يلتحق به) الرئيس.

٩ - ينتخب الاجتماع من بين اعضائه سكرتيراً مسئولاً عن تدوين بروتوكول الجلسة.

١٠- يوقع البروتوكول من قبل كل من الامام الخطيب والسكرتير والاعضاء الثلاثة للاجتماع المنتخبين لهذا الغرض.

١١- توجه قرارات اجتماع المسجد في النسخة المصدقة بالرئيس والسكرتير والمحتسبة والنظارة الدينية.

١٢- تشمل واجبات اجتماع المسجد ما يلي :

- المحافظة على الوحدة الداخلية لاتباع المسجد (المساعدة) على رفعها الديني والاخلاق.
- المسئولية عن صيانة ممتلكات المسجد.

التصرف بالممتلكات التابعة للمسجد.

- تخطيط النشاط الاقتصادي للمسجد.
- وضع الميزانية السنوية.
- تقديم النظارة الدينية الخطط ووثائق المشاريع الهندسية الخاصة ببناء المساجد والمباني الاخرى وترميمها.
- انتخاب من بين اعضائه مجلس المسجد ولجنة التفتيش لمجموعة المسجد.
- وضع نظام عمل مجلس المسجد.
- البحث والمصادقة على التقارير العملية للهيئة التنفيذية وتقديمها سنويًا للنظارة الدينية.
- البحث والمصادقة على تقارير لجنة التفتيش.
- تأليف التشفعات لمجموعة المسجد إلى النظارة الدينية وهيئات الدولة.
- وضع قائمة الملاك.
- بحث الشكاوي من أعضاء الهيئة التنفيذية ولجنة التفتيش والامام الخطيب والمؤذنين، تبحث الشكاوي من الامام الخطيب بالاجتماع برئاسة الامام المحتسب.

المؤذن

١ - يجب على المؤذن باعتباره خادم الدين أن يساعد الامام الخطيب في تنفيذ الخدمات التالية :

(أ) الصلوات الخمس.

(ب) الخدمات الدينية الاحتفالية.

(جـ) اداء الطقوس الدينية في منازل المؤمنين.

٢ - يتحمل المسئولية أمام الله العظيم والمؤمنين عن النداء إلى الصلوات الخمس في الوقت المناسب واعلام اتباع المسجد حوله.

٣ - يغسل المؤذن المسلمين المرحومين ويؤدي طقس جنازتهم وفقًا لقواعد الشريعة الإسلامية.. يجب عليه أن يسلم ايرادات الطقوس الدينية بكاملها إلى صندوق المسجد.

المتولية

١ - تعتبر المتولية هيئة تنفيذية لاجتماع المسجد وتتحمل المسئولية امامه.

٢ - تتكون المتولية من رئيسها ومساعده والصراف المنتخبين بالاجتماع من أضمن الاعضاء النشاط أخلاقيًا لمدة ٣ سنوات ويحق للاجتماع أن يحدد هذه المدة أو يخفضها (يلخصها).

٣ - وفي الفترة ما بين جلسات اجتماع المسجد تكلف المتولية بما يلي :

- تتحمل المسئولية عن صيانة المسجد والمباني والمنشآت الأخرى.
- تنفذ قرارات اجتماع المسجد.
- تحل المسائل الاقتصادية والادارية الجارية.
- تقوم بالبناء والترميم وفقًا للخطط ووثائق المشروع الهندسي المصدقة بمجلس الشيوخ للنظارة الدينية.
- تتصرف بالاموال بالمسئولية في حدود الميزانية المقررة باجتماع المحتسبة.
- تحاسب (تحتسب) هذه الاموال بصورة صحيحة.

٤ - تشترى المتملكات اللازمة للمسجد.

- تبدى العناية بظروف الحياة لخدمة الدين.

- تقوم بحساب الممتلكات بصورة مناسبة.
- تحل المسائل الخاصة بالقبول والفصل للعاملين الضروريين وفقًا لقائمة (جدول) الملاك.
- بالاشارة من اجتماع المسجد تمثله في العلاقات الحقوقية الاهلية (المدنية) وعقد المعاهدات والاتفاقيات كما تمثله في المحكمة.
- تتحمل المتولية المسئوليات التالية :
- تعقد مشتركًا مع الامام الخطيب اجتماع المسجد وتعد القضايا لبحثها فيه.
- تقدم لبحث اجتماع المسجد خطط النشاط الاقتصادي وضمنها المقترحات الخاصة بأعمال البناء والترميم ومشروع الميزانية السنوية.
- تقدم لاجتماع المسجد تقاريرها العملية والمالية.

٥ - قد ينتخب الامام الخطيب رئيسًا للمتولية.

٦ - ينتخب رئيس المتولية باجتماع المسجد.

٧ - يوقع الامام الخطيب ورئيس المتولية على كافة الوثائق الرسمية الواردة من المسجد.

٨ - يوقع رئيس المتولية والصراف على حسابات البنك والتوكيلات والوثائق المالية الأخرى.

٩ - أما واجبات مساعد رئيس المتولية فيحددها اجتماع المسجد.

١٠- يتوجب على الصراف حساب وخزن للأموال والتبرعات الأخرى وتدوين كتب الدخل والنفقات.

١١- يوقع الامام الخطيب ورئيس المتولية على كافة الوثائق والرسائل الرسمية الواردة عن المسجد.. وفي حالة الجمع بين الوظيفتين يحقق عضو المتولية الامضاء الثاني.

١٢- في حالة انتخاب القوام الجديد بالكامل للمتولية أو انتخاب الرئيس الجديد لها يشكل اجتماع المسجد لجنة العمل المتكونة من ٣ أشخاص لتأليف وثيقة توفر الاموال والممتلكات (وثيقة نتائج التفتيش) يستلم (يقبض) القوام الجديد للمتولية ورئيسها الثروات المادية على أساس الوثيقة المذكورة اعلاه.

لجنة التفتيش للمسجد :

١ - تعمل لدى المسجد لجنة التفتيش التابعة له والمتكونة من ٣ أشخاص المنتخبة لمدة ٣ سنوات.

٢ - يتم انتخاب هذه اللجنة في اجتماع المسجد بالتصويت العلني المباشر.

٣ - تتحمل لجنة التفتيش للمسجد المسئولية المباشرة في نشاطها أمام لجنة التفتيش للمحتسبة واجتماع المسجد والمتولية.

٤ - تقدم لجنة التفتيش للمسجد التقارير حول عملها للجنة التفتيش للمحتسبة والامام الخطيب واجتماع المسجد والمتولية.

٥ - يتوجب على لجنة التفتيش للمسجد مايلي :

- اجراء التفتيشات الدورية المنتظمة لنشاط المسجد المالي والاقتصادي ضمنها فحص توفر الاموال وحركتها وشرعية النفقات المحققة وصحتها وكيفية تدوين كتب الدخل والنفقات.
- المراقبة على صيانة الممتلكات والمباني والمنشآت.
- حساب التبرعات والمراقبة عليها.
- بحث العرائض القادمة من اتباع المسجد وخدمة الدين.
- تجسيد (تنفيذ) قرارات الهيئات العليا وتعليماتها.

٦ - يجرى التفتيش بحضور المسئولين الذين بعد اتمامه يطلعون على وثيقة التفتيش ويوقعون عليها وفي حالة عدم موافقتهم معها يحق لهم التقدم

بالاعتراض الكتابي والملاحظات المثبتة بالبراهن والحجج إلى لجنة التفتيش أو المتولية.

٧ - وعند اكتشاف الاستهتارات للأموال والممتلكات بالتهاون يجب على لجنة التفتيش للمسجد أن تتخذ الاجراءات الكفيلة بالتعويض الكامل من قبل المسئولين للخسائر الملحقة.

٨ - ترسل نسخ وثائق التفتيش إلى كل من لجنة التفتيش المحتسبة ومجلس المحتسبة والمتولية.

٩ - تشترك لجنة التفتيش للمسجد في جلسات المتولية بحق الصوت الاستشاري.

مؤسسة النظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا في الخارج.

١ - يحق للنظارة الدينية الامتلاك بالملل والمساجد والمحتسبات الارساليات الدينية والوكالات خارج الاتحاد السوفياتي.. تتمكن المنظمات الدينية للمؤمنين المذكورين اعلاه من الانضمام بالنظارة الدينية لمسلمي القسم الاوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا بناء على طلبها وتشفعها.

٢ - تحقق النظارة الدينية اختصاصها على المؤسسات الخارجية من خلال قسم العلاقات الخارجية للنظارة الدينية.

٣ - تسترشد المؤسسات الخارجية في سير نشاطها بالنظام الداخلي الحالي بحساب الوقائع والخصائص المحلية وقوانين دولة اقامتها ونظامها الخاص الذي يوضع على اساس النظام الداخلي الحالي.

٤ - تخضع المؤسسات المذكورة في نشاطها قانونياً للمفتي.

الاموال والممتلكات

١ - تؤمن النظارة الدينية تلبية احتياجاتها المادية على اساس التمويل الذاتي.

٢ - تشكل اموالها على حساب تبرعات المؤمنين والايرادات القادمة من المساجد والناتجة من النشاط الاقتصادي التحريري يتوجب حساب تبرعات اتباع المساجد.

٣ - تتم المصادقة على الميزانية المركزية من قبل مجلس الشيوخ للنظارة الدينية.

٤ - يعتبر المفتي ناظراً لأموال النظارة الدينية في حدود الميزانية.

٥ - تحول كافة مؤسسات النظارة الدينية وضمنها المحتسبات وانفاق خدمة الدين من الميزانية المركزية للنظارة الدينية.

٦ - أما المساجد فتحول من ميزانيتها الخاصة وإذا ابرزت الحاجة فوفقا لقرار المجلس الاعلى للنظارة الدينية من الميزانية المركزية يعني قد تخصص النظارة الدينية الاموال لأجل بناء المساجد وتجديدها وترميمها بناء على تشفع الملل ووفقًا لقرار النظارة الدينية.

٧ - يعتبر رؤساء المؤسسات للنظارة الدينية وأعضاء مجالسها نظار أموالها في حدود الميزانية.

٨ - أما المدارس الدينية فتمول على حساب أموال الميزانية المركزية القادمة من تبرعات المساجد والمؤمنين لهذه الأهداف.

تتم المصادقة على تقديرات الميزانية للمؤسسات التعليمية من قبل المفتي مشتركًا مع مجلس الشيوخ للنظارة الدينية.

٩ - تخزن الاموال على الحساب الجاري (الرصيد) للنظارة الدينية في البنك وتسلم وفقا للشركات الموقعة بناظر القروض المفتي وكبير الصرافين.

١٠- يحق لمجلس الشيوخ اجراء التفتيش المالي لصحة انفاق الاموال من الميزانية المركزية وميزانية المحتسبة وميزانية المسجد.

١١- تلقى المسئولية عن صيانة ممتلكات المساجد والمحتسبات والنظارة الدينية على عاتق الاشخاص الذين يديرونها وذلك وفقًا للنظام الداخلي والقوانين المدنية.

١٢- يتوجب حساب الممتلكات الواقعة تحت تصرف النظارة الدينية.

١٣- لايحق لأحد استغلال ممتلكات المنظمات الدينية لأجل الكسب الخاص والاغراض الطمعية الاخرى.

١٤- يؤسس لدى النظارة الدينية بنك «بيت المال» الإسلامي لأجل خزن أموال المساجد والمسلمين المؤمنين وفقًا لقواعد الشريعة المحمدية.

١٥- تخزن الأموال الزائدة للمساجد في الحسابات الخاصة بالملل في «بيت المال» للنظارة الدينية وتقدم لصد احتياجات المساجد أو أصحاب الوديعة بناء على الطلب بواسطة دفتر الحسابات.

الضمان الاجتماعي (التأمين) والتقاعدي

تؤمن النظارة الدينية ما يلي :

١ - الضمان الاجتماعي والتقاعدي لخدمة الدين والعاملين الآخرين[١] وفقا للقانون القائم لحرية الضمير.

٢ - دفع معاش (أجرة) التقاعد بعد بلوغ العمر المناسب المحدد بالقانون العام للدولة وفقًا لمعدل الراتب خلال ٥ سنوات أخيرة على اساس النسب الحكومية العامة.

٣ - دفع تعويضات الفقدان المؤقت لقدرة العمل وفقدان العائل وفقًا للمعدلات الحكومية العامة اعتماداً على قيمة الراتب.

٤ - مساعدة موظفي مؤسساتها وخدمة الدين في حل المشاكل (المسائل) الاسكان حول سجايا (نعوت - خواص) النظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا.

(١) غير المتعاهدين مع النقابة والراغبين في الحصول على معاش التقاعد من النظارة الدينية.

١ - ان شعار (علامة) النظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا ومؤسساتها ومحتسباتها ومساجدها عبارة عن الهلال الفضي مع النجمة تساعية الاطراف من الجهة اليسرى مع صورة المسجد الجامعي التاريخي في بلغار العظمى.

٢ - أما رمز النظارة الدينية وأبنيتها في الاقليم الإسلامي للقسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا فهو زهرة السوسن المعمم الاحمر اللون.

٣ - ان النظارة الدينية لها الراية (العلم) الخاصة بها ذات الاحجام والخصائص التالية: قطعة القماش الاخضر ذات الابعاد ١ × ٢ متر مع التقويرة بشكل ذيل السنونو (عصفور الجنة) لربع طول الراية وفي زاويتها اليسرى رمز النظارة الدينية وفي اسفله من اليسار قليلاً شعار النظارة الدينية بحجم يساوي لنصف عرض الراية.. كما توجد في جزئها الاسفل مجموعة الاشرطة التي تشمل ربع العرض وهي :

١ - الشريط الاحمر عرضه $\frac{١}{١٢}$ من العرض العام

٢ - الشريط الاسود عرضه $\frac{٦}{١٢}$ ....

٣ - الشريط الاخضر عرضه $\frac{٣}{١٢}$ ....

٤ - الشريط الابيض عرضه $\frac{٣}{١٢}$ ....

حول الاختام والطوابع

١ - تملك النظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا ختمًا وطابعًا مع الكتابة بالأحرف العربية والروسية.

٢ - يملك المفتي ختمًا وطابعًا مع إمضائه.

حول عمل النظام الحالي وتعديلاته

١ - يعتبر النظام الحالي واجب التنفيذ بخدَمة الدين واتباع المساجد في جميع مساجد النظارة الدينية.

٢ - يعتبر النظام الداخلي للنظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحادالسوفييتي وسيبيريا.

نهاية مشروع النظام الداخلي كما قدموه للمؤتمر وقد اوردناه بلفظه محافظة على الاصطلاحات والتعابير الواردة فيه.

نزهة في نهر الفولجا (ايتل) :

كان المؤتمر قد انهى جلسة بعد الظهر قبل الساعة الثامنة بقليل فاستقل أعضاء المؤتمر وضيوفه على كثرتهم السيارات التي كانت فيها حافلات صغيرة وتوجهوا إلى ميناء نهرى على نهر (الفولقا) وهذه التسمية كما قلت هي روسية أو أوروبية واسمه القديم عند اسلافنا العرب نهر ايتل وعند أصحاب هذه البلاد الذين هم أهله في الحقيقة (ايدل) وهو عندهم قسمان أو لنقل إنه اصلان أو شعبتان لأصل واحد أحدهما يسمونه (آق ايدل) أي ايدل الأبيض والثاني (قرا ايدل) ومعناها: إيدل الأسود وكل ذلك بلغتهم المتفرعة من اللغة التركية. ويصب الأسود في الأبيض حيث يجتمعان وبينهما الآن حوالي كيلو مترين اثنين ومدينة اوفا في شبه جزيرة بينهما.

وأيا كان اسم النهر فإن النزهة فيه والسياحة على متنه وبخاصة في أعاليه هو أمر مرغوب فيه، بل هو فرصة تنتهز.

بدأت النزهة بالدخول إلى باخرة نهرية واسعة كانت راسية في انتظارنا وذلك في الساعة الثامنة ويعتبر هذا الوقت عندهم عصراً في هذا الفصل الصيفي لأن الشمس تغرب في العاشرة والنصف.



صورة تذكارية مع أخوين تتاريين على نهر ايتل (الفولجا)

عندما دخلنا قاعة كبيرة في هذه الباخرة أو إن شئت قلت: إنها قارب كبير وجدنا الموائد فيها قد نصبت عليها مقدمات المائدة المعتادة من فاكهة ونُقولٍ وهي المكسرات ومشروبات باردة فيها مياه معدنية ومياه غازية وعصير من عصير الفاكهة أكثر ما فيه عصير التفاح وعلى هذه الموائد أيضًا بيض السمك الأحمر اللون ويسمى هنا الكافيار الأحمر ويأكلونه مع الخبز يضعون فوقه إداما من الزبد، وقد اكثروا على الموائد من لبن الخيل الذي احضروه في زجاجات مختومة كما تختم المياه الغازية وحذروا الآكلين ألا يرجّوه بأن يحركوه في الزجاجات لأنه يقفز كما تقفز الكوكاكولا إذا رجت لأن فيه غازات طبيعية.

عقد الزواج :

في هذه الباخرة السياحية وبينما كانت الباخرة تسير في نهر الفولقا وقد جلسنا على الموائد حضر لعقد النكاح زوجان من أهل البلاد وهما شابان كل منهما يتزوج لأول مرة اسم الزوج زاهدالله واسم الزوجة جزالية تحسين.



في الموكب في نهر ايديل (الفولقا)

تولى عقد القران لهما الشيخ طلعت تاج الدين فخطب الخطبة المألوفة عندنا إلا أنه دعا للعروسين بعد ذلك بدعاء غير معهود لنا منه قوله: اللهم ألف بين قلبيهما كما ألفت بين قلبي آدم وحواء ويوسف وزليخا ومحمد وخديجة. ثم أوصى الزوج بزوجته مستشهداً بالحديث «إستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع أعوج» ولاشك في أن أكثر الحاضرين منهم من نساء لايعرفون الضلع الأعوج.

ورغم مايصحب عقد الزواج عادة من رزانة وتجمل فإن هذه الخطبة قد صاحبها مرح وأنس، وذلك لما أضفاه الجو في باخرة نهرية وسط مياه صافية ساجية في رأي العين تلف ضفافها الخضرة الشاملة وتمتد مدى البصر.

وقد أحضر المدعوون من أهل البلاد وبعض أسرهم فاجتمع الماء والخضرة والوجه الحسن، وكل ذلك في وقار ظاهر.

ثم جاء العشاء فاخراً وافراً قد زادوا من أصناف اللحم فيه لحم البط والإوز مع لحم البقر السمين.

فكنا نتعشى والباخرة تسير في النهر وعند الفراغ منه تفرق الناس في شرفات الباخرة يلتقطون الصور التذكارية أو يصورون المشاهد التي تحيط بهم بأنفسهم.



صورة تذكارية في نهر ايتل (الفولقا)

ولم يكدر هذا الاحتفال الجميل إلا كون الجو غائمًا والمطر يسقط رذاذاً وكأنما هو ينفث رقيته على هذه الأرض المسلمة لئلا تصيبها العين لأنها حصلت لأول مرة منذ ٧٣ سنة على شيء من حريتها في أمر دينها لم تحصل عليه من قبل.

وقد عدنا من هذه النزهة في حوالي الحادية عشرة والربع وقد غابت الشمس منذ أكثر من نصف ساعة فقط.

يوم الجمعة : ١٤١٠/١١/١٥هـ - ١٩٩٠/٦/٨م:

هذا اليوم هو آخر يوم لنا في أوفا عاصمة جمهورية بشكيريا أو بشقردز ستان وهي جمهورية ذات حكم ذاتي كما سبق وتابعة لجمهورية روسيا الاتحادية التي كتبنا هذا الكتاب عن رحلتنا فيها.

إذْ سنسافر في مساء هذا اليوم إلى طشقند عاصمة جمهورية اوزبكستان ثم نجول في بعض بلدان المسلمين في آسيا الوسطى وحديث ذلك في كتاب آخر عنوانه: «يوميات آسيا الوسطى».

وسوف نعود بعد الانتهاء من الجولات في آسيا الوسطى إلى أماكن أخرى في جمهورية روسيا الإتحادية حيث نعاود الحديث عنها إلى آخر الكتاب بإذن الله.

جلسة المباحثات الرسمية :

اتفقنا مع الشيخ المفتي طلعت تاج الدين على أن تكون جلسة المباحثات الرسمية معه في صباح هذا اليوم قبل أن يبدأ المؤتمر جلسته الختامية.

وقد جرى البحث مع الشيخ المفتي ومعه بعض المشايخ العاملين في الإدارة الدينية وتناول الموضوعات التالية:

١ - المطبعة وتصنيع الطوب :

آفاد الشيخ طلعت تاج الدين بأن الإدارة الدينية قامت بشراء مطبعة مستعملة تفي بحاجاتها ويجرى حاليًا التدريب على النقل والتشغيل.. وإنما المهم هو تأمين مصنع الطوب لأن بناء وترميم المساجد يحتاج إلى الطوب ونظراً لاعمال البناء المتزايدة فإن ايجاد الطوب اللازم يشكل مسألة صعبة.. علاوة على أن الطوب الفائض عن الحاجة تمكن مقايضته بالحديد والاسمنت اللازم لبناء المساجد.. فأخبرناه بأن هيئة الاغاثة الإسلامية أبلغتنا أن أحد المحسنين قد تبرع بمبلغ بعضه للإسهام في شراء المطبعة ومصنع طوب لهم ومادام قد تم تأمين المطبعة ويحتاجون حاليًا لشراء مصنع الطوب فإن وفد الرابطة سينقل رغبته إلى هيئة الاغاثة الإسلامية.

٢- بيوت العجزة والأيتام :

ذكر الشيخ طلعت تاج الدين بأن حكومة باشقردستان منحت الإدارة الدينية مساحات كبيرة من الأرض لإقامة بيوت للأرامل والعجزة والأيتام ويقدر أن تضم هذه البيوت ١٠١٠٠ أسرة، وأكد على أهمية إسهام هيئة الإغاثة

الإسلامية في بنائها لأنها ستوفر السكن لكثير من المسلمين الذين يحتاجون إلى الإغاثة لكبر سنهم وعجزهم عن العمل.

وقد وعدناه بنقل طلبه إلى هيئة الاغاثة الإسلامية وطلبنا منه أن يقدم دراسة وافية ومفصلة عن المشروع حتى تستطيع هيئة الاغاثة الإسلامية دراستها واتخاذ القرار اللازم بشأنها وذلك لأن مثل هذه الموضوعات هي من اختصاص هيئة الإغاثة الإسلامية وخارجة عن نطاق عمل الرابطة إلا من جهة مساعدة ماهو قائم فعلاً فالرابطة تسهم فعليا في إنشاء المباني لها وفي تشغيلها أما ابتداء ذلك، فانه من اختصاص الاغاثة.

٣ - مركز اسلامي في اوفا عاصمة باشقردستان :

اخبر الشيخ طلعت تاج الدين أن حكومة باشقردستان منحتهم قطعة أرض واسعة لإقامة مركز إسلامي متكامل يضم مسجداً ومدرسة ومستشفى ومكتبة وملاعب رياضية ومواقف سيارات.. وأن الاستفادة منها تتطلب نقل ثلاثمائة عائلة تسكن في هذه الأرض إلى مبانٍ سكنية يتم بناؤها خصصيًا لهم بتكلفة قدرها ١,٥ مليون روبل وقد أشرنا عليه بأن تقوم الإدارة الدينية بعمل الخرائط والتصاميم التي توضح تفاصيل المشروعات والتكاليف المقدرة لانفاذها وأن رابطة العالم الإسلامي ستسعى لدى الجهات التي تتبرع عادة لهذه المشروعات من أهل المملكة العربية السعودية، للإسهام في دفع تكاليف هذا المشروع.

كما ذكر الشيخ طلعت تاج الدين أن العمل يجرى في إنشاء مسجد ومدرسة في منطقة تبعد عن أوفا بحوالي ٣٠ كيلو متراً.

٤ - المركز الإسلامي في قازان عاصمة جمهورية تتارستان الذاتية الحكم.

أفاد الشيخ طلعت تاج الدين بأن حكومة تتارستان منحت المسلمين قطعة

أرض مساحتها ٧ هكتارات أمام مقر الحكومة المحلية في قازان.. إلاَّ أن هذه الأرض منخفضة وتحتاج إلى تسويتها وتعبئتها بالرمل.. وسيقام على هذه الأرض.

(أ) مسجد كبير يتسع لأكثر من تسعة آلاف مصلٍ ترتفع على جوانبه أربع منارات.

(ب) قاعة محاضرات تتسع لحوالي ٦٠٠ شخص.

(جـ) قاعة استقبال وغرف ضيوف.

(د) قاعة للألعاب الرياضية.

(هـ) مدرسة.

وتقدر تكاليف هذا المشروع بحوالي ١٥ مليون روبل اي مايساوي ٢,٥مليون دولار وقد منحتهم الحكومة مبلغ ١,٥ مليون روبل وسيبدأ العمل في شهر أغسطس ١٩٩٠م وقد وعد الشيخ طلعت تاج الدين بتقديم الخرائط والتقارير الخاصة بذلك حتى تتمكن الرابطة من دراستها والسعي لطلب المساعدة المالية على المشروع.

٥ - جامع موسكو ومسجد جديد :

تحدث الشيخ طلعت تاج الدين عن مشروع توسعة جامع موسكو الحالي حيث منحوا قطعة أرض مجاورة وتقدر تكاليف التوسعة بحوالي ٨ ملايين روبل أي ١,٥مليون دولار.

وان الاستعداد جار لإقامة مسجد ثان في موسكو تعهد أحد المحسنين السعوديين بدفع نفقات بنائه بواسطة رابطة العالم الإسلامي.

٦ - المنح الدراسية :

ذكر الشيخ طلعت تاج الدين أن الإدارة الدينية رفعت أوراق ترشيح خمسة طلاب مسلمين إلى حكومة الإتحاد السوفيتي بطلب الموافقة على ابتعاثهم إلى الخارج لدراسة العلوم الإسلامية واللغة العربية وعندما تصلهم الموافقة سيرسلون وثائقهم إلى رابطة العالم الإسلامي لمساعدتهم في الحاقهم بأحد المعاهد الإسلامية للدراسة.

وقد رحبنا بهذا وأخبرناهم بأننا على استعداد لتخصيص منح لعدد كبير من أبناء المسلمين هنا لدراسة العلوم الإسلامية.

٧ - ترجمة معاني القرآن الكريم بالتتارية والروسية والكتب الإسلامية.

(أ) قدم وفد رابطة العالم الإسلامي نسختين من الترجمة الروسية لمعاني القرآن الكريم التي وضعها احد الإخوة المسلمين العرب بتكليف من الرابطة وهي الترجمة الروسية المبدئية للجزء الثلاثين من القرآن الكريم إلى الشيخ طلعت تاج الدين برجاء تشكيل لجنة لمراجعتها وتقديم تقرير عن سلامة الترجمة وجودة اسلوبها إلى الرابطة حتى تتمكن من طبعها والاستمرار مع المترجم في اتمام الترجمة الروسية وذلك لندرة وجود الفاحصين المتخصصين باللغة الروسية لدى الرابطة وقد وعد الشيخ طلعت تاج الدين بتكليف عدد من العلماء بمراجعة الترجمة وارسال تقرير عن صحتها وصلاحيتها إلى الرابطة أو عدم ذلك.. كما أفاد بأن الإدارة الدينية تعتزم طبع مائة ألف نسخة من الترجمة الروسية لمعاني القرآن الكريم التي وضعها جودي سابليكوف قبل الثورة الشيوعية.

(ب) طلب الشيخ طلعت تاج الدين تزويده بالترجمة التتارية المسماة «الإتقان

في ترجمة القرآن» التي وضعها الشيخ اسد الله الحميدي وسبق أن زودته الرابطة بنسخة منها وأشار بأنهم يعملون على إعادة كتابتها بالأحرف الروسية حتى يستفيد جيل الشباب ممن لايقرأ الحروف العربية منها. كما ذكر بأن الإدارة الدينية تعمل على طبع ١٥ألف نسخة منها إذا توفر لديها الورق.

(جـ) كانت رابطة العالم الإسلامي قد طلبت تزويدها ببعض الكتب الإسلامية التي طبعت باللغة التتارية قبل الحكم الشيوعي حتى تستطيع الرابطة الإسهام في اعادة طبعها لهم وقد وعد الشيخ طلعت بارسالها إلى الرابطة.

ثم تحدث الشيخ طلعت تاج الدين عن فرحة المسلمين وغبطتهم بالمصاحف التي وصلتهم هدية من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز وأن الإدارة قد باعت هذه المصاحف بسعر رمزي للمسلمين حتى يستفاد من قيمتها في بناء وترميم المساجد التي اعيدت لهم.. كما ذكر بأن الإجراءات تأخذ مجراها الآن لسفر أول فوج من الحجاج السوفييت إلى الأراضي المقدسة وأن الإدارة الدينية قد ساعدت الأشخاص الذين لايملكون تكاليف الحج التي قدرت بحوالي ١٦ ألف روبل وأن حكومة الإتحاد السوفيتي وافقت على تبديل مبلغ ستمائة دولار لكل حاج يأخذها معها لنفقات الحج.

وقد شكرته على ما لقيه وفدنا من حفاوة وترحيب وتوضيح لمشاريع الإدارة الدينية لمسلمي سيبيريا والقسم الأوروبي ودعوت له بالتوفيق في خدمة المسلمين وأبديت له استعداد رابطة العالم الإسلامي بالتعاون لما فيه خير الإسلام والمسلمين في هذه البلاد وقدمت له باسم رابطة العالم الإسلامي مساعدات مالية رمزية عاجلة.

الجلسة الختامية :

انعقدت الجلسة الختامية للمؤتمر الإسلامي الخامس لمسلمي سيبيريا والقسم الأوروبي من الإتحاد السوفيتي في العاشرة والنصف من ضحى هذا اليوم وكنا فرغنا من المباحثات مع الإدارة الدينية قبل ذلك فانتقلنا مباشرة إلى مقر المؤتمر.

وقد بدأت الجلسة بمناقشة فكرة تأسيس حزب إسلامي سياسي في الإتحاد السوفيتي يضم الشخصيات المسلمة من جميع الثقافات في سائر أنحاء الإتحاد السوفيتي فاستحسن المؤتمر الفكرة.

ثم تليت المقررات والتوصيات التي كنا قد كتبناها بالعربية وسلمناها لهم أمس وقد ترجموها ليلة البارحة إلى اللغة الروسية لأنها هي اللغة المشتركة بين المسلمين في هذه البلاد.

وقد أنهى المؤتمر اعماله في الحادية عشرة والنصف بتلاوة من القرآن الكريم.

وهذا نص البيان الذي تضمن القرارات والتوصيات التي وافق عليها المؤتمر.

البيان الختامي
للمؤتمر الخامس لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا المنعقد في مدينة أوفا
في الفترة من ١٣ إلى ١٧ ذي القعدة ١٤١٠هـ الموافق من ٦ إلى ٩ يونيو عام ١٩٩٠م

انعقد المؤتمر الخامس لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا بعد غياب طال أمده، حرم المسلمون فيه من حقهم الطبيعي في ممارسة شعائرهم الدينية والحفاظ على هويتهم وثقافتهم الإسلامية وظل المسلمون السوفيت يتطلعون إلى بزوغ فجر جديد حتى هيأ الله لهم مخرجًا حينما ظهرت على الساحة مبادئ وسياسات الرئيس ميخائيل جورباتشوف خلال نظرياته في إعادة البناء (البرويسترويكا) وجو المصارحة والمكاشفة (الجلاسنوست).

وكان أحد مظاهر هذه المواقف الجديدة اعتراف الدولة بحقوق الانسان في الاتحاد السوفيتي وحق الجميع في ممارسة دياناتهم ومن ثم فقد انعقد المؤتمر الخامس لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبريا، في ظل هذه الظروف الايجابية وقد حضره جمع كبير من ممثلي المنظمات والهيئات الإسلامية الدولية والشعبية ومنها:

- منظمة المؤتمر الإسلامي - جدة.
- رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة.
- مؤتمر العالم الإسلامي - كراتشي.

وممثلو المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية والجمهورية التركية واليابان، وبولندا وكذلك السفراء وأعضاء السلك الدبلوماسي للدول العربية

والإسلامية المعتمدين في موسكو وهم سلطنة عُمان - دولة الكويت - المغرب - اندونيسيا - ماليزيا - أفغانستان - موريتانيا - السنغال - مالي - الجزائر، ورومانيا.

وقد تلقى المؤتمر عدة برقيات صادرة من مجلس الاديان بروسيا الاتحادية ومجلس الأديان لدى مجلس الوزراء في الإتحاد السوفيتي يعبرون فيها عن تمنياتهم للمؤتمر بالنجاح والتوفيق في أعماله.

هذا وقد انتخب المؤتمرون سماحة المفتي طلعت تاج الدين رئيسًا للمؤتمر وقد قام المؤتمر بمعالجة الموضوعات التالية:

١ - التقرير المقدم من طرف المفتي طلعت تاج الدين.

٢ - تقرير الهيئة المالية.

٣ - النظام الداخلي للادارة الدينية.

٤ - انتخابات رئاسة الإدارة الدينية.

والقيت في المؤتمر كلمات الوفود وتلتها كلمات المشاركين عبروا فيها عن إرتياحهم بالتغييرات الجديدة، وطالبوا باعادة الإعتبار لحقوق المسلمين في العيش بعزة وكرامة وسؤدد ضمن الدولة السوفيتية العظيمة وأكدوا على ضرورة توحيد كلمة المسلمين السوفيت وتعاونهم على البر والتقوى واصلاح أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية وتنميتها واستخدام الموارد المالية في إشباع المطالب الاساسية والدعوة إلى إنشاء بنك إسلامي يكون عونا لتنمية المدخرات والاستثمارات حسبما جاء في الشريعة الغراء، كذلك أشار المؤتمرون إلى الخطر المحدق بأبناء المسلمين السوفيت من جراء نقص التربية الإسلامية وأكدوا على أهمية دور المدرسة والمسجد في هذا الميدان، وحيث أن اللغة العربية مادة أساسية للمسلم في فهم أمور دينه فإن المؤتمرين يوصون بما يلي :

(أ) الحرص على تعليم اللغة العربية في المدارس والفصول الدراسية.

(ب) تخصيص برامج دينية في الإذاعة والتلفزة.

(د) العناية بابراز المعاني الروحية لأعياد المسلمين والمناسبات الإسلامية الأخرى.

وفي ظل هذه الروح المفعمة بالتضامن الإسلامي فيما بين المسلمين السوفيت أوصى المؤتمرون بضرورة المبادرة إلى إنشاء جمعية دينية ثقافية اجتماعية يطلق عليها اسم «جمعية أمة محمد» مفتوحة لجميع المسلمين في الاتحاد السوفيتي تكون أفضل وعاء لنشاط المسلمين وأصدق وسيلة لإبراز تطلعاتهم إلى الحياة الكريمة.

كما أوصى المؤتمرون أن ينعقد هذا المؤتمر بصفة دورية كل خمس سنوات وفي ختام أعمال المؤتمر وجه المؤتمرون برقيات شكر وامتنان إلى كل من الرئيس ميخائيل جورباتشوف وخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز والحسن الثاني ملك المملكة الغربية، رئيس لجنة القدس.

والشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة.

والشيخ صباح سالم الصباح - أمير دولة الكويت.

وكذلك لكل من الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي الدكتور حامد الغامد والأمين العام لرابطة العالم الإسلامي معالي الدكتور عبدالله عمر نصيف.

زيارة مجلس السوفييت الأعلى :

ذهب الوفود والضيوف وهم كثر إلى زيارة مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية بشكيريا ذات الحكم الذاتي وهو بمثابة المجلس النيابي أو (البرلمان) في البلدان الحرة إلا أنه أكثر أهمية من ذلك هنا فهو الذي يعين رئيس الجمهورية ونائبه والوزراء.

وقد جلسنا في المكان عينه الذي زرته في المرة السالفة قبل اربع سنين وكان رئيس الجمهورية آنذاك شيوعيًا متعصبا اسمه (سلطانوف) لم يمنعه الحياء، ولامجاملة ضيوفه المسلمين من أن يلصق بالإسلام رذائل من صفات ليست فيه.



نائب رئيس مجلس السوفييت الأعلى لشعب باشقردستان على يساره طارق بن لادن

وقد ذكرت ذلك مفصلاً في كتاب : «زيارة للمسلمين في الإتحاد السوفيتي» ولكنه ذهب كما ذهب التعصب الشيوعي من هذه البلاد ، وانتخب بديلاً عنه غيره في رئاسة مجلس السوفييت الأعلى التي هي رئاسة الجمهورية المحلية وهو السيد مرتضى عبيدالله (رحيموف) الذي مدحه الإخوة المسلمون في وقوفه إلى جانبهم، ولكننا لم نتمكن من لقائه لأنه في إجازة مرضية ويقوم بعمله مقامه نائب رئيس الجمهورية (ويلار داودوف) وكان حضر معنا المؤتمر.

وجدنا نائب رئيس الجمهورية واقفًا أمام مقر المجلس فتقدمنا إلى القاعة وصافحناه هناك وهو واقف ثم القى كلمة مطولة مكتوبة تضمنت الترحيب بالوفود الذين فيهم الوزراء والسفراء وممثلوا المؤسسات والجمعيات الإسلامية الرئيسية في العالم ثم بدأ بالكلام على أحوال جمهورية باشكيريا وعما كانت عليه وما أصبحت عليه الآن، وذكر أرقامًاتقارن بين الانتاج فيها قبل ٧٠ سنة وما هو عليه الآن.

وذلك مثلما اعتاد المسئولون في هذه البلاد أن يفعلوه.

ثم أشار إلى ما يتمتع المسلمون به من الحرية في ممارسة الشعائر الدينية موضحًا أهمية التربية الدينية في رفع المستوى الإجتماعي والثقافي وضمان الدستور السوفيتي للمواطن الحرية الدينية والاعتقاد وذكر أن لينين زار باشكيريا مرتين، تعرف خلالهما إلى ظروف الناس وحياتهم ووقع شخصيًا على وثيقة إنشاء جمهورية باشقردستان الذاتية الحكم في ٢٣ مارس ١٩١٩م التي حصل بموجبها الباشكيريون على حقوقهم الشرعية.

وذكر أن مساحتها تبلغ ١٤٣٠٠٠كم٢ ويصل سكانها أكثر من أربعة ملايين نسمة ولهم ٣٢٠٠مدرسة منها ١٢٠٠ مدرسة ثانوية يبلغ إجمالي الطلاب أكثر من ١٧٥ألف طالب وتوجد ٦٠٠ مكتبة عامة في البلاد التي تعتبر أكثر الجمهوريات تطوراً في ميادين الإقتصاد والتجارة والحضارة وأنها تسعى لاقامة علاقات تجارية وصداقة مع دول العالم...

وقد استطرد في الحديث عن مجلس الشعب الذي يبلغ نوابه ٢٨٠ يعملون في ١٢ لجنة متخصصة وأن رئيس مجلس الشعب السوفييتي الباشكيري السيد مرتضى عبيد الله رحيموف لم يتمكن من استقبال الضيوف لمرضه.

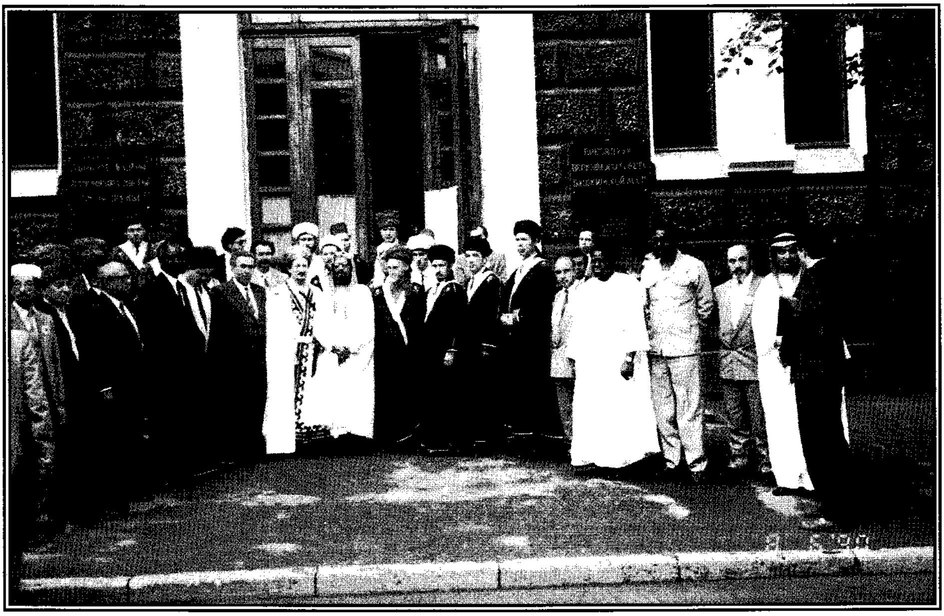
ثم قال في نهاية كلمته جملة لم تتغير منذ سنين في هذا الصدد وهي من كان عنده سؤال أو استفسار يتعلق بما قلته فليتفضل.

كلمة الوفود :

طلب مني الإخوة أعضاء الوفود والضيوف أن أرد على كلمته التي هي كلمة رئاسة السوفييت الأعلى بمعنى رئاسة الجمهورية وكنت أقرب المدعوين مجلسًا إليه من جهة اليسار فنهضت والقيت كلمة مرتجلة مبسوطة تضمنت الشكر والتقدير لما لقيناه من رجال الإدارة الحكومية ومن إخواننا المسئولين عن المؤتمر من حسن استقبال وكرم ضيافة وقلت: إن هذا لايستغرب على أمة أسلمت كلها قبل ألف سنة أو تزيد محبة في الإسلام ورغبة فيه من دون أن تكون هناك قوة للإسلام في بلادها غير قوة الحجة والبيان.

ثم تكلمت عن تاريخ هذه البلاد بما قرأته في الكتب العربية حتى ذكر لي بعض المثقفين هنا أنهم لم يكونوا يعلمون به من قبل وهذا صحيح لأنهم أجبروا على أن يتلقوا ثقافتهم من مصادر ثقافية روسية لاتريد للمسلمين أن يعرفوا مجدهم الإسلامي التليد، وحتى لو لم ترد ذلك فإن الحصول على المعلومات من المصادر المكتوبة بالعربية أمر لايستطيع عامتهم الوصول إليه.

وشكرته باسمي وأعضاء الوفد الذي معي وباسم اعضاء الوفود جميعًا وقلت إننا نمثل الشعوب المسلمة لأن رابطة العالم الإسلامي التي جاء وفدنا منها تمثل فيها الشعوب والجمعيات المسلمة من سائر أنحاء العالم.



صورة تذكارية عند باب السوفييت الأعلى في أوفا

والرابطة منظمة شعبية عالمية ولذلك يسرها ويسر المسلمين جميعًا أن يروا الإخوة المسلمين السوفييت متمتعين بحريتهم الدينية ومن أهمها التربية الدينية التي كانت ممنوعة على أولادهم في السابق.

ولا شك أن من أهم أسباب ذلك السياسة التي انتهجها الرئيس ميخائيل جورباتشوف في الإصلاح والإنفتاح التي كان من ثمرتها وصول المصاحف

الشريفة من مكة المكرمة إلى أيدي المسلمين في الإتحاد السوفيتي.

وقد أهديت إليه هدية من بينها تسعة مصاحف كريمة تسلمها شاكراً.

ثم ألقى الشيخ المفتي طلعت تاج الدين كلمته فشكر حكومة بشكيريا وعلى رأسها رئيس الجمهورية مرتضى عبيد الله ونائبه (داودووف) على التسهيلات التي بذلوها لإنجاح المؤتمر وذكر أشياء منها أن الجمهورية وفرت الأغذية التي يحتاجها المؤتمر لضيوفه وقال: إننا لولا جهود الحكومة لما استطعنا أن نشتري هذه الأغذية الوفيرة.

وقال : إن فلانا - يقصدني - يذكر معي حينما زار رئاسة مجلس السوفييت الأعلى وجلسنا في هذه القاعة في العهد السابق، وقد تمنيت آنذاك أن الأرض قد ابتعلتني عندما سمعت رئيس الجمهورية يتكلم على نقائص يعدها من الإسلام أمام ضيوفنا.

والآن وقد تبدل الحال ولله الحمد فإن الشعب المسلم هنا بدأ يمارس نشاطه الديني بحرية، ويؤمل أن يزيد ذلك في المستقبل.

صلاة الجمعة :

انطلق الوفود من مقر السوفيت الأعلى في موكب طويل مهيب إلى جامع أوفا فوجدنا صفوفا من الإخوة المسلمين قد وقفت لتحيي وفود المؤتمر، وقد انتظمت من الشارع خارج الجامع حتى الجامع نفسه وهي تحيي وترحب بكل من يصل إلى الجامع منهم.

وكان فيهم النساء والرجال وأكثر النساء من المسنات.



قرب الوصول إلى جامع أوفا

وأردت أن أتوضأ لأنني خرجت من الفندق مبكراً ولم أعد إليه فقادوني إلى مكان بعيد مما يدل على عدم العناية بمحلات الوضؤ والطهارة ثم دخلت الجامع فلم أكد أجد لقدمي موضعًا من كثرة المصلين حتى وصلت إلى المكان المخصص لي ولكبار الوفود في الصف الأول خلف الإمام.

فألقى المفتي الشيخ طلعت تاج الدين خطبة الجمعة الأولى باللغة التتارية والثانية بالعربية وكان مصورو التلفزة والصحافة يصورون كل شيء في الجامع.



بعد صلاة الجمعة في مسجد أوفا

ودعاني إلى أن أؤم الناس في صلاة الجمعة فاعتذرت فصلى بهم وبعد الصلاة بدأوا بالتحميد والتكبير والتهليل ثم دعاء بعده تحميد وتكبير ثم تلاوة القرآن من رئيس وفد تركيا للمؤتمر وهو أحد العلماء القراء المشهورين في تركيا فقرأ قراءة مجودة متقنة خشعت لها قلوب الجميع وبخاصة في هذا الجو الإنفراجي للمسلمين بعد طول كبت وظلم ومعاناة.

ثم تقدمت مغنية في حدود الأربعين من عمرها إلى المحراب وانشدت بالمكبر وهي جالسة مدائح وترانيم دينية إسلامية شجية.

مأدبة تتارية :

كانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف عندما انتقلنا من المسجد إلى جانب من حديقته، فوجدناهم قد اعدوا غداء تتاريًا في خيمة تتسع لحوالي خمسمائة شخص وقد أعدوا الموائد التي من أهمها خراف مشوية محشوة بأنواع من الفواكه منها التفاح والمشمش إلى جانب اللوز والمكسرات والبهارات.

فكان الناس يجدون في حشو الخراف من ذلك ماهو ألذ من اللحم إلى جانب ماقدموه من فواكه طازجة منها الكرز والفراولة، مع العسل الأصيل النقي الذي تنتجه هذه البلاد وهو من أرقى أنواع العسل في الإتحاد السوفيتي لأن نحله يتغذى على أنواع معينة من الزهور قليلة الوجود في غيرها.

أما المشروبات فإن أكثرها ظهوراً لبن الخيل الحامض المحفوظ في زجاجات وقد أمعن القوم من أهل البلاد في شربه لاعتقادهم أنه صحي لذيذ، وبخاصة مع الطعام الدسم الوافر أما أنا فلم أستسغه لحموضته.

هذا وكان الإخوة التتاريون وعلى رأسهم الشيخ طلعت يقطعون قطع اللحم الكبيرة من اللحم اللذيذ الطازج كما كنا نفعل نحن في القديم، ولبس الإخوة المواطنون اللباس التقليدي لهم وهم يعاقبون الصحون الصغيرة حتى الحساء كان يأتي أكثر من مرة.



حفلة غداء بعد صلاة الجمعة في أوفا

وهذه المأدبة الكبيرة المكلفة هي من الإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي من الإتحاد السوفيتي التي أقامت هذا المؤتمر العظيم وأنفقت عليه.

وإن المرء ليعجب من استطاعتهم بأنفسهم إنفاق هذا المال الكبير وترتيب هذا المؤتمر الذي جاء متكاملاً كأنما قامت عليه إحدى الحكومات أو اشتركت في إعداده عدة مؤسسات كبيرة.

وكان الشيخ طلعت تاج الدين قد أخبرني أن الإخوة المسلمين يتبرعون للإدارة الدينية باستمرار، وأن تبرعاتهم وإن لم تكن بمبالغ كبيرة بسبب ضآلة المداخيل فإنها تكون متكررة مستمرة وهي تغطي جميع الأنشطة الدينية في المنطقة ومن ذلك دفع مرتبات العاملين في الإدارة الدينية وأئمة المساجد ومؤذنيها والعاملين فيها.

لقاء التلفزة والإذاعة :

في الخامسة وبعد الفراغ من الغداء كان ممثلو التلفزة في أنحاء الاتحاد السوفيتي وإذاعة هذه البلاد قد تغدوا مثل غيرهم على هذه المائدة الكبيرة فأصروا على اجراء لقاء تلفازي معي للمشاهدين للتلفاز السوفيتي المركزي وهو يشاهد في جميع أنحاء البلاد السوفيتية وكذلك طلبت التلفزة المحلية والإذاعة مثل ذلك.

فتحدثت إليهم عن الإسلام والحياة وبينت لهم أن الإسلام يعطي طمأنينة النفس وهدؤ الضمير، ولذلك لايوجد انتحار بين المسلمين الملتزمين بالإسلام حتى ولو كانوا فقراء محتاجين على حين أن بعض الدول المتقدمة في مضمار الحياة توجد فيها حالات انتحار كثيرة حتى بين اغنياء وميسورين ومن الناحية الاجتماعية فإن الإسلام يكفل العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس جميعًا والعدل في الأحكام ومراعاة المصالح العامة المشتركة للأمة.

واثنيت في كلامي على سياسة إعادة البناء التي طبقها الرئيس جورباتشوف في الإتحاد السوفيتي وكيف أنها جعلت المسلمين أكثر حرية في ممارسة شعائر دينهم بحيث اقبلوا على استعادة مساجدهم وترميمها إضافة إلى بناء مساجد جديدة مما كان له الأثر الطيب في نفوس إخوتهم المسلمين في جميع أنحاء العالم.

مغادرة روسيا الاتحادية :

ذهبنا مسرعين إلى الفندق حيث قابلنا بعض الإخوة المسلمين الذي كانوا في المؤتمر ومنهم طائفة من إخواننا مسلمي القوقاز وكذلك الأخ ستيفان مصطفى موخارسكي رئيس الإتحاد الإسلامي البولندي.

ثم عدنا للإدارة الدينية فأعطينا الشيخ طلعت تاج الدين بعض المبالغ المالية بالدولار مساعدة من الرابطة للإدارة على تسيير أعمالها وكذلك أهدينا إليهم هدايا متعددة وقد قدموا إلينا هدايا منهم.

ثم أسرعنا إلى مطار أوفا حيث غادرناه إلى مدينة طشقند عاصمة جمهورية ازبكستان، وللحديث عن زيارة جمهورية ازبكستان ومابعدها من جمهوريات مسلمة مثل تاجيكستان وتركمانستان ونواحٍ مهمة في آسيا الوسطى مثل خوارزم وبخارى أحاديث في كتاب «يوميات آسيا الوسطى» ولله الحمد والمنة على نعمه التي لاتحصى.

يوم السبت ٢٣/١١/١٤١٠هـ

العودة إلى موسكو :

بعد ليلة ساهرة كان سبب السهر فيها أن جلسة المباحثات التي عقدناها في الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى مع الشيخ المفتي محمد صادق محمد يوسف والمسئولين في الإدارة الدينية في طشقند قد امتدت أكثر مما قدر لها حتى لم نصل الفندق بعدها إلا في الثانية عشرة.

فأخذت في ترتيب أمتعتي لأننا سنغادر في هذا الصباح منطقة آسيا الوسطى إلى موسكو فلم أنم إلا في الثانية وإذا بطارق يطرق الباب يسأل عن الرفاق فأطار ذلك من عيني الرقاد حتى الفجر ثم صليت الفجر، ونزلنا إلى مطعم الفندق الذي نسكن فيه وهو فندق أوزبكستان في طشقند، ومن هناك انتقلنا إلى مطار طشقند فأجلسونا في قاعة كبار الزوار (صالون الشرف) لكوننا ضيوفًا يحمل أحدهم جواز سفر سياسيًا وبسبب أهم من ذلك وهو أن

مضيفنا وصاحبنا المفتي الشيخ محمد صادق محمد يوسف هو عضو في مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي ويخوله ذلك الدخول لمثل هذه الأماكن مما هو محظور على الجمهور وكذلك يخوله الركوب في جميع وسائل السفر من طائرات وقطارات وحافلات دون دفع أجرة ولو أكثر من ذلك، ولايستثنى من ذلك إلاَّ سيارات الأجرة (التاكسي) فلابد من أن يدفع ثمن ركوبه فيها وكل ذلك إذا أبرز بطاقة عضويته في مجلس السوفييت الأعلى.

وقد أنتخب المفتي من قبل الشعب الأوزبكي لهذا المنصب وليس ذلك من أجل وظيفة الإفتاء، وإنما انتخبه الشعب محبة في الإسلام، وكرها لمنافسيه من الشيوعيين.

وكان الشيخ محمد صادق قد رافقنا في كل جولاتنا على المدن والأماكن التي زرناها في جمهوريات آسيا الوسطى.

إلا أنه سوف يرسل أحد كبار موظفي الإدارة الدينية وهو الشيخ عبدالحميد بن محمد ترسون المسئول عن النشر والطبع في الإدارة الدينية معنا إلى موسكو ليكون في صحبتنا حتى نغادر موسكو.

والأمر في الإتحاد السوفيتي مختلف عن غيره من البلاد إذ لابد هنا من المرافق الذي يعرف الروسية وبدونه لايستطيع المسافر أن يحصل على فندق ويدخل مطعمًا، فضلاً عن بقية مايحتاجه في زيارة البلاد.

موقف مؤثر :

كانت القاعة حافلة بالإخوة المودعين ومنهم الشيخان ذاكر اسماعيل، وزاهد عبدالقادر نائبا المفتي في الإدارة الدينية وكلاهما يعرف العربية جيداً، وإذا باثنتين من الفراشات وهن العاملات في المطار تتقدمان منا وقد عرفتا أننا من مكة المكرمة وتخرج كل واحدة منهما ورقة من فئة ٣ روبلات تدسها في يدي وتقول وهي توجه الحديث إلى المفتي لكي يترجمه إليَّ: إن هذه (قربان) أي صدقة لكم !!!

وقد قبلت ذلك شاكراً تطييبًا لخاطر الأختين المسلمتين لأنني لورددته لأثر ذلك فيهما، وهذا المبلغ يساوي بالصرف التشجيعي للسياح أقل قليلاً من نصف دولار وبالسوق الحرة خمس دولار أي ٢٠٪ منه إلا أنه يمثل أكثر من راتب يوم كامل لكل واحدة من هاتين الأختين فقد عرفت أن راتب الواحدة منهما (٧٠) روبلاً في الشهر.

ولم يكن المقام مقام اعطائهما نقوداً تعبيراً عن الإعجاب بروحهما الإسلامية النبيلة التي اوحت إليهما الإنفاق على عسرة وبذل جهد المقل حقيقة، وإنما كافيناهما على ذلك بأن وعدناهما أن ندعوا لهما قرب الكعبة في الحرم المكي الشريف والتقطنا صورة للوفد معهما، وزدنا على ذلك بأن أهدينا لهما قطعة صغيرة من كسوة الكعبة المشرفة.

وقد هز المنظر ضابطًا من المسلمين الأوزبكيين وهم الذين نسميهم هنا بالبخاريين وهم أهل هذه البلاد فقدم عشرة روبلات تبرعًا لنا أيضًا وهي تساوي أكثر من راتب يوم له إذْ راتبه بين ٢٥٠ و ٣٠٠ روبل في الشهر.

ثم دخلنا إلى الطائرة السوفيتية النفاثة وهي ضخمة من طراز اليوشن٨٦ وتحمل (٣٥٠) راكبًا وهي مؤلفة من طابقين في الأسفل مخازن للامتعة أيضًا ويضعها أربابها فيها كما يضع الإنسان أمتعته في غرفة بيته، ولايحملها الحمالون كما لاينزلونها، وليست مستودعات يغلق عليها كما تفعل الطائرات العالمية.

وقد أبطأت الطائرة في التحرك بعد أن أخذنا أماكننا فيها وهذه عادة لهم شائعة عانينا عنتا منها وبخاصة في الطائرات الصغيرة بسبب الحرفي آسيا الوسطى وعدم وجود تكييف أو مراوح أو حتى مجاري هواء تأتي مع الصمامات كما هي العادة في الطائرات الصغيرة إلا أننا في هذه الطائرة الكبيرة لم نشعر بالحر قبل التحرك ربما كان ذلك لارتفاع سقفها ارتفاعًا زائدًا عن الحد في الطائرات حتى كأنك في غرفة عالية السقف.

وقد أركبونا فيما سموه الدرجة الأولى وذكروا أنها لإركاب الوزراء ونحوهم.

وتزيد أجرتها عن الدرجة الأخرى المعتادة فهذه الأولى اجرتها (٨٥) روبلاً ويساوي ذلك بالصرف التشجيعي للسياح ١٣ دولاراً أمريكيًا أما الأخرى فأجرتها ٦٠ روبلاً ويعادل أقل من عشرة دولارات أمريكية.

ومعلوم أن القيمة المصرفية للروبل قد انخفضت الآن في داخل الإتحاد السوفيتي وأما في خارجه فإنه لايساوي شيئًا بمعنى أنه لايقبل أحد أن يصرفه لأن حكومة الإتحاد السوفيتي تمنع الخروج به من البلاد أو إدخاله إليها وهي صارمة في تطبيق ذلك.

وأذكر أنه في زيارتنا الأولى للإتحاد السوفيتي بقيت روبلات مع بعض الرفقاء فأراد صرفها في بولندا فلم يقبلوها مع أنها بلاد مجاورة وترتبط مع الإتحاد السوفييتي بأربطة تجارية قوية وقال البنك الذي عرضوا عليه ذلك: إننا نستيطع أن نصرف لكم الريال السعودي إذا كنتم تحملونه.

ولم يكن هناك سعر تشجيعي للدولار بالنسبة للسياح في ذلك الحين وإنما عليهم أن يصرفوه بالسعر الرسمي وهو ثلثا روبل للدولار الواحد أو بالسوق الحرة إذا استطاعوا وسعره أربعة روبلات.

أما الآن فالسعر التشجيعي الرسمي للسياح قد حددته الدولة بستة روبلات وشيء من الروبل، والسعر في السوق الحرة بخمسة عشر روبلاً.

نصر جديد أو شيء جديد :

من الأمور الجديدة المفرحة في هذه الرحلة أن المضيف عندما تكلم من مكبر الصوت في الطائرة بدأ كلامه بقوله: السلام عليكم، ثم ذكر مايريد قوله من البيان عن الرحلة وعن الطيارين والمضيفين والعاملين في الطائرة وتبين أنهم كلهم من الأوزبكيين المسلمين، ثم ختم كلامه بقوله: (رَحْمَت) وهي تعني (شكراً) بالأزبكية وهي من كلمة الرحمة العربية وهذه هي الشائعة لكلمة الشكر عندهم في تركستان الغربية هذه وعند أبناء عمومتهم في تركستان

الشرقية يستعملونها بمفردها (رحمت) في بعض الأحيان وقد يقولون بديلة عنها: (عشق النبي).

ثم تكلم المضيف باللغة الروسية ولاكلام في لغة غيرهما.

وكانت عادتهم أن يتكلموا في الطائرات بالروسية فقط في جميع أنحاء الاتحاد السوفيتي هكذا كانوا وكذلك سمعناهم عندما ركبنا من هذا المطار بالذات ومن مطارات أخرى غيره داخلية في هذه البلاد الأوزبكية أو إن شئنا الشمول قلنا: البلاد التركستانية.

أما الركاب فإنهم كلهم من البيض من روس وأوكرانيين ومن تركستانيين تعرفهم بالقلانس (الطواقي) الخاصة بهم التي يضعونها على رؤوسهم وذلك قبل أن تتعرف عليهم من قسمات وجوههم التي لاتخفى.

وفي الركاب من الضيوف الأجانب نحن السعوديين الأربعة ونحن في الوان التركستانيين وخمسة من الإفريقيين السود ذكروا أنهم ضيوف على هذه البلاد.

إلى موسكو :

نهضت الطائرة وهي تزمجر بحملها الثقيل في الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة ضحى متأخرة (١٠) دقائق عن موعدها المحدد، وذلك لايعتبر تأخيراً وسرعان ما استوت في الجو، وهدأت زمجرتها قليلاً، والطائرات الروسية النفاثة هذه من أكثر الطائرات النفاثة هدوءاً في طيرانها في الجو، فهي أفضل من البوينج الأمريكية في هذا الأمر، وأما الحافلة الجوية الأوروبية فإنها معروفة بشدة الاضطراب في الجو.

وأعلنوا أن الطيران إلى موسكو سيستغرق أربع ساعات إلا ثلثا دون توقف.

ثم أخذت المضيفات يسعين بالضيافة وهن عابسات الوجوه إذْ ليس من عادتهن الإبتسام للركاب إضافة إلى أن الابتسام قليل في الإتحاد السوفيتي فيما يراه السائح الأجنبي ظاهراً على وجوههم وإنما اكفهرار الوجوه هو الغالب عليهم وذلك فيما عدا الإخوة المسلمين خارج المدن.

وقد ألقين بالضيافة أمامي كما يفعل من هو كاره لعمله أو كاره للشخص الذي يقدم إليه الضيافة، وذلك في صحن من اللدائن غير لامع فيه رجل دجاجة وأصبع سجق من لحم الخنزير وقطعة معجونة كالكيك ذكر الإخوة أنها يدخلها دهن الخنزير فكان كل ذلك الطعام حرامًا وحتى الدجاج لايذبحونه الذبح الشرعي ومع الطعام قطعة واحدة من الخبز المسمى (التوست) واحدة لاتزيد مع أن العادة في طعام الإفطار أن يقدم للشخص اثنتان وأما في الطائرة فإنه لايكتفي بهذا النوع من الخبز بل يكون معه نوع آخر.

ولم يحضروا زبدة وإنما أحضروا مربى محفوظا لم نستطع فتحه وقال من ذاقوه إن طعمه ليس جيداً ، ومع ذلك كأس وضعوا فيه بعض الشاي.

وهذا الطعام هو كل ماقدموه في هذه الرحلة الطويلة وهو غير كاف بالنسبة لمن يأكلونه أما من يكونون مثلنا فإنه كما في حديث أم زرع (لحم جمل غث على جبل وعر) مما ذكرني برحلة كنت فيها قبل ربع قرن مسافراً من كنشاسا إلى نيروبي وقدمت المضيفة وهي زائيرية ونساء زائير مشهورات بعدم الجمال وكانت عابسة وضيافتها كانت لحم خنزير.

ومن الطريف في عنايتهم بالراكب أنهم عندما سكبوا الشاي في فناجين الركاب أخذت المضيف تمر بماء ساخن عليهم تسكبه على الشاي لمن أراد منهم أن يخفف الشاي أو يكثره.

ولم أر أحداً من مرافقينا شكا كما أن غيره من المواطنين لم يكونوا يشكون حتى مما لايمكن السكوت عليه عندنا لأنهم لو شكوا من ذلك لشكوا من جميع شئون حياتهم التي تبين أنها أسوأ من حيوات الشعوب في البلدان النامية.

ولم نكن تتصور ذلك قبل أن نعرف الإتحاد السوفيتي على حقيقته لأنه كان بلاداً مغلقة لايعرف الناس عن أكثر الأمور فيها شيئًا ، ولذلك عندما قال نيكيتا خروشوف زعيم الإتحاد السوفيتي بعد ستالين إننا سنلحق بالغرب في مستوى المعيشة بعد عشر سنين عجبنا لذلك فقد كنا نظن أن مستوى المعيشة

في الإتحاد السوفيتي لايقل عن مستوى المعيشة في البلدان الغربية لأنه كان في الميزان العسكري كذلك أو هكذا أظهره الغرب من أجل الاستعداد لمنازلته إن حدثت بين الفريقين منازلة حربية.

ولاشك في أن الإتحاد السوفيتي قد واجه التحدي العسكري الغربي بقوة ونجح في ذلك ولكن ذلك كان على حساب معيشة عامة الشعب الذي لم يستطع أن يرتقى به إلى المستوى المعتاد في البلدان المتحضرة.

أمثلة سؤ :

والأمثال على سؤ الحال في موسكو خاصة وفي الاتحاد السوفيتي بعامة كثيرة منها أن بلدية موسكو قررت عدم بيع الطعام للشخص الذي لايحمل بطاقة تثبت أنه من سكان موسكو، ويعللون ذلك بقولهم: طعام أهل موسكو لأهل موسكو وعلى من يأتي إليها من خارجها من أنحاء الإتحاد السوفيتي أن يحضر طعامه بنفسه، أو يشتريه من السوق السوداء بأسعار عالية، أما بالنسبة إلى الضيوف الأجانب فإن الأمر بالنسبة إليهم يكون أصعب إذا لم تكن هناك جهة رسمية أو لها علاقة بالجهات الرسمية تتولى الحصول لهم على مكان في فندق وعلى طعام في المطاعم.

وبالنسبة إلينا فإن الأمر كان سهلاً، إذْ كفانا مضيفونا وهم أهل الإدارات الدينية هذه المهمة جزاهم الله خيراً.

ومن الأمثلة على ذلك منظر صوره أحد الإخوة ورأيناه عند وصولنا إلى موسكو من دمشق وهو منظر طابور أي صف طويل من الناس يمتد من عند الإسكافي وهو الشخص الذي يصلح خلل الأحذية، بمعنى يرقعها أو يخيط الفتق فيها، أو حتى مجرد أن يضع فيها مسماراً من المسامير، وقد امتد هذا الطابور من عنده حتى وصل الشارع ثم انحرف جهة الرصيف وامتد مع الرصيف.

وهو صف مألوف من الصفوف الكثيرة التي يعاني منها سكان الإتحاد السوفيتي في كل أمور حياتهم.

ومن غرائب الأمثلة في هذا الصدد أن الحلاقة بالموسى ممنوعة في موسكو الآن وذلك لكون البلاد ليس فيها كفاية من الأمواس بحيث يخصص لكل حالق موسى واحدة توضع فوق موسى الحلاق كما يفعل الناس في البلدان الأخرى ومنها بلادنا على سبيل المثال.

وإذا حلق الحلاق بالموسى أكثر من شخص واحد كان ذلك عرضة لانتشار مرض (الايدز) الذي هو نقص المناعة المكتسب الذي لادواء له.

وهناك أشياء كثيرة في موسكو تباع بالبطاقة مثل السكر والصابون والألبسة فلا يحق لأي شخص أن يشتري مايريد شراءه من المحلات العامة التي هي مملوكة للدولة وتبيع بأسعار محددة رخيصة وإنما يمكنه أن يشتري ذلك من السوق السوداء إذا أراد وكان معه ما يشتريها به من نقد أجنبي أو من نقد محلي كبير وأكثر الناس لايستطيعون ذلك بطبيعة الحال.

وعلى ذكر الطوابير وصفوف الإنتظار من الوقوف في الإتحاد السوفيتي راجت هذه النكتة التي تقول:

إن سكان أحد المساكن لم يكن لهم إلا حمام واحد، وكان عند أحدهم ضيف أراد الحمام مثلهم فصعب على مضيفه أن يعاني ضيفه الوقوف في الصف فطلب من جيرانه الذين كانوا قد وقفوا في طابور أمام الحمام كل ينتظر دوره في دخوله أن يؤثروا الضيف بالحمام بأن يسمحوا له بالتقدم في الصف والدخول إلى الحمام قبلهم!!

ولهذه الأسباب وغيرها قرروا التخلي عن الشيوعية المتزمتة والرجوع عن الإقتصاد الذي تهيمن عليه الدولة في كل شيء حتى قلت السلع والبضائع التي يحتاجها الجمهور وبعضها فقدت تمامًا من السوق.

وكلهم يؤمل خيراً من مساعي الرئيس جورباتشوف في الإصلاح الذي يتخلى عن الشيوعية ويرجع إلى اقتصاد السوق الحر ولكنهم يقولون: إن ذلك يحتاج إلى فترة انتقالية لابد أن يعاني الشعب فيها متاعب جمة لاسيما ذلك النوع من الناس الذي اعتاد في ظل الاقتصاد الشيوعي أن يعتمد على الدولة في كل شيء وألاَّ يبذل جهداً في الحصول على الضروريات الحياتية مثل الحصول على مسكن رخيص ووقود رخيص من الدولة، وإن كان الحصول على المنزل متعبا في أول الأمر فإنه يكون كمن ملكه على ضيقه ولكن بثمن بخس.

عودة إلى الحديث عن الطائرة :

ومن عادتهم أن يكثروا من اطلاق الموسيقى الروسية المسجلة في الرحلات الكبيرة هذه من مكبر الطائرة فيسمعها حتى من لايريد ذلك، وليسوا كالشركات العالمية ومنها السعودية يعطون الراكب مسماعًا يستمع من خلاله إلى الموسيقي إذ تكون الموسيقى فيها منوعة كما تفعل في طائراتنا، وتكون فيها قنوات للموسيقى العالمية وللموسيقى الراقصة وللغناء العربي والغناء المحلي، وقناة للاستماع إلى القرآن الكريم.

ودخلت حمام الطائرة القريب من هذه الدرجة التي أسموها الأولى فلم أجد فيه مناديل ورقية وليس فيه مناشف إلا ورق خشن وليس فيه إرشادات مكتوبة بغير الروسية فلم يكتبوا الإنكليزية تحتها وليس فيه زجاجات عطر، ولذلك تفوح منه رائحة غير محببة، لاسيما وأن الماء في الحوض لايجرى فيه شيء كثير.

وليس في مقاعد الطائرة خزانات فردية للأوكسجين ولا نور فردي للراكب ولازر استدعاء المضيف أو المضيفة.

وأوقفوا الموسيقى الروسية بعد الطعام فنام الجميع.

فوق موسكو :

قبل الوصول بنصف ساعة أعلنوا قرب الهبوط وذكروا أن درجة الحرارة في

موسكو هي ١٦ درجة مئوية وهذا أمر فرحت به لأننا كنا قد تعبنا من الحر في آسيا الوسطى ففي خوارزم وبخارى مثلاً لم نشعر أن الحر يقل فيها عن بلادنا حتى في الأمسيات.

وكانت منطقة موسكو كما عهدناها في هذا الفصل الصيفي خضراء كثيفة الاخضرار حتى لاترى بقعة فيها خالية من الخضرة.

وهي خضرة حقول من حقول الشعير المزروع لعلف الدواب، وفي حقول من البطاطس وهذا أكثر ما تنتجه وسائر ما تحتاجه من الأغذية والفاكهة يجلب إليها من خارج منطقتها ولاسيما المناطق الإسلامية في آسيا.

وذلك بالإضافة إلى خضرة الاعشاب الكثيفة الملتفة.

وزاد المنظر جمالاً نهر يتلوى بين هذه الجنان السندسية وتنعكس الشمس على مواضع منه فتبدو مياهه في لون الفضة الناصعة.

وهناك غابات من أشجار الأخشاب خضراء ملتفة بل مغلقة الخضرة فيما بينها ولاسيما في الأماكن الوعرة غير المستوية وفي المرتفعات من الأرض.

وتتخلل ذلك بحيرات عدة لاتكاد تخلو منها منطقة فيها.

وهذا الجمال الذي رأيناه في هذه المنطقة (المسكوفية)- نسبة إلى منطقة موسكو التي ينطقون بها (موسكوفا) وليس كما كان يفعل آباؤنا واجدادنا حين ينسبون الروس كلهم إلى موسكو فيسمونهم (المسكوف).

وذلك كله مؤقت بل يكون في وقت قصير من السنة بالنسبة إلى الوقت الطويل الذي تصبح فيه الأرض جرداء عارية عن النبات تماماً، وتكون فيه الأشجار رمادية كأنها لاعهد لها بالحياة حين يستحكم البرد الشديد ناهيك بالثلج وزمنه المديد.

وترصع هذه المساحات الخضرة النضرة قرب موسكو عمارات (أبنية) سكنية متعددة الطوابق مما تبنيه الدولة لإسكان الناس لأنها التي تكفلت ببناء المساكن للمواطنين كلهم.

الهبوط في موسكو :

هبطت الطائرة في مطار (ميامـا ايدومـا) أحد مطارات مـوسكو الثـلاثة وهو بمثابة بوابة موسكو إلى بلدان الجنوب داخل البلاد ومنهـا المناطق المسلمـة في آسيا الوسطى ويبعد عـن موسكو (٦٥) كيلو متراً جهة الجنوب وكـان هبوطها في الساعة الثـانية عشرة إلا خمس دقـائق بتوقيت موسكو الصيـفي الذي يتأخر عن توقيت طشقند التي أقلعت منها بساعتين.

وهو متـقـدم على توقيـت بلادنا بسـاعـة واحدة لأن توقـيت مـوسكو المعـتـاد مطابق لتـوقـيت المملكة العـربيـة السـعودية ومتـأخر عن تـوقـيت طشـقـند ثلاث ساعات.

وقد ذكروا بعـد الهبوط وقبل وقوف الطائرة أن درجة الحرارة في موسكو الآن هي ١٨ إذْ زادت درجتين منذ إعلانهم الأول.

وكـان الجـو صـاحيًا مشـمسًا يكاد يشبه جو الرياض في آخر الشتـاء ولذلك ازدانت البسط السندسية التي تحيط بمدارج المطار بأزهار صفر من أزهار الربيع البرية العفوية التي قد تفتحت وكأنما هي تبتسم لتعوض المسافرين عما فاتهم من ابتسام الآدميين.

وقـفت هذه الطائرة الضخمـة التي رفعوا من سقفهـا أكـثر مما يحـتاجه الراكب فصار كل شخص يحمل أمتعته من الطائرة بيده وينزلها منها.

وذلك أن مخزن الأمتعة مفتوح في الطابق السفلي من الطائرة الذي يمر به الركاب.

ولم يكن هناك حمالون لامن موظفي المطار ولامن غيرهم.

غير أن معظم الركاب كانت أمتعتهم خفيفة يحملونها بأيديهم ولاشك في أن مرجع بعض هذا إلى دخولهم المحدودة كما يرجع بعضه إلى معرفتهم بما يسببه لهم حمل الأمتعة الثقيلة من متاعب و(العربان في القافلة مرتاح) كما تقول العامة في مصر.

أما نحن فكنا بعكس ذلك إذْ نحمل أمتعة كثيرة من الهدايا المخصصة لأهل موسكو ولأهل جمهورية تتارستان كما نحمل هدايا ثقيلة مما أتحفنا به إخوتنا في آسيا الوسطى وقبلها في جمهورية باشقردزستان أو جمهورية البشكير باللفظ الآخر.

ولذلك لم نعرف مانفعله، ووقفنا حائرين فترة من الوقت ننتظر أن يحضر ممثل مكتب العلاقات الخارجية للإدارات الدينية في موسكو لأنهم أخبروه بأننا سنصل فوقفنا في شمس موسكو الحارة حتى نهاني أحد الإخوة من أهل الإتحاد السوفيتي عن الوقوف فيها وقال هي حارة وينبغي أن تذهب عنها إلى الظل.! وهذا من الأمر عجيب.

ثم حضر مندوب من مكتب العلاقات الخارجية ومعه سيارتان من المكتب فصار يجاهد مع مرافقنا الشيخ (عبدالحميد بن محمد حسين) وعاونهم الإخوة في وفدنا على حمل الأمتعة إلى السيارة.

في مدينة موسكو ثانية :

والمقرر أن نظل هذه المرة في موسكو مدة أطول من الأولى لأننا كنا منذ أيام مررنا بها مروراً كما تقدم.

سرنا من مطار (ميامـا ويدوما) الذي يبعد ٦٥ كيلو متراً عن موسكو، بل قالوا إنه يبعد ٧٠ كيلو متراً عن الفندق الذي سنقيم فيه في ساحة كييف من المدينة.

وكان الطريق ردىء الزفلتة مليئًا بالحفر والنقر حتى كان السائق وهو روسي غير مسلم يهز رأسه علامة الأسف عندما تتحرك السيارة حركة غير مناسبة بسبب بعض هذه الخروق في الازفلت ويشق الطريق ريف أخضر بالغ الخضرة مثل بقية أنحاء المنطقة الروسية وتحف به في بعض الأحيان غابات من الأشجار الخضر الملتفة.

ولم تكن في مسافة طويلة منه أية منازل، وذلك لعدم السماح للمبادرات الشخصية ببناء المنازل الخاصة أو التجارية.



التقطت هذه الصورة لأحد شوارع ضاحية مدينة موسكو من داخل السيارة

ثم وصل الطريق أطراف مدينة موسكو وهنا اتسع وحسنت حاله، ولكنها لاتصل به إلى أن يوصف بأنه طريق جيد بالنسبة إلى هذه المدينة التي يسكنها ثمانية ملايين إنسان، وتعتبر عاصمة الدولة التي تملك أكبر جيش تملكه دولة بمفردها في العالم كله.

وعلى هذا الطريق في أطراف موسكو منازل منفردة قديمة وأبنية متعددة الطوابق كبيرة مؤلفة من شقق سكنية صغيرة.

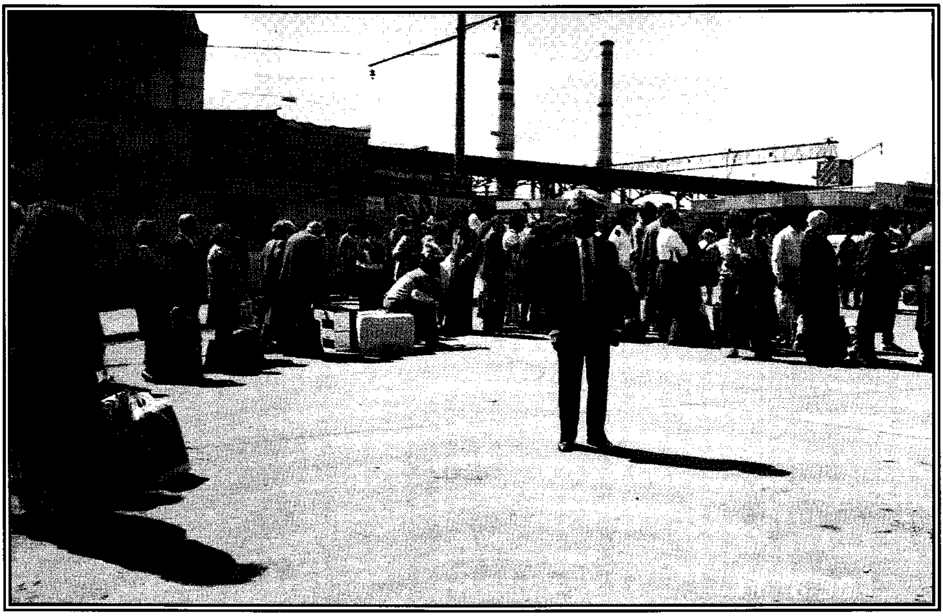
ثم دخلنا مدينة (موسكو) ولم تكن السيارات فيها بالصفة من الكثرة التي تكون في ذهن من بتصور الناس والسيارات في عاصمة هذه الدولة الكبيرة، بل هي أكبر دول العالم مساحة على الإطلاق ويكفي أن تعلم أن الإتحاد السوفيتي يشغل مساحة من الأرض اليابسة تعادل سدسها.

وقفنا عند فندق سيئ المظهر بابه صغير حقير، وهو رث بعيد العهد بالترميم وأمامه حوض من الاسمنت أو الجبس لإلقاء المهملات قذر، بل هو لقذارته يستحق أن يرمى في المهملات لا أن ترمي المهملات فيه ولكنه ثقيل الوزن مثل كثير من المسنين في هذا البلاد الروسية.

دخل الإخوة المرافقون إلى الفندق فأردنا أن ندخل معهم فمنعنا رجل كالشرطي واقف ببابه وقال لنا إخوتنا: إنه لايجوز لكم الدخول الآن لأنكم لم تصبحوا من نزلاء الفندق بعد، وهذه عادة لهم قديمة أذكر مرة قبل هذه أن المطر كان ينزل في موسكو وبواب الفندق قد منعنا من الدخول حتى يكمل مرافقونا الإجراءات وهي بطيئة وتتم في الغالب في هذه الفنادق غير الفاخرة باليد وقد كان البرد آنذاك شديداً ولكن ذلك لم يشفع لنا بالدخول.

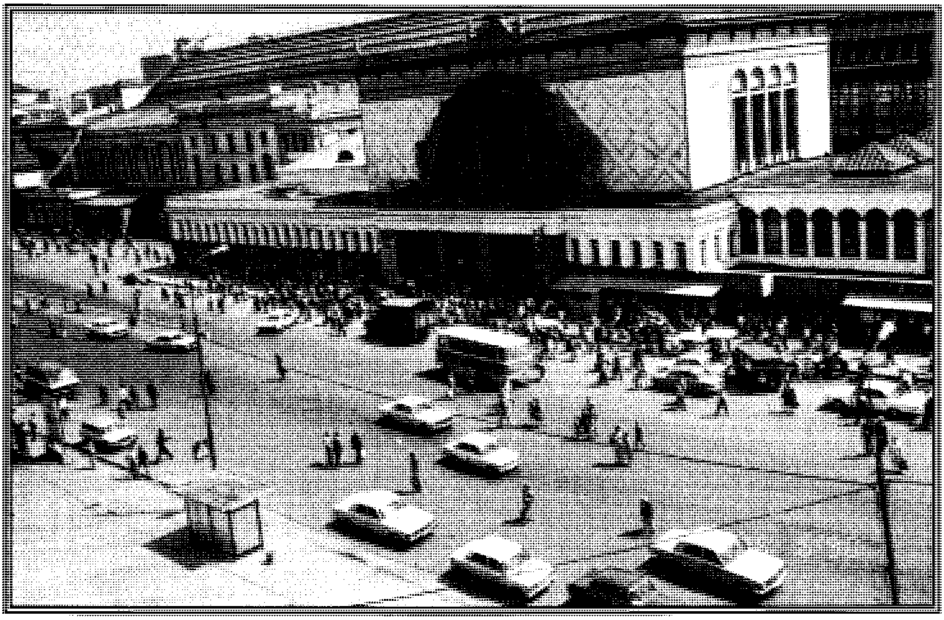
فوقفنا عند أمتعتنا نرقب الذاهبين والآيبين في هذا الميدان الذي يقع عليه الفندق ويسمى (ميدان كييف) إضافة إلى محطة (كييف) للقطارات التي تنطلق منها القطارات إلى مدينة كييف عاصمة أوكرانيا وتعود إليها.

وكنا نظن أن نكون موضع استغراب الناس أو حتى موضع نظراتهم النظرات المجردة لكوننا غرباء غير أننا لاحظنا أن الناس كانوا ينظرون إلى جهتنا بالفعل ولكنهم لم يكونوا ينظرون إلينا وإنما ينظرون إلى أمتعتنا الكثيرة المتنوعة التي تتسم بالغرابة بالنسبة إليهم وربما يكون مع النظر اليها الحسد لاربابها، لأنها تدل على السخاء والغنى بالنسبة لما ألفوه من أمتعة محدودة النوع والمقدار تحت ظل الشيوعية، وذلك لكون الفندق لم يسمح بإدخال أمتعتنا أيضًا مع أن بإمكاننا إذا لم ننزل في الفندق أن نخرجها منه.



المؤلف بجانب الطوابير الطويلة في انتظار الحافلات في ميدان كييف في موسكو

قد مللنا الوقوف عند امتعتنا خارج الفندق في هذا الميدان، إلا أننا عندما رأينا طوابير الناس الذين خرجوا من المحطة وقد قدموا بالقطارات أو الذين جاؤا من جهات أخرى وكلهم واقف في انتظار الحافلات التي تنقلهم إلى الأماكن التي يريدونها هان علينا وقوفنا إذْ كانوا كثرة كاثرة وفي عدة صفوف كل صف أو صفين ينتظر حافلة واحدة يعجب مثلنا لاتساعها لهم ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك، وإنما تأتي الحافلة فيركب فيها من ركب ممن هم أقرب إليها حتى إذا امتلأت سارت دون أن تأخذ بقيتهم فينتظرون حافلة أخرى وهكذا.



صورة التقطها المؤلف لمحطة كييف من نافذة غرفته في الفندق

والحافلات كثيرة ولكن الناس كثير وبعضها يتأخر عن موعده، إلا أنهم قد اعتادوا على ذلك أو عرفوا أنهم لايستطيعون أن يفعلوا شيئًا نحوه.

أما المارة من أمامنا فإنهم كثر أيضًا لأن المنطقة مهمة وفي وسط موسكو والغريب أني لاحظت أن أكثرهم يبين على وجوههم نقص التغذية بمعنى أنها ليست مليئة بالدم، أو هذا ما خيِّل إليَّ.

غير أنه ما أن يمر بنا سياح ويمكن معرفتهم بسهولة من أمتعتهم ومن حديثهم بغير الروسية حتى أرى الفرق واضحًا من كونهم تبين عليهم التغذية الجيدة وتترقرق الدماء القوية في وجوههم.

وحتى الملابس هنا أكثرها إن لم نقل كلها تعتبر من الملابس الرخيصة وقل أن ترى فيها لباسًا جيداً أو غالي الثمن كما تراه في البلدان الأوروبية الحرة كفرنسا.

فندق كييف :

سمي بذلك لوقوعه على ميدان كييف، وهو فندق قديم أكثر ما فيه قد فسد ولم يصلح إلا اصلاحًا يبدو كأنما هو مؤقت مثل الأسلاك الكهربائية الخفية التي تفسد فيضعون بديلاً عنها أسلاكًا ظاهرية.

ولم نستطع الوصول إلى المصعد لكي نصعد إلى غرفنا إلا بعد أن رأى حارس صارم النظرات كأنه الضابط البطاقة التي نحملها، ولم يقتنع حتى بكلام الإخوة المرافقين.

ومصعد الفندق مثال على الفندق نفسه فهو يصدر أصواتًا عند الحركة شبيهة بالأصوات التي تصدرها السيارات العتيقة التي تسير على أرضه صلبة غير معبدة.

انزلوني في غرفة مؤلفة من جزئين (اسويت) الجزء الداخلي منهما فيه سريران ضيقان متباعدان وخزانة خشبية للملابس رديئة الصنع ولكن خشبها جديد وليس كباقي الفندق والجزء الآخر وهو الأمامي من الغرفة للجلوس، فيه عدة مقاعد جيدة وخزانة كخزانة التحف فيها بعض التحف الزجاجية الرخيصة.

وأكثر مافي هذه الغرفة وأفضله عندي اتساع نوافذها وكونها من زجاج شفاف وعليها ستائر وبين الغرفتين أو الجزئين من الغرفة باب يغلق جيداً.

والفندق كبير من الداخل بمعنى أن غرفه كثيرة وإن لم تكن واسعة ولكل طابق فيه كاتبة من الروسيات المسنات الثقيلات الأوزان، كما هي العادة في أكثر الفنادق التي نزلنا فيها في الإتحاد السوفيتي.

وكنت بحاجة إلى فنجان من الشاي ولفظه باللغة الروسية قريب من لفظه بالعربية إذ كلتا اللغتين اخذته من الصينية فطلبت من العجوز أن تحضر لي شايًا فأجابت إلى ذلك بالإشارة لأنها لاتعرف شيئًا من اللغات الأخرى.

وقد أبطأت قبل أن تحضره في ابريق من الخزف الأخضر الثقيل ولم تطلب له ثمنًا ولم تحضر ورقة أوقع عليها ولا أدري السبب وقد كافأتها بعد ذلك بثلاثة

روبلات وتساوي نصف دولار بالسعر التشجيعي الذي يصرف به (البنك) الحكومي الدولار للسياح من أجل أن تسرع في احضار الشاي إليَّ إذا طلبته فتعجبت من ذلك وبان أنها لم تكن تنتظر الحصول على مثل هذا المبلغ الذي يساوي راتب يوم واحد لها وهو يساوي بالنسبة إليَّ أقل من ريالين بالصرف المذكور أو أقل من ثلثي الريال في الصرف الحر للدولار الذي لاتجيزه الدولة ولكنه يتم في الفنادق والمحطات بطريقة تشبه الطريقة العلنية لاسيما إذا كان أحد الصارفين من الأجانب.

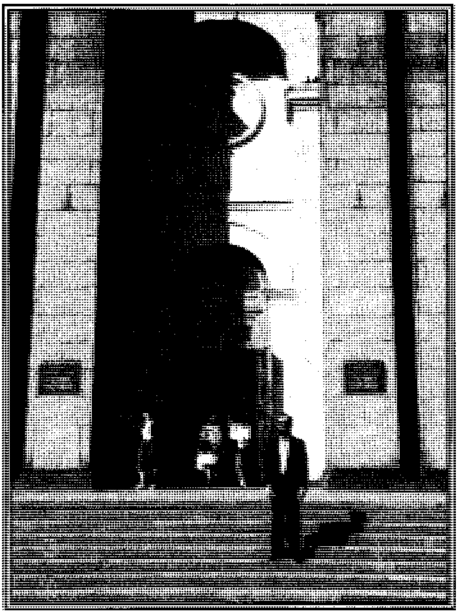
وشربت الشاي مع إطلالة على ميدان (كييف) المهم الذي لايعدم المرء أن يرى فيه أفواج المسافرين المغادرين أو القادمين، وتطل الغرفة بعده على الجزء المهم من مدينة موسكو ومنه مقر رئيس وزراء جمهورية روسيا الإتحادية وهو حاليًا بوريس يلتسين كما ترى منه فندق أوكرانيا الكبير.

فندق اوكرانيا:

بعد استراحة في فندق كييف حملتنا السيارتان اللتان خصصهما الشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية في القسم الأوروبي من الإتحاد السوفيتي وسيبريا إلى فندق أوكرانيا الكبير ولايبعد عن فندق كييف هذا إلا حوالي كيلو متر واحد أو نحوه. وكان اخبرنا أن اقامتنا ستكون في فندق كييف والطعام كله في فندق أوكرانيا وذلك لكونهم لم يجدوا لنا غرفًا في فندق أوكرانيا.

كان معنا مرافقان ووجدنا الثالث ينتظرنا عند باب الفندق فصحبنا إلى مائدة طويلة ذكر الموظفون أنها محجوزة لنا.

ووجدنا مقدمات المائدة موضوعة وفيها كافيار وهو البطارخ أو بيض السمك وهو أحمر اللون كبير وليس هذا بالنوع الغالي من الكافيار ذاك هو الأسود الشهير وكانوا يقدمونه لنا في كل الوجبات في زيارتنا السابقة للإتحاد السوفيتي قبل أربع سنين أما في هذه المرة فلم يقدموه وذلك لغلائه ولانتشار تهريبه وبيعه في السوق السوداء تبعًا لتراخي الإدارة السوفيتية عن الشدة في تطبيق العقوبات على من يخالفون الأنظمة الاقتصادية الشيوعية وذلك لكونها الآن تعيد النظر في تلك الأنظمة.



المؤلف امام مدخل فندق « أوكْرانِيا» بمدينة موسكو

كما وجدنا على المائدة زجاجات الماء المعدني وعصير الفاكهة والكوكاكولا والزبد وبعض الخبز ثم جاءت المائدة والطبق الرئيسي فيها دجاج لم نأكله لعدم ثقتنا بذبحه كما أننا لانحب الدجاج وجاؤا لمن لايريد الدجاج بسمك مشوي وختام المائدة كان (آسكريم) جيداً ثم قهوة.

المجمعات الإستهلاكية :

يسمون الحوانيت الكبيرة وهي الدكاكين الحكومية بالمجمعات الحكومية وبالمخازن الحكومية وهذه تسمية صحيحة وهي أصح من قولهم عنها : المجمعات التجارية لأنه لاتجارة هنا إلا من جانب الدولة، فهي تبيع على الناس فقط ولكنها تشترى ذلك من المصانع والمؤسسات الحكومية الأخرى المكلفة بتوفير السلع للشعب ولاتطلب الربح منه وإنما تكتفي بتوفيره لأبناء الشعب.

وكنا بعد الغداء طلبنا أن نسير إلى فندقنا على اقدامنا لنتمكن من رؤية المنطقة والمتاجر وتصرفات الناس.

فأعجبتنا المنطقة التي تقع بين الفندقين وبخاصة ماكان منها قريبًا من فندق أوكرانيا فأبنيتها نظيفة وحالتها جيدة والأرصفة فيها واسعة والسيارات لابأس بها عدداً. وهناك نفقان يقطعان الشارع الرئيسي لئلا يتعرض من يريد قطع الشارع لأذى السيارات فيه.

ثم دخلنا مجمعًا أومتجراً حكوميًا ومهمته البيع فقط كما قدمت وكان معنا أحد الإخوة المرافقين من أهل البلاد ويعرف اللغة الروسية، فعجبت أولاً لصغرها مع سمعتها في البلاد ورأينا أكثر أماكن البضائع أو لنقل المواد خالية لأنهم كانوا كتبوا بالروسية وحدها على مكان الدجاج -مثلاً- بأنه دجاج والصابون والملح واللحم وذلك أنها أشبه بالمخازن، فإذا جاء المشترى ولم ير في مكان الشيء الذي يريده شيئًا اشترى غيره أو ذهب يبحث عنه في مجمع حكومي آخر إن ظن أنه يجده.

وعجبت ثانيًا لقلة المعروضات فيها وذكرت حوانيت بيع الاطعمة والمأكولات في المدن الصغيرة في بلادنا التي لايزيد سكانها على مائتي ألف نسمة مثلاً فوجدت أنها أكبر من هذه عدة مرات.

وهي بالعشرات وهي مكتظة بالبضائع التي يختار منها المشتري ما يشاء.

ناهيك بالمخازن والمحلات التجارية الضخمة في المدن الكبيرة في بلادنا مثل الرياض وجدة.

والبضائع الباقية في هذه المحلات رخيصة جداً، وبخاصة بالنسبة لنا الذين نصرف الدولار بسعر جيد بالنسبة إلى الروبل، ولكن أكثر الأشياء غير جيدة فمثلاً لحم البقر يباع فيها الكيلو الواحد بروبلين اثنين وهي محدودة المقدار بالنسبة للمشتري فمثلاً لحم البقر لايستطيع الشخص أن يشتري منه في هذه المتاجر الحكومية أكثر من كيلوين اثنين في الشهر، لأنه يباع بالبطاقة فإذا لم يكن الشخص حاملاً بطاقة تتيح له شراء اللحم لم يبيعوا له.

ورأيت طائفة منهم من كبار السن يقتصرون على شراء علبة من الحليب أو قطعة من الجبن لأن دخولهم لاتتيح لهم أن يشتروا مقادير كبيرة.

ورأينا في عدد من هذه المحلات اعلانًا يقول: يجب أن يتذكر المواطنون أن بيع السكر سيكون بالبطاقة ابتداء من ١ يوليو وأن الشخص لايستطيع أن يشتري منه أكثر من كيلوين اثنين في الشهر.

والعاملون والعاملات في هذه المتاجر لايعرفون الابتسام أومجاملة المشتري في العادة وإنما هم يؤدون عملهم وكأنهم الآلات.

ثم عدنا إلى فندقنا فندق كييف وذلك من أجل الراحة والصلاة ونسيت أن أذكر أن العجوز المكلفة بإدارة شئون الطابق الذي نحن فيه من الفندق كانت تكتب اسماء النزلاء كلهم في دفتر كبير لديها فإذا ما أراد الشخص أن يأخذ منها مفتاح الغرفة بحثت عن اسمه في هذا الدفتر فإذا وجدته أعطته المفتاح وتطلب من الجميع أن يعطوها المفتاح عند مغادرة الطابق وقد وضعوا في الطابق مقاعد لخمسة أشخاص أو ستة حول مائدة منخفضة أما بهو الاستقبال في الفندق فإنه ليس فيه إلا مقعد كبير واحد يتسع لثلاثة أشخاص ولذلك لايخلو من واقف أو واقفين، وبعضهم يجلسون على أفاريز النوافذ إذا تعبوا من الوقوف.

وقضينا الوقت بعد ذلك في مراقبة الناس والاستراحة.

عشاء مع أعضاء مجلس الشعب :

وفي التاسعة تناولنا العشاء في فندق أكرانيا المعهود مع الشيخ طلعت تاج الدين وعدد من الشخصيات من المسلمين منهم رئيس اللجنة الثقافية في برلمان روسيا أي في مجلس الشعب في جمهورية روسيا الإتحادية التي عاصمتها موسكو والتي خصصت كتابنا هذا للحديث عنها، وحضر العشاء أيضًا خمسة من أعضاء البرلمان المسلمين من جمهوريتي تتارستان وبشكيريا اللتين تتمتعان بالحكم الذاتي كما حضر الحفلة بعض وجهاء العرب ومنهم الأخ طارق بن لادن والأخ المنصف القليبي من منظمة المؤتمر الإسلامي وغيرهم.

وكانت فرصة طيبة للحديث مع هؤلاء المسلمين المثقفين بغير الثقافة الإسلامية لأن الشيوعية حاربت الثقافة الإسلامية وصرفت المسلمين عنها على اعتبارانها ثقافة دينية غير مستساغة في مذهبهم الالحادي فذكرناهم بأصولهم الإسلامية، وانهم منحدرون من حضارة كانت مشرقة مزدهرة وقت أن كان الشعب الروسي ليس لديه حضارة ولا دين.

كما اعطيناهم الدليل على ذلك في الكاتب ابن فضلان الذي وصل إلى بلادهم وشاهد الروس قبل ألف ومائة سنة، وكتب عن بلادهم وعن بلاد الروس كتابة لايزال الروس أنفسهم يدرسونها الآن في معاهدهم لأنها الدراسة الوحيدة التي كتبت عن بلادهم في ذلك التاريخ المبكر.

وكان عشاء الفندق على موسيقى راقصة تعزفها فرقة خاصة بالفندق فتسابق الحاضرون وكلهم أوروبي إلى حلبة الرقص وتخاصر الرجال والنساء أي أخذوا بالخواصر فصاروا يدورون لأن الخمر دارت برؤوسهم حتى إذا شبعوا من الرقص مثلما شبعوا من الطعام عادوا إلى الموائد وهم يلهثون.

أما اصحابنا الذين على مائدتنا فإنهم كانوا ينظرون وبعضهم كان يسارق النظر يظهرانه من غير المبالين بهؤلاء الراقصين.

الميدان الأحمر :

خرجنا من المطعم قبل بقية الرفاق، وذلك بعد أن أنتهى الطعام والكلام، وقصدنا الميدان الأحمر الشهير في العالم لأن قصر الكرملين الذي يحكم منه الاتحاد السوفيتي يقع عليه.

وسمى الميدان الأحمر قبل الشيوعية وكان بعض الناس يظنون أنه سمي بذلك بعدها لكون اللون الأحمر أصبح شعار الشيوعية الذي تعرف به في العالم وإنما معنى الأحمر عندهم: الجميل فاسمه إذاً الميدان الجميل على هذا الاعتبار.

وقد ذهب جماله حين صار موطنا لحكم الطغيان الشيوعي وصارت الشيوعية علامة على القهر والظلم والعسف وعدم احترام الإنسان.

ذهبنا إليه في العاشرة والنصف ووجدنا الناس قلة فيه ماعدا جماعات من السياح ذوي المظهر الأوروبي وربما كانوا من الأمريكيين أو الكنديين جاؤا إليه يشاهدونه مثلما جئنا إليه نشاهده.

وإن كانت مشاهدتي له قد تكررت لأنني رأيته في زيارتي الأولى للإتحاد السوفيتي غير أنني كنت رأيته ضحى، وبعض الرفاق الذين معي الآن لم يروه من قبل.

وقد أحزنني منظر الكنيسة الفخمة التي تطل عليه لا لمجرد كونها كنيسة فهي قد أصبحت الآن متحفًا عندما تخلى الروس الحاكمون عن الدين ولكن من أجل كون أبراجها وقبابها قد بنيت على مثال منارات المساجد التي بنيت على الطراز المغولي وقبابها.

وقصة ذلك أن القيصر الروسي المسمى ايفان الرهيب أو ايفان المدهش كما يحب بعض الذين يتوخون الدقة أن يترجموا اسمه غزا مدينة قازان المسلمة وكانت الحروب سجالاً آنذاك بين الروس وبين المسلمين الذين عاصمتهم مدينة قازان الآتي ذكرها فلما احتلها (إيفان) الرهيب هدم مسجدها الجامع وبنى هذه الكنيسة على غراره حتى إن بعض الناس زعم أنه نقل تلك الأبراج والقباب نقلاً من قازان وهذا غير صحيح ولكنه يدل على مافي أذهان الناس عما فعله بهذه المدينة المسلمة العريقة.

وهذا الميدان الذي سمي على اسم قصر الكرملين الذي بجانبه مثلما أنه شهد هزيمة التتار المسلمين فإنه كان قد شهد عزاً بل أمجاداً للإسلام تمثلت في خضوعه للحكم الإسلامي غير المباشر مدة تزيد على القرنين بعقود من السنين، حتى إن أمير موسكو وكانوا يسمونه (الكيناز) لايعتبر تعيينه نافذاً إلا إذا صدر به مرسوم من ملك المسلمين وقرأ ذلك المرسوم في قصر الكرملين على الروس.

استبدال الحرس :

قاربت الساعة أن تصل الحادية عشرة ومن عادتهم أن يستبدلوا الحراس الذي يحرسون قبر (لينين) الزعيم الشيوعي الراحل الذي حفظوا جثمانه في قبره على هذا الميدان وكنت عرفت أن لاستبدال الحرس بحرس غيره عادات وطقوسا يطبقونها وكنت رأيتها من قبل وأظن أنني صورتها وذكرت ذلك في كتاب «زيارات للمسلمين في الإتحاد السوفيتي.. ».

ولم يعجبني استبدال الحرس هذا، وذلك أنه يقتصر على ذهاب أربعة من الحراس الذين يقفون على مقبرة لينين بأربعة آخرين وإن كان تدريبهم وتعليمهم رائعًا لأنهم يبدون أشبه بالآلات المتحركة منهم بالآدميين الأحياء لولا الحركة فهم يمشون في خطى متزنة مضبوطة ويؤدون التحية عند فراق المكان ولاشيء أكثر من ذلك.

إطلالة على موسكو :

لانزال في موسكو، والإطلالة تكون من أعلى إلى أسفل، فقد تركنا الميدان الأحمر وقصر الكرملين المطل عليه، وقبر لينين وما اقترفه من آثام وخطايا وصعدنا إلى تلة مرتفعة تطل على جزء من مدينة موسكو ومن ذلك نهرها غير الكبير المسمى بنهر موسكو.

وذلك في ميدان بجانب جامعة موسكو.

وقد استجلينا منظر مدينة موسكو من هذا المكان المرتفع فبدت جيدة من هذه الناحية لأنها ذات أبنية (عمارات) عالية تحف أشجار الغابات بأركانها وينساب بينها نهر موسكو هادئًا كأنما لايبالي بالمشكلات التي يتخبط فيها أهل روسيا وبالمشكلات الأخرى التي يجعلون الناس يتخبطون فيها.

وكان الجو جميلاً لأنه جو الربيع المبكر الذي يميل إلى البرد أكثر مما يميل إلى الدفء وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة التي هي منتصف الليل ومازال الشفق الوضاء يرفرف في الأفق يشبه الجو في بلادنا قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها مباشرة.

مع أن الشمس في موسكو قد غربت اليوم في الحادية عشرة إلا عشر دقائق.

ولكن هذه هي طبيعة البلدان الشمالية فالشفق وهو النور الذي يعقب نور الشمس لايضمحل حتى يطلع عليه النور المختلط بالظلام من جهة الشرق فلا يظلم الجو هنا أبداً في هذه الأيام من شهر حزيران (يونيو).

أوقات الصلاة :

وأوقات الصلاة هنا مشكلة إذا أخذناها بما نأخذ به أوقات الصلاة عندنا، لأن وقت العشاء عندنا يكون بعد ذهاب الشفق وهو لايذهب عندهم من السماء إطلاقًا، لذلك لاينظرون إليه وإنما اصطلحوا على أوقات معينة للصلاة في هذه الأيام في جميع بلادهم الروسية ومن ذلك أنهم يصلونها الآن كما يلي:

المغرب في الساعة الحادية عشرة إلاَّ عشر دقائق بعد غروب الشمس والعشاء في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، والفجر في الثالثة إلا عشر دقائق بمعنى أنه لافرق بين صلاة العشاء وصلاة الفجر إلا ساعة وثلث.

وهذا معناه أن الناس لايستطيعون أن يناموا بين العشاء والفجر وإنما ينامون قبل ذلك بعد صلاة العصر وقبل صلاة المغرب.

وبعضهم يترخص بأن يؤخر صلاة المغرب على اعتبار أن وقتها يمتد إلى قرب غروب الشفق، ومما ينبغي تذكره أن ما ذكرناه واقع في بلاد معمورة معروفة وإلا فإن كون الشمس لاتغرب أبداً عن جزء من بلادهم في بعض أوقات السنة، ولاتشرق أبداً في أوقات أخر أمر معروف مشاهد وليس بعيداً عنهم، حتى إن مدينة (لينين قراد) الكبيرة التي هي ثانية المدن في الإتحاد السوفيتي وكانت عاصمة روسيا إبان حكم القياصرة يكون فيها في الصيف مايسمونه بالليالي البيض وهي مابين ثلاثين إلى أربعين ليلة لايعدم النور من السماء فيها حتى يستطيع الإنسان أن يقرأ الجريدة في نور السماء نصف الليل دون أن يحتاج إلى إضاءة اصطناعية.

الأحد ٢٤ ذي القعدة ١٤١٠هـ

السوق السوداء :

لم يكن الإتحاد السوفيتي والدول الشيوعية الأخرى مثله تعرف السوق السوداء، لأن الدولة كانت تمسك بحزم بمقاليد الأمور كلها ومن ذلك التجارة ومراقبة التصرف بالأموال، ولكن عندما أفلست الشيوعية وشعر أهلها بذلك تراخت قبضتهم على الناس فيما يتعلق بأمور المال والتجارة فانتشر الإتجار بالأشياء في السوق السوداء، حتى صار صرف النقود في السوق السوداء أمراً مألوفًا ما أن يراك الشخص الروسي الذي يشتغل بمثل هذه الأشياء أو الأجنبي الذي يفعل مثل ذلك حتى يسارع اليك لمعرفته أنك أجنبي قد تملك بعض النقود الأجنبية المهمة حتى يبادرك بسؤالك عما تريد أن تصرفه من النقود.

ومن ذلك ما حدث لنا اليوم عند تناول الفطور في فندق أوكرانيا ولم يكن معي من الرفاق إلا الأستاذ أيمن حبيب فتقدم أحد موظفي المطعم وهمس في آذاننا قائلا: هل تريدان (الكافيار) الأسود الفاخر؟ إنني أبيعكم العلبة بسبعة دولارات مع أنها في المتجر - يعني الحكومي - تساوي ٥٠ دولاراً وقد سألنا عن ذلك فوجدناه صحيحًا.

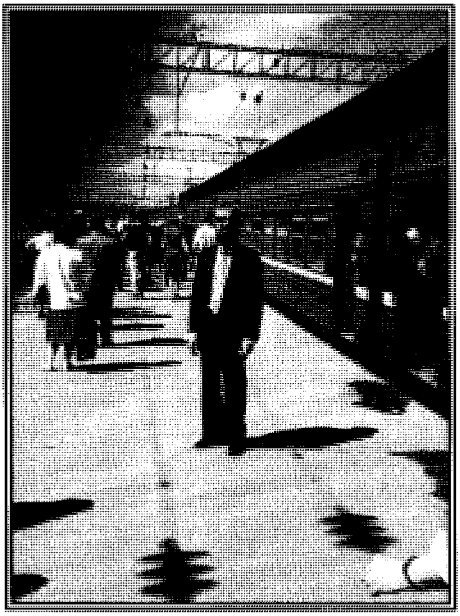
وقد عرض أشياء أخرى مماتنتجه البلاد فلم نقبلها وكان يحضر ذلك من مكان داخل قاعة الطعام فيضعه في الخزانة التي تكون فيها الملاعق والشوك ثم يرينا إياه.

أما الفطور فكان معروضًا لمن يريد أن يأخذ منه ما يشاء ولكنه كله كان بمقادير مقترة وأصناف غير جيدة فذكرت في ذهني (بلاد البرازيل) وما فيها من خير جزيل ونعم لم تكدرها الشيوعية وفي بلاد لم تدخلها الجاسوسية.

محطة كييف :

وهي محطة القطارات التي تقع على ميدان كييف الذي يقع عليه فندقنا ذهبت هذا الصباح أنا والأخ الأستاذ أيمن حبيب من صحيفة عكاظ يبحث عن صيد لمصورته، يتحف به صحيفته.

فكانت أول تحية غير محببة عند الدخول في المحطة رائحة عفنة لا أدري مصدرها ثم رأينا المسافرين ومعهم أمتعتهم الرَّثَّة التي تدل على الفقر، وبعضها يدل على التخلف أو لنقل عدم التقدم، ومن ذلك أن أحد المسافرين كان يحمل معه أشياء في زنابيل وهي القفاف جمع قفة من الخوص، وقد خاط أعاليها، وبعضهم معه خبز في زنبيل أيضًا، ربما ليتحف به أصدقاء له أو أقرباء.



داخل محطة كييف في موسكو

وعندما رأى صاحبي هذا المنظر الذي لم يتوقعه لما كان في نفسه عن الاتحاد السوفيتي من أنه دولة عظمى تضاهي دول الغرب الكبيرة أسرع إليه والتطقه بمصورته فكان أن استنكر طائفة من الناس ذلك وكانت المحطة غاصة بهم غير أنه كان أسرع منهم إذْ خرج من المحطة ولحقت به بعد ذلك.

وأما الناس الموجودون في المحطة وهم كثر فإنهم الأوروبيون الذين تظهر عليهم الفاقة فالملابس غير فاخرة، والتغذية ليست كاملة، ولكن القبعات موجودة، والألوان هي الألوان الأوروبية المعتادة وحتى القبعات موجودة على رؤس النساء خاصة وهي على رؤوسهن أكثر منها على رؤوس الرجال وشيء مهم آخر وهو أن باعة زهور كانت لديهم زهور قليلة فكان الناس يقفون ويشترون منهم زهرة زهرة أي لايشترون طاقات كثيرة، وقد التقطت صوراً لهم.

وتكررت رؤية الصفوف الطويلة التي تنتظر وصول الحافلات (الطوابير) كما كنا شاهدناها من قبل، وأكثر الواقفين فيها كانوا من الواصلين لتوهم من مدينة كييف، أوما حولها من (أوكرانيا)، ومعروف أن الأوكرانيين هم من الجنس

السلافي مثلهم في ذلك مثل اليوغسلافيين والبولنديين ويتميزون بالجمال في الأجسام والهدوء في الطباع بالنسبة إلى بعض جيرانهم.

ومررنا برجل يصلح أحذية، ولم يكن لديه طابور وإنما كان يقف عنده اثنان وهو يعمل بجد وقال لي بعضهم بعد ذلك: ربما كان يعمل لشخصه أي ليس موظفًا حكوميًا.

ثم ركبنا مع سيارة أجرة قديمة محطمة قال صاحبها إنها خاصة به أي غير مملوكة للدولة، وقد اوصلنا إلى فندقنا بروبلين اثنين وهو مبلغ زهيد فأعطيته ورقة من فئة الروبلات الثلاثة وهذا قليل إذْ قلما يجد المرء ورقة نقدية من فئات ثلاثة فاعتذر بأنه لايوجد لديه روبل ولا أي صرف من الروبلات فسامحته عن الروبل الثالث فشكر ذلك بعبارة لم أفهمها، وإنما فهمت إشارته.



صورة للشارع المنطلق من ميدان كييف في موسكو (تصوير المؤلف)

واللغة مشكلة كبيرة للأجنبي في الإتحاد السوفيتي فالقوم لايعرفون غير لغتهم وهي لغة فيها صعوبة على المسافر العابر إلاَّ مَنْ كان يعرف شيئًا من اللغات اللاتينية فإن ذلك يسهل عليه، لأن فيها كلمات كثيرة مشتركة مع

اللغات اللاتينية وأذكر أن عدة كلمات كنت أعرفها من البرتغالية عرفت أنها مستعملة هنا في الروسية مما عجب له مرافقي.

ولمناسبة الصرف أردت أن أصرف ورقة ليست بالكبيرة بعد ذلك فطلبت من المحاسبة في الاستقبال في الفندق أن تصرفها فامتنعت، ثم ذهبت إلى بائعة للجرائد فطلبت منها أن تصرفها فامتنعت وكان عندها أكياس من اللدائن تبيع الواحد بربع روبل فاشتريت منها واحداً فصرفت لي. وربع الروبل يساوي بالصرف الحر قرشًا وربعًا لأن الروبل نفسه يساوي ربع ريال حيث أن الدولار يصرف بخمسة عشر روبلا وهو يساوي أربعة ريالات إلاَّ ربعًا.

إلى جامع موسكو :

يرغب المسلم الذي يزور موسكو أن يزور جامعها ولكن زيارتي له لغرض إضافي وهو أنني أحمل في هذه الرحلة نقوداً من رابطة العالم الإسلامي لمساعدة المشروعات التي يقوم عليها إخواننا المسلمون من المساجد والمعاهد، وحتى لو لم أكن أحمل نقوداً فإن واجبي أن اطلع على المشروعات الإسلامية من أجل أن أعمل على المساعدة لهامن رابطة العالم الإسلامي.

ذهبنا إليه مع الإخوة المرافقين فاخترقنا القسم الفاخر من مدينة موسكو وهو ماكان قريبًا من الميدان الأحمر وما كانت فيه السفارات الأجنبية والإدارات الحكومية فمررنا مثلاً بوزارة التعاون الاقتصادي الدولي وهي من أهم الوزارات في الحكومة السوفيتية التي تتعامل مع الخارج، وكذلك بوزارة الخارجية.

ثم أقبلنا بسرعة على (جامع موسكو) ويقع بجانب معلم مهم من معالم العاصمة الروسية ألا وهو الملعب الدولي الذي أقيمت فيه دورة الألعاب الأولمبية العالمية مرة.

فوجدنا في الاستقبال المفتي الشيخ طلعت تاج الدين وإمام الجامع الشيخ راوي عين الدين وعدداً من الإخوة العاملين في الإدارة الدينية فبدأنا بجولة خارج الجامع يطلعوننا فيها على التوسعة التي بدأوها في المسجد وأهمها بناء

من عدة طوابق يريدون أن تكون فيه مدرسة إسلامية وغرف للعاملين في المسجد.



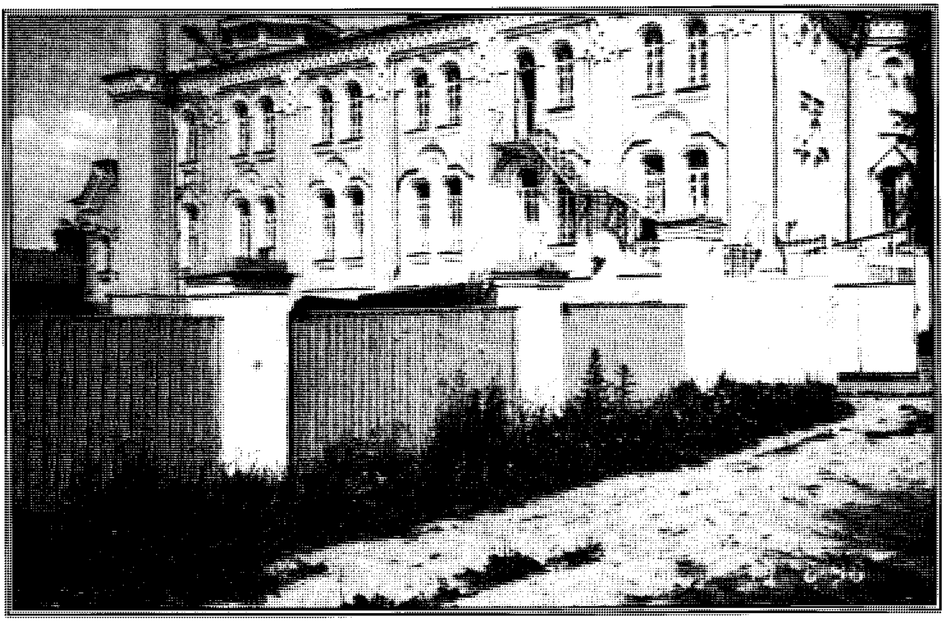
على الأرض المجاورة لجامع موسكو مع الاخوة المسلمين

وقد قطعوا مرحلة من البناء فأعطيتهم قدراً قليلاً من المال إسهامًا من الرابطة في ذلك وأخبرتهم أنهم إذا استمرت حاجتهم للمال قبل الفراغ من البناء فإن الرابطة سوف تكرر المساعدة.

وعندهم مشروع بناء منارة عالية جداً لأن الملعب الدولي بقبته الكبيرة صار أعلى من الجامع وكذلك توجد عمارات سكنية عالية غير بعيدة منه غطت عليه.

لاسيما أن المسجد يقع في منطقة مهمة في حاشية المنطقة الفاخرة من مدينة موسكو، وبجانب محطة لقطار الأنفاق (المترو) يرتادها كثير من الناس، مما يجعل العمل على كون المسجد يبدو في مظهر مناسب لافت للنظر أمراً مطلوبًا.

ثم صعدنا مع درج قصير إلى المسجد حيث أدينا صلاة الظهر والعصر فيه جمعًا خلف المفتي لأننا كلنا مسافرون فهو ليس من أهل موسكو وإنما هو من أهل أوفا إلاَّ أن الإشراف على الجامع عائد إليه لكونه رئيس الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي وسيبريا.



منظر خارجي لجامع مدينة موسكو

وقد القيت كلمة في المصلين بعد الصلاة ولم يكونوا كثرة، وإنما كان هناك عدد لابأس به من المسلمين الذي حضروا إلى المسجد لسماع الذكر من رجال ونساء بينت في هذه الكلمة الغرض من مجيئنا إلى هذه البلاد الروسية وذكرت لهم طبيعة عمل رابطة العالم الإسلامي وأهدافها في التعاون مع المسلمين على البر والتقوى، وبذل المساعدة لهم لتمكينهم من إقامة المشروعات الإسلامية مثل توسعة هذا الجامع العظيم.

وقد انعقدت في الجامع حلقة واسعة لتلاوة القرآن الكريم وتفهم معانيه مؤلفة من جماعة من الشبان والشابات الذين كانوا في ملابس نظيفة وابدان أنظف وعلى وجوههم إشراق غير موجود على وجوه الناس الذين نراهم في

الشارع إذْ هؤلاء من المسلمين الذين يعمر الإيمان قلوبهم فيظهر ذلك على قسمات وجوههم نوراً، وبهاء، وطمأنينة ظاهرة. ولباس النساء ساتر جميل لم يظهر منه من جسم المرأة غير الوجه والكفين ولم أر بينهن عجوزاً وهذا الأمر خلاف ما كنت رأيته في زيارتي الأولى للإتحاد السوفيتي حيث عمار المساجد كانوا من كبار السن من الرجال والنساء، وقل أن يرى المرء فيهم من هو شاب من الرجال والنساء.



حلقة الدرس في جامع موسكو

ثم ألقى الشيخ طلعت كلمة فيهم بالروسية، وذكر لنا أن سبب ذلك أن أكثرهم نسوا لغة التتار الذين ينتمي إليهم طائفة من الحاضرين من رجال ونساء.

ومع ذلك قال بعضهم: إننا نريد أن تلقوا علينا كلمة بالتتارية والشيخ طلعت يعرفها - فذكر لهم أن الحاضرين من غير التتار لايعرفونها، وإنما يعرفون اللغة الروسية.

ومعلوم أن اللغة الروسية هي لغة الثقافة والتعليم في الإتحاد السوفيتي بعامة وفي الجمهورية الروسية هذه خاصة.

وقد ضعفت نتيجة لذلك اللغات الأخرى التي هي لغة أقوام عديدين تابعين لهذه الجمهورية لأنهم لم تتوافر لديهم وسائل لتفهيم لغتهم، والرقي بها.



في محراب جامع موسكو مع الإمامين في الجامع

الشيخ محمود بن وليد في يسار المؤلف والشيخ راوي عين الدين

ولم يقم أحد بترجمة ما قاله الشيخ في كلمته إلا فيما يتعلق بما ذكرته من أمر اللغة.

المسجد المصادر :

وجامع موسكو هذا هو المسجد الوحيد في كل أنحاء هذه العاصمة المهمة موسكو التي يقطنها حوالي خمسمائة ألف مسلم من أهل البلاد الروسية وما الحق بها إضافة إلى مئات من المسلمين العاملين في السفارات وإلى آلاف من الطلبة الدراسين فيها.

ولذلك كرر إخواننا في الوقت الحاضر أنه غير كاف لأنه يزدحم بالمصلين يوم الجمعة أما يوم العيد فإنه يضيق بهم مع الساحات المحيطة به وذكروا أن هناك مسجداً في منطقة مهمة من موسكو قد صادرته الحكومة منذ عهد بعيد فهو الآن لايستعمل مسجداً، بل هي خارج عن أيدي المسلمين ذهبنا لرؤيته مع المفتي الشيخ طلعت تاج الدين عدد من المشايخ فلم نستطيع الإهتداء إليه لأنه قد صار منزلاً من المنازل لاطابع له، وقد أرونا إياه بغية المساعدة على بنائه بعد استعادته وذكروا في تاريخه أن الحكومة الروسية كانت قد منحت أرضه للمسلمين ليبنوه عليها بمناسبة انتصار الروس على الامبراطور الفرنسي (نابليون) عند ما غزا روسيا.

وقد استمرت الصلاة فيه حتى قيام الثورة الشيوعية فصادرته الحكومة آنذاك وتعطلت الصلاة فيه ثم اعيد بناؤه على غير هيئة المسجد.

ويقع في حي يسمى (محافظة ماوراء النهر) الذي يراد به نهر موسكو إلى جهة الجنوب من الميدان الأحمر، فموقعه من المواقع الحساسة المهمة في المدينة.

ويقول الإخوة المسلمون: إن بلدية موسكو التي تستعمله الآن لبعض أغراضها قد تعيده إليهم إذا تقدموا بطلب رسمي لذلك مدعوم بالوثائق وإذا كانوا قادرين على إعادة بنائه أو حتى تعديل بنائه ليكون المسجد الثاني في مدينة موسكو.

وقد وعدنا بالمساعدة على ذلك إذا تسلموه من البلدية وبدأوا في إعادة بنائه أو في تغيير شكله إلى شكل مسجد مع بناء منارة عالية له.

النهار الطويل:

عدنا إلى الفندق بعد أن صلينا العصر وتجولنا في الجامع ومازالت في النهار بقية، بل مازال النهار فتى كما قال الأقدمون إذ الساعة كانت الخامسة وقد بقي في عمر النهار مايقارب الساعات الست ففتحت نافذة الغرفة وكان الجو لطيفًا لاحر فيه ولاقر فدخلت ذبابات مرحة عرفت فيما بعد أنها كانت ترتع في منطقة على رصيف الشارع الذي هو من الإسفلت المغبر.

وكأنما ظنت هذه الذبابات المسكوفية أنها بمرحها ومداعبتها ليدي ووجهي إنما تسبب متعة لي ولم تعرف أننا كنا - ولافخر - نعرف الذباب أكثر من غيرنا فيما مضى من عهودنا وإنْ كنا الآن لانراه إلاَّ لمامًا في أزمان الاعتدال في الربيع والخريف.

وحان وقت العشاء في التاسعة وما تزال الشمس تملأ الشوارع فذهبنا إلى فندق (أوكرانيا) وفيه متجر كبير يبيع كل شيء فيه بالعملة الأجنبية القابلة للصرف ولايقبل العملة السوفيتية التي هي الروبل فكان مما اشترينا منه سبح - جمع سبحة - من الكهرمان الجيد الذي يستخرج من بحر البلطيق، وكان ثمن السبحة الواحدة (٣٥) دولاراً أمريكيًا أي أكثر قليلاً من مائة ريال سعودي.

وعجبت للبائع في هذا المتجر وهي أمرأة روسية شابة يفترض في مثلها أن تجامل المبتاعين كما هو الحال عليه في فتيات البيع في المتاجر الغالية ولكنها كانت مثل غيرها من العاملين في الإتحاد السوفيتي جافة الخُلُق - بضم اللام - عابسة القسمات.

يوم الاثنين ١٤١٠/١١/٢٥هـ

الفيزا من الاتحاد السوفيتي للاتحاد السوفيتي :

من عجيب الأمر عندهم أن الجمهوريات بل حتى بعض المدن داخل الإتحاد السوفيتي يحتاج السفر إليها إلى سمة دخول (فيزا) فإذا لم تكن على جوازك عند منحك سمة الدخول للاتحاد السوفيتي اسماء المدن التي تريد دخولها فإنك لاتستطيع الذهاب إليها إلا إذا حصلت من الحكومة السوفيتية المركزية أو من مكاتب تمثيل الجمهوريات في موسكو على سمة دخول.

وأذكر أن سمة الدخول التي حصلنا عليها من السفارة السوفيتية إلى هذه البلاد لم يكن فيه ذكر لأية مدينة إلا مدينتي موسكو وأوفا، وذلك لكوننا قدمنا باسم حضور المؤتمر الإسلامي الذي عقد في (أوفا) وقدمت ذكره.

وعندما أردنا الذهاب بعد المؤتمر إلى طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان ذهب مضيوفنا إلى مكتب تلك الجمهورية في مدينة أوفا وحصلوا لنا على (فيزا) تخولنا زيارتها.

وإذا لم ير العاملون في مكتب الترحيل في الطائرات والقطارات سمة الدخول المطلوبة إلى بلد من البلدان لم يركبوك على الطائرة أو القطار.

ولكن الحصول على (الفيزا) إلى المناطق الإسلامية بالنسبة إلينا سهل جداً فقد كان إخواننا في الإسلام الذين هم مضيوفنا الذين يعتنون بأمرنا يحصلون لنا على سمة الدخول بسرعة ودون تعب بل دون بذل جهد منا.

ولكن عندما أردت زيارة مدينة (مورمانسك) وهي ميناء على المحيط المتجمد الشمالي لاتغرب عنه الشمس في هذه الأيام كان الأمر أكثر صعوبة إذْ لم يكن في منطقة إسلامية وإنما يحتاج الأمر للحصول على سمة الدخول إليه إلى اذن من المسئولين في جمهورية روسيا الإتحادية التي تتبعها تلك المنطقة ولذلك ذهب أخونا ومرافقنا الشيخ عبدالحميد ترسون جزاه الله خيراً وأمضى بياض هذا اليوم في الحصول على (الفيزا) وساعده في ذلك الشيخ طلعت تاج الدين الذي يعتبر من مواطني الجمهورية الروسية وإن كان يختلف عن الروس في الدين والأصل والعنصر فإنه من مواطني مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية (بشقردز ستان) التي تتبع جمهورية روسيا الاتحادية ولكنها تتمتع بالحكم الذاتي داخلها.

وكان اثنان من أعضاء وفدنا وهما الأستاذ حاتم قاضي ورحمة الله بن عناية الله قد سافرا أمس إلى مكة المكرمة لأن الرابطة بحاجة إلى وجودهما خلال بداية موسم الحج الذي يزيد فيه العمل في الرابطة وبقى معي الأخ الأستاذ (أيمن حبيب).

والمقرر أن يسافر معي إلى مورمانسك كما يسافر معي المرافق الشيخ عبدالحميد ووجوده ضروري لأنه من أهل البلاد ويعرف اللغة الروسية كما يعرف

كيفية التعامل مع الجهات الرسمية وهو - أيضًا - يحتاج إلى (فيزا) إلى تلك المدينة مع أنه من مواطني الاتحاد السوفيتي فإذا حصل عليها كان لابد له من أن يحمل جواز سفر داخليًا يحمله المواطنون السوفييت منهم عند السفر إلى داخل البلاد خارج الجمهورية التي هي محل سكنهم وهو جواز سفر يختلف عن جواز السفر الذي يسافرون به خارج البلاد، ولايسافر إلى خارج البلاد منهم إلا قلة نادرة، لأن الحكومة لاتسمح للمواطنين بالسفر إلى خارج البلاد إلا في مهمات رسمية، أو لأغراض محدودة جداً، كالإشتراك في المؤتمرات والاجتماعات العالمية أو الحج الذي فتح بابه للمسلمين لأول مرة في هذه السنة.

أيوم كأيام الجزيرة؟

منذ أن حللنا موسكو قبل يومين والجو يلفه الدفء والشمس مشرقة إلاَّ في فترات قصيرة.

وفي هذا الصباح والضحى كان الجو شامسًا وكأنه الجو في جزيرتنا العربية الذي لايعرف العبوس كما تعرفه ثغور أهل هذه البلاد الروسية.

ولكن لم يكن أول الصباح مريحا، إذ دخلنا المصعد لننزل من الطابق الخامس الذي نسكن فيه فكنا نشم في المصعد رائحة كرائحة البول لم ندر مصدرها ولكن عرفنا بعد ذلك أنه كانت قد تسربت إليه مياه قذرة من الطابق الأرضي عندما كان متوقفا فيه.

وركبت معنا عجوز من العاملات في الفندق لتنزل في الطابق الثاني فضغطت على الزر الذي كتب عليه هذا الرقم فضغطنا نحن على الزر المؤدي إلى الأرض، فغضبت كثيراً وعادت لتفتح المصعد ثم تخبرنا أنه لايمكن الضغط عليه إلا لجهة واحدة كالطابق الثاني ومن هناك يضغط عليه للطابق الأرضي، لأنه ليس مصعداً آليًا.

ورأيتهم في الشوارع يتمتعون بهذا الجو الشامس الدفئ وقد كادوا يخرجون من ثيابهم وبخاصة النساء، أما نحن فإننا لم نر في الشمس إلا ذلك الشيء

الحار الذي مللنا منه، ولم نر في الجو هنا إلا جو الربيع في بلادنا الذي يضايق المرء فيه أن يلبس (بدلة) صيفية مع رباط عنق.

ولم يكن لدينا ما نفعله في انتظار قدوم الأخ الشيخ عبدالحميد بخبر الإذن بالذهاب إلى (مورمانسك) لأننا نخشى من ضياع الوقت والطائرة تقوم إليها مرة واحدة في اليوم في الثانية من بعد الظهر.

فكانت العودة إلى التسكع في الشوارع القريبة من الفندق واستجلاء المباني والأناسي فيها فتأكد لنا مالاحظناه أول الأمر من قلة النضارة في الوجوه رغم البياض بل الصهبة الظاهرة فيهم، وحتى الجمال فإنه أقل من الموجود في البلدان الأوروبية المجاورة وبخاصة السلافية منها مثل بولندا.



لدى باعة الزهور في ميدان كييف

ولم أرهم يحدون النظر فينا، ولايستغربون وجودنا مع سمرتنا الظاهرة بينهم، وربما كان ذلك لكثرة وجود الأجانب عندهم ولكون لباسنا لباسًا معتاداً لاغرابة فيه.

ولم نجد محلاً عـامًا أي حكوميًا يبيع الفاكهة في المنطقة القريبة من الفندق، وربما كـان ذلك لعدم مـعرفتنا بالمنطقة وكنا بحاجة لشراء الفـاكهـة لأنهم في الفندق لم يكونوا يقدمون فاكهة في الوجبات وإنما يختتمون بالآيس كريم في الغـالب وهذا الكلام هو عـما رأيناه في مطعم فندق أوكرانيـا، وأمـا المآدب الخاصة في المناطق الإسلامية فإن الآسيوية الفاكهة فيها كثيرة ورخيصة وأول ما يجلس عليه المدعو عندهم على الفاكهة ويأكلونها في أول الطعام وأثناءه، وبعده لأنهم يتركونها على المائدة يواصل المدعوون الأكل منها.

لقاح الأزهار :

من الأشياء التي تضايق المرء في هذه البلاد الروسية وما ألحق بها وجود لقاح الأزهار الذي يسقط من الأشجار الكبيرة الموجودة في الشوارع والحدائق ويتطاير في الجو وكأنه الفراشات المتراقصة فيقع على الوجوه وقد يقع على العيون، وقد يدخل مع الهواء إلى الأنوف، وإذا حركت الريح الشجرة أطارت منه مقادير كبيرة في الهواء فصارت تسبح في الجو كأنها الجراد الصغير المتطاير.

وهذا يسبب الحساسية لبعض الناس ولكنه محدود الزمان إذْ لايكون إلاَّ في هذا الفصل الربيعي الدفيء.

ومن الملاحظات التي خرجنا بها من هذا التسكع في الشوارع أن تبرج النساء هنا ليس ظاهراً فهو أقل بكثير مماعليه الحال في غرب أوروبا كبريطانيا وفرنسا مثلاً.

فملابس النساء معتدلة أو طويلة ولايوجد لباس قصير إلا على بعض الأوروبيات السائحات القادمات من الغرب.

وأما الأصباغ وتكلف الزينة فإنه موجود ولكن بإعتدال وعلى وجوه قلة من النساء، وأما أكثرهن فإنهن لايظهرن مبالاة بذلك فيما يبدو.

وقد رأيت مخموراً وهو يصيح وآخر يبكي وهو في حالة عقلية سيئة وقالوا لنا بعد ذلك: إن هؤلاء من المدمنين على الخمر وإن مثلهم كثير في هذه البلاد رغم كون الحكومة تحارب الإدمان بل تحارب حتى شرب الخمر ولكن دون أن يكون لذلك تأثير كبير على الناس لأنهم كانوا قد اعتادوا على شرب الخمر بسبب برودة الجو، وقلة الإيمان والطمأنينة في نفوسهم، ولايغيب عن عين السائح الغلظ الظاهر في أجسام الذين هم في منتصف العمر من الناس وبخاصة من النساء وإذا اجتمع مع غلظ الجسم السمنة وتراكم الشحم كان ذلك غير مريح لنظر الناظر إليه، ومتعبا لصاحبه.

والمراد بغلظ الجسم هنا هو أن تكون أعضاء الجسم كبيرة بطبيعتها أي ليست رشيقة والذين في منتصف العمر منهم وبخاصة من النساء كثيراً ما يجتمع عندهم الغلظ في الأعضاء مع السمنة في الجسم .

ثم جاء الأخ عبدالحميد في الواحدة والنصف ظهراً يخبر بأن الحصول على السمات لسفرنا إلى مدينة (مورمانسك) قد تم وقد حصل عليها بوساطة مجلس شئون الأديان وأنه بقي شراء التذاكر وقد فات موعد الطائرة اليوم لأنها يومية كما سبق أي لاتقوم في كل اليوم من موسكو إلى مورمانسك إلا مرة واحدة في الذهاب والإياب.

مشكلة المطعم :

ذكرت فيما سبق أن من أسوأ الأشياء في الإتحاد السوفيتي أن الغريب وحتى القريب لايستطيع أن يجد مكانًا في مطعم بسهولة ولو كان جيبه مليئًا بالنقود، بل لابد من أن يجد وسيلة من دائرة رسمية أو جهة تتعلق بالحكومة تطلب السماح لذلك الشخص بأن يدخل المطعم ليأكل فيه ويدفع ثمن ما أكل - وذلك لكون الطعام في المطعم رخيصا إلى درجة أن يكون بالمجان ويتقاضي ثمنه بالعمله المحلية الرخيصة.

وقد ذهبنا اليوم ونحن ثلاثة إلى مطعم فندق (أوكرانيا) الذي كنا نأكل فيه من قبل فمنعنا الموظف المختص من دخوله وقال: أين الإذن بدخولكم؟ فتلطف به الأخ عبدالحميد، وقال: هؤلاء ضيوف وأنا مواطن سوفيتي لا أهتم بنفسي فسمح لنا بدخول المطعم من دون أن يطعمنا لأنه لايملك ذلك.

فوجدنا بعض الموائد خالية، ولكنه لايسمح بالأكل منه وقال: لايمكن تقديم الطعام إلاَّ بأمر فخرجنا منه كأسفي البال، وذلك أن المسئولين في المطعم كانوا قد بلغوا من قبل أننا اليوم مسافرون لانحتاج إلى طعام في الفندق.

ووقفنا في بهو الفندق دون أن نجد حتى مقاعد نستريح عليها لأن المقاعد القليلة فيه كانت مشغولة، وذهب عبدالحميد يسعى عند الإدارة ويخبرهم بأننا ضيوف أجانب، وأننا كنا نأكل هنا.

وكان مضيفونا ظنوا أمس أننا نسافر اليوم إلى (مورمانسك) ولذلك ذكروا للمطعم أن آخر الأيام التي نأكل فيها منه هو أمس.

وبعد تعب من شدة الوقوف عاد إلينا الأخ عبدالحميد وقال: لقد سمحوا لنا أن نأكل في مطعم آخر صغير ملحق بالفندق ولكن ذلك يحتاج إلى انتظار لبعض الوقت ولايقل ذلك عن نصف ساعة.

فقلت له: إننا نحمل نقوداً كثيرة ولله الحمد مابين سوفييتية وأجنبية ومعنا سيارتان ألا يمكننا أن نذهب إلى أي مطعم غير هذا الفندق فنأكل فيه وندفع ثمن ذلك؟

فقال: المطاعم كلها بالطابور وسنتعب من الوقوف ثم لاتكون في مستوى هذا المطعم، وربما لايسمح لنا بدخولها أصلاً، لأنها تكون ممتلئة.

إلا أنه مما ينبغي أن يسجل للاتحاد السوفيتي هنا أن الطعام في المطعم الذي ندخله مثل الفندق يكاد يكون بالمجان كما قلت فهو في غاية الرخص ولايدفع المرء لقاء الوجبة التي يأكلها في المطاعم العامة إلا مايعادل نسبة العُشُر أو ١٠٪ مما يدفعه في الأسعار العالية.

العامل النائم :

حان وقت الدخول إلى المطعم الصغير في فندق أوكرانيا وكان ذلك في الثانية والنصف إذْ فتح بابه بعد أن كان مغلقًا وصار الناس يدخلون فيه على قلة لأنه صغير.

ووجدنا مائدة لأربعة أشخاص ونحن ثلاثة فجلسنا عليها وكانت مقدمات المائدة موضوعة عليها منها زجاجات الماء المعدني وشراب الكوكاكولا وقطع من لحم يابس مقدد أسود وخبز خشن وزبدة وكافيار أحمر وسلطة من طماطم وخيار قليل، فبدأنا بهذه المقدمات حتى انتهينا منها وانتظرنا أن يأتي عامل المائدة فلم يأت، فسأل الأخ عبدالحميد عاملاً كان عند المائدة المجاورة فامتنع من خدمتنا ذاكراً أن لمائدتنا عاملاً آخر غير أن ذلك العامل الآخر لم يحضر مما اضطر الأخ عبدالحميد إلى أن يدخل إلى داخل المطبخ ومكان العمال يسأل عنه فدلوه عليه، فوجده نائمًا، فسأله عن سبب نومه، مع أننا على المائدة التي من واجبه أن يخدمها ؟ فقال، لم يخبرني أحد بأنكم ستأتون !

ثم جاء الينا والنوم يداعب عينيه فأحضر الصحن الرئيسي في الغداء وهو سمك مجمد اعتدنا على أكله عندهم ولكنني لم أحمده وقد سألته أن يبدله لي بلحم فقال لايوجد لدينا لحم، وكان مسك الختام (الآيس الكريم) والقهوة المعتادة عندهم وهي كالقهوة الأوروبية يأتون بها في كوب قصير ويحلونها بالسكر.

وقد دفعنا ثمن هذه الوجبة لثلاثة أشخاص ٤٠ روبلاً ويساوي ذلك بالصرف الحر في السوق السوداء ثلاثة دولارات إلا ثلثا أي أن غداء كل واحد كلف أقل من الدولار الواحد.

أما بالصرف التشجيعي للسياح وهو صرف رسمي تصرفه الدولة فإن مبلغ أربعين روبلا يساوي أقل قليلاً من سبعة دولارات.

السعى لتغيير التذكرة :

كنت ذكرت للأخ عبدالحميد أنني أريد أن أغير خط السير في تذكرتي للرجوع من موسكو إلى جدة وكان يمر بدمشق ولم أرد المرور بها.

وأريد أن أذهب إلى جدة عن طريق فيينا، لأن البلدان العربية يصعب الحصول على حجز فيها إلى جدة في هذه الأيام التي هي أيام الحج وأنا بحاجة إلى العودة إلى مكتبي في مكة الكرمة بسرعة بسبب ذلك.

فذكر لي أن مكتب الخطوط النمساوية في المطار الدولي الذي نزلنا فيه أول مرة ويسمونه مطار (شيراما توفا) ذكروا أنه سمي على اسم المنطقة التي سميت - في الأصل - باسم وزير من وزراء أحد القياصرة كان يسمى (شيراما توفا).

خرجنا إليه بإحدى السيارتين اللتين معنا ويبعد عن المكان الذي نحن فيه من موسكو (٤٠) كيلو متراً وهو أحد المطارات الرئيسية الثلاثة للعاصمة السوفيتية ومع ذلك هو مزدحم بالطائرات وبالأناسي لكثرة السفر بالطائرات في الإتحاد السوفيتي نظراً لاتساع رقعة البلاد ورخص أجور الطائرات فوجدنا مكتب الخطوط النمساوية في المطار على وشك الإغلاق واخبرونا أن لهم مكتبًا في داخل المدينة هو المختص بتغيير التذكرة ولكنه مغلق الآن، ويفتح غداً في التاسعة صباحًا.

فأردت أن أشرب فنجانًا من الشاي في المطار فوجدت صفًا طويلاً عند بائع الشاي في المطار وهو محل يشبه المشرب المعتاد غير أنه ليس فيه كراس كافية وإنما يشرب الناس الشاي فيه وهم وقوف.

وقدرت عدد الذين كانوا في الصف وهو الطابور الطويل بأكثر من ستين شخصًا وكانوا يتزايدون بسرعة حتى إنه دخل في الصف وأنا انظر أكثر من عشرة أشخاص على حين أن الذين يحصلون منهم على الشاي لايحصلون عليه بهذه السرعة.

ورأيت أحدهم قد فتح كتابًا معه وصار يقرأ فيه وهو واقف في الصف اقتناعًا منه بأن انتظاره سيطول.

وكل الذين في الصف وقوف، ولامجال للجلوس والانتظار لأنه لايوجد مكان لهم، ولم يكن بوسعي أن أفعل مثلهم، وقال الأخ عبدالحميد: إن جوازك (دبلوماسي) فلنذهب إلى قاعة الدبلوماسيين في المطار ونشرب الشاي دون انتظار وكان جوازي في جيبي إلا أنني لم أحتج إليه، إذ قال الأخ عبدالحميد لموظفة في القاعة: إنه (دبلوماسي) فأحضرت الشاي بسرعة بعد أن جلسنا على مقاعد وثيرة مريحة ومع الشاي شيء من البسكويت ونقدنا ثمنه ضئيلاً أيضًا.

وتبين أن هذه القاعة هي قاعة كبار الزوار في المطار التي أجلسونا فيها عند وصولنا إلى موسكو، وعند مغادرتها إلى خارج الإتحاد السوفيتي.

ثم نزلنا من غرفة كبار الزوار هذه مع درج عالٍ طويل، وكان ينبغي أن يوجد سلم متحرك للسياسين وكبار الزوار أو أن تكون قاعتهم في الطابق الأرضي، حتى لايتعبوا في صعود هذا السلم الطويل والنزول منه، لأن أكثر الدبلوماسيين وكبار الزوار في الغالب لايكونون من الشبان.

ووقفنا في العودة إلى موسكو عند النقطة التي وصل إليها الألمان في الحرب العالمية الثانية بالقرب من موسكو، وتقع في طريق المطار على بعد حوالي ١٥ كيلو متراً من قلب المدينة ولكنهم لم يتمكنوا من دخول مدينة موسكو ذاتها، بل صدهم الروس عنها وهزموهم.

وقد أحاطوا المكان بالزهور وجعلوا حوله عدداً مما يشبه الصلبان الحديدية القوية التي توضع على الأرض لتمنع تقدم الدبابات المعادية وذلك من باب الرمز والذكرى.

يوم الثلاثاء ١٤١٠/١١/٢٦هـ

كان صباح هذا اليوم متصلاً بالعمل في تغيير خط التذكرة إذ قالت لنا الشركة النمساوية: إننا سنحجز لك على طائرة قادمة ولكن المشكلة أنه لايستطيع أحد أن يغير خط السير في تذكرتك إلا شركة الطيران السوفيتية (ابروفلوت)، فقلت: إنها تذكرة مفتوحة وقطعت من بلد أجنبي، فقالت: هذه هي الأوامر هنا.

فذهبنا إلى شركة (ايروفلوت) فوجدنا في مكتبها عجوزاً تكاد تخاصم نفسها، فكلمت الأخ عبدالحميد بغلظة وشدة وقالت: لا أستطيع الآن عمل أي شيء، لأن الآلة الحاسبة متعطلة وأشارت إلى جهاز للحاسب الآلي عندها، فسألها عن الموعد الذي يتوقع فيه أن تصلح من أجل أن يراجعها فأجابت بجفاء: ومن أين لي أن أعرف ذلك؟

هذا وهي في مكتب لايربطه بالجمهور إلا نافذة عالية تشبه شباك البريد.

البلاد التى لاتغيب عنها الشمس

البلاد التي لاتغيب عنها الشمس :

وهي البلاد التي سنذهب إليها اليوم، يصح أنه يقال فيها: إنها بلاد الشمس المشرقة لكون الشمس لاتغرب عنها في هذه الأيام طوال الليل والنهار، بل لايكون فيها ليل ولانهار متعاقبان، وإنما هي شمس مشرقة والمراد بذلك أنها تكون دائمًا في الافق ولاترتفع في السماء فكأنها تحوم حول الأرض فتكون كالطائر الذي لايستطيع أن يحلق في السماء.

فهي على هذا الإعتبار بلاد شمس مشرقة لولا أن شروقها ليس في جهة المشرق ولا في جهة المغرب وإنما يشمل الجهات كلها.

وبلاد الظلام :

ويصح أن تسمى بلاد الظلام أيضًا، ذلك بأن الشمس لاتشرق عليها مطلقًا في أوقات طويلة من السنة فلا يرى أهلها الشمس مطلقًا وليس هناك في تلك الأوقات ليل ولا نهار، وإنما هو ليل دامس ودهر حالك لايبصر الإنسان فيه يده إلا إذا أضاء نوراً مصنوعًا من عنده، ولذلك تظل الشوارع فيها مضاءة طول ذلك الوقت الذي يستغرق أشهراً.

ومنذ سنين طويلة وأنا أتحين فرصة لرؤية هذه الأرض عندما

تصبح الشمس مستمرة الشروق عليها، أو لنقل عندما لاتغرب عنها.

وشاء الله تعالى أن تتأخر هذه الفرصة وهي فرصة وجود الوقت في الزمن المناسب والقرب من المنطقة لأن البعد عنها يقتضي مني أن أخصص لها وقتًا واسعًا لايتيسر لي الحصول عليه بسهولة ولذلك انتهزت فرصة وجودنا هذه الأيام في موسكو، أي في منطقة قريبة منها، وطلبت من الإخوة المسلمين الكرام مضيفينا في الإتحاد السوفيتي أن تكون زيارتها ضمن برنامجي، ففعلوا ذلك.

وكانت المشكلة أو لنقل المسألة التي سألت عنها هي في مناسبة الطقس هناك لأنني كنت قرأت أن درجة الحرارة تكون في المنطقة القريبة من القطب الشمالي في الصيف حوالي ثلاث درجات فوق الصفر.

ومدينة (مورمانسك) التي سنسافر إليها واقعة داخل المنطقة القطبية الشمالية وإن تكن بعيدة عن نقطة الصفر من القطب، وهي النقطة التي إذا وصلها من يكون قادمًا إليها من جهة الجنوب واستمر في سيره شمالاً دون أن يحول وجهه، فإن سيره يصبح إلى جهة الجنوب من دون أن يشعر بذلك.

مطار الشمال :

خرجنا من فندقنا فندق كيف في الواحدة ظهراً قاصدين مطاراً لم أعرفه من قبل وهو المطار الثالث من مطارات العاصمة السوفيتية ويسمى

(شري متوفا اون) أي شري متوفا رقم واحد فكلمة (اون) بالروسية تعني (واحداً) وهي هنا نفسها في البرتغالية إذ (أون) فيها معناها واحد، مما يدل على أن كلمات كثيرة من اللغة الروسية أصلها لاتيني، ويستعمل هذا المطار في الطيران من موسكو إلى جهة الشمال من الإتحاد السوفيتي، ومن أهم المدن التي يعتبر موقعها شمالاً من موسكو مدينة (لينين قراد) التي كانت تسمى في القديم مدينة (بطر س بورج) لأن (بورج) بالألمانية مدينة وكانت اللغة الألمانية هي لغة الثقافة في بلاط قياصرة روسيا لزمن طويل.

وبعد الشيوعية أسموها باسم لينين الزعيم الشيوعي المعروف ولكنهم ابدلوا كلمة (بورج) الألمانية بكلمة (قراد) الروسية التي تعني مدينة أيضًا.

ويقع المطار على مسافة بعيدة من قلب المدينة، ولكنه أقرب من مطار الجنوب الذي وصلنا إليه من طشقند وقدمت ذكره.

وفي المطار اطلعوا على جوازي وعلى الأذن لي أو (الفيزا) بالسفر إلى مدينة (مورمانسك) مثل جميع المسافرين فأركبونا في سيارة خاصة بالدبلوماسيين وكبار الزوار، ومعي الأخ الشيخ عبدالحميد بن محمد حسين من أهل طشقند ويجيد الروسية والأستاذ أيمن حبيب مدير تحرير في جريدة عكاظ فوجدنا الطائرة خالية وركبت في مكان مناسب منها لرؤية الأرض وهو الذي يكون بعيداً عن مسامتة جناح الطائرة الذي يحجب رؤية الأرض عن الراكب.

ثم ركب باقي الركاب حتى امتلأت بهم الطائرة وهي من طراز توبوليف ١٥٤ التي تقرب في الشكل ومقدار عدد الركاب من البوينج ٧٢٧.

ولاحظت أن معظمهم معهم المعاطف أو الألبسة الثقيلة أما أنا ورفيقاي فليس معنا إلا البدل الصوفية المعتادة فأوجست خيفة من البرد هناك لاسيما أن أهل موسكو الذين عرفوا بذهابنا إلى هناك حذرونا من برد (مورمانسك) فقلت في نفسي ما قال الأقدمون: ياويح مَنْ كفَّره الجاحظ!.

فإذا كان أهل موسكو يخشون برد (مورمانسك) ماذا يكون حالنا نحن أهل الجزيرة العربية التي يذيب حرها الحجر الصلد ويغلي منه دماغ الضب، كما يقول الأدباء القدماء؟ ولو كان الأمر هذا هو أمر ملابس ثقيلة إضافية لكان ذلك سهلاً علينا سواء من حيث المال، أو الاستعداد للحال، ولكننا لم نر من ذهب إليها في مثل هذا الوقت من السنة ولامَنْ يعرف عنها شيئًا ذا بال بل إنني فوجئت أنني أكثر معرفة بأحوالها قبل الذهاب إليها من أهل الإتحاد السوفيتي الذين سألتهم عنها، لأنني قرأت عنها مالم يقرؤا وهم مثلي - أيضًا - لم يذهبوا إليها من قبل.

وقد كان من بين الأوصاف التي وصفوها بها أنها أقصى حدود الاتحاد السوفيتي من جهة الشمال أي أن الإتحاد السوفيتي كله بقسوة برده، وشدة بُعْده واقع عنها جهة الجنوب.

من موسكو إلى مورمانسك :

لم يكن في الطائرة درجة أولى رسمية وإنما يجعلون من يكرمونهم في مقدمة الطائرة وقد يطلقون عليها إسم الأولى على اعتبار أنها تلي غرفة القيادة في الطائرة.

وأردت أن أطلب من الأخ عبدالحميد أن يسأل المضيفة عما إذا كنا سنصل المدينة قبل غروب الشمس بوقت كاف لرؤيتها في النور ثم انتبهت إلى أنني كنت غافلاً عن الحقيقة إذْ أنه ليس هناك غروب للشمس ولا شروق لها فيها.

رحلات الأماني:

كاتب هذه السطور من المغرمين بالسفر والاطلاع على أحوال البلاد النائية، وقد قدر الله له أن يكون عمله في ميدان يتطلب السفر والإرتحال منذ أن عُيِّن أمينًا عامًا للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة قبل ثلاثين سنة فرأى من بلاد الله الواسعة مالم يره أحد من أمثاله.

وكانت زيارة بعض البلدان أمنية من الأماني القديمة ومنها موضعان في الاتحاد السوفيتي تحققت زيارتهما في هذه الرحلة ولله الحمد والمنة، أولهما بلاد فرغانة التي ذكرها الأديب الشهير بديع الزمان الهمذاني معتبراً أنها الحد الأقصى لبلاد الإسلام في زمنه فقال ما معناه: إنك لو جبت مابين غانة إلى (فرغانة) ما وجدت مثله.

ولم تتحقق لي زيارة فرغانة إلا قبل أيام، وذكرت ذلك في كتاب: «يوميات آسيا الوسطى» وثانيهما: هذه البلاد التي لاتغرب عنها الشمس التي أسافر إليها الآن، وهما رحلتان من رحلات الأماني التي تحققت ولله الحمد.

هذا وقد لاحظت أن الركاب أكثر نضارة في الوجوه ونظافة في الثياب من أهل موسكو وكل الذين سألناهم وكانوا قريبين منا قالوا: إنهم من أهل مورمانسك.

وقد أغلقوا باب الطائرة ثم انقضت فترة طويلة قبل أن تتحرك الطائرة ولكننا لم نعان فيها من الحر ماكنا عانيناه منه في آسيا الوسطى إذْ كانوا يغلقون باب الطائرة مع شدة الحر وليس فيها صنابير للهواء ولا مراوح ولاتكييف فنشعر من شدة الحر والاختناق بأمر عظيم.

ولا أدري لم يغلقون باب الطائرة في الاتحاد السوفيتي قبل تحركها بفترة طويلة وكان الأولى بهم ألا يغلقوه إلاَّ عندما تريد التحرك بالفعل أو أن يجعلوا فيها ما يكون في الطائرات الأخرى من المراوح أو تكييف الهواء.

وكان عدد الطائرات الجاثمة في هذا المطار كثيراً، مثله في ذلك مثل المطارين الآخرين في موسكو التي تبدو كلها مليئة بالطائرات.

ثم قامت في الرابعة وسبع دقائق عصراً واعلنوا باللغة الروسية وحدها أن مدة الطيران ستستمر ساعتين ونصفا دون توقف مابين موسكو إلى (مورمانسك) وسيكون الطيران جهة الشمال القاصد أي غير المائل يمينًا أو شمالاً.

فحلقت في سماء منطقة العاصمة السوفيتية الخضراء التي سبق وصفها وكان المطر يجود هذه المنطقة التي لاتحتاجه الآن إذْ أصبحنا على جو غائم في موسكو لأول مرة منذ عدة أيام ثم انطلق المطر عند قيام الطائرة، فكان ينزل عليها فتحيله سرعتها إلى خيوط بيض ماتلبث أن تتلاشى في الهواء كما يتلاشى الشخص التائه وسط الزحام.

ولا أدري أيشكر أهل موسكو ربهم على هذه النعمة التي منعوا انفسهم بأنفسهم من الانتفاع بها الانتفاع التام كما ينتفع بها الأحرار في الاقتصاد من سائر الأقوام.

ثم اخترقت السحاب المطر وتجاوزته في العلو إلى جو صاح بل شامس لاترى فيه مايذكرك بالغيم أو السحاب إلا أكوامًا من ظهوره إذا رأيتها من الطائرة حسبتها الرغوة الطافية في الهواء أو القطن المنفوش الذي يكاد يموج بعضه في بعض.

ثم اعترضتنا سحب عالية واقفة كأنها الجبال وذكرت بذلك مشهداً جليلاً رأيته لمثل هذه السحب عند انبلاج الفجر ثم شروق الشمس فوق جواء جنوب المحيط الهادئ الجنوبي البعيد مابين جزر كوك وجزر تاهيتي، وقد ذكرت ذلك في كتاب: «تائه في تاهيتي».

أما داخل الطائرة فإنه كان هادئًا هدؤاً اعتدناه من ركابهم في طائراتهم وكان ذلك منسجًا مع حركة الطائرة نفسها فهي هادئة هدؤاً عجيبًا قل أن يوجد مثله

في طائرات البلدان الغربية وليس من عادة الركاب في هذه البلاد أن يقرؤا كتبًا في الطائرة كالكتب التي يحملها الغربيون معهم ويقرؤنها في الطائرة.

وقد احسست بحرارة الشمس وهي تخترق نافذة الطائرة مما يلي المقعد الذي أجلس فيه وكانت شديدة الحرارة لم أر بينها وبين شمسنا فرقًا مع العلم بأن درجة الحرارة على الارتفاع الذي يفوق ثلاثين ألف قدم مثل ارتفاع طائرتنا هذه تكون في العادة مابين ٤٠ إلى ٤٥ درجة مئوية تحت الصفر وتتساوى في ذلك البلدان الحارة والباردة عند ذلك الارتفاع أي سواء كانت الطائرة تحلق فوق بلاد حارة أو بلاد باردة على ذلك الارتفاع.

والذي جعلني أتضايق من حرارة الشمس في الطائرة في هذه البلاد الباردة أنهم لم يجعلوا ستارة من القماش أو المشمع أو حتى اللدائن على نافذة الطائرة فليس الا زجاج مزدوج شفاف معتاد.

وكانت ضيافة الطائرة كاسًا من شراب غازي اظنه الذي يسمى (سفن أب) أو شبيهًا به، وكنا طيلة اقامتنا في الاتحاد السوفيتي في الأيام الماضية نشرب ماء معدنيًا فيه غاز أضيف إليه إضافة فيما اخبرونا به، ولم نشرب ماء طبيعيًا لأنهم لايثقون في تنقية المياه عندهم إضافة إلى رخص المياه المعدنية.

واستمر السحاب الناصع البياض واستمرت الطائرة في هدوئها وهي تنطلق نحو الشمال القطبي وقد أعلنوا باللغة الروسية التي ترجمها لنا الأخ الشيخ عبدالحميد أننا سوف نصل بعد ساعة إلى مدينة مورمانسك وكانت الساعة هي الخامسة، كما أعلنوا أن درجة الحرارة خارج الطائرة تبلغ الآن اثنتين وخمسين درجة مئوية تحت الصفر.

هذا مع أن الشمس التي كانت تدخل من النافذة شديدة الحرارة إلى درجة أنها صدتني عن القرب من النافذة حينا مما حملني على أن أجعل بيني وبينها وقاية من القماش.

ولم يكن في طيران الطائرة ولا في داخلها من خدمة أو من شيء جديد، والمتعة الوحيدة هي الشعور بأن المرء مقبل على رؤية أرض غير معتادة حيث تسود فيها جواء غير طبيعية، ومن أهمها وأكثرها ظهوراً هذه الشمس التي لاتغرب عن الأرض طيلة الوقت في هذه الأيام من السنة. والمنظر الخارجي من الطائرة السائد في أكثر الوقت كان سماءً زرقاء، وغيماأبيض.

وقبل الوصول انقشع السحاب فبانت الأرض من تحتنا ذات بحيرات ومناقع مياه متعددة.

فوق منطقة قطبية :

ومع مافي هذا العنوان من غرابة وإثارة للاهتمام، فإنه كان صحيحًا، وإن لم يكن المنظر من الطائرة يوحي بمايدل على ذلك إلا المزيد من رؤية البحيرات الصغيرة ومناقع المياه الموجودة في كل اتجاه تنعكس عليها اشعة الشمس هنيهة ثم ماتلبث أن تنطفئ.

وبعد ساعتين إلا عشر دقائق من الطيران بدأت الطائرة في التدني من عليائها في جو صاح إلى أرض مليئة بالمستنقعات إلاَّ أن الأماكن المرتفعة فيها كانت تجللها الثلوج مع أننا الآن في أشد أيام الصيف حراً ويمكن أن يقال فيه: إنه أشد أيام الصيف دفئًا في هذه المنطقة، وكانت الأماكن التي تركبها الثلوج تلالاً غير عالية، ومرتفعات قريبة، وأما الجبال العالية فإننا لم نر منها شيئًا وإنما كان الثلج يختلط في النظر من الطائرة بالبحيرات المتعددة التي اخذت أشكالاً متفاوتة حسب انخفاض الأرض وموقعها من الأماكن المرتفعة التي تغطيها الثلوج، وبعضها يتخذ شكل الخلجان، وربما كان خليجًا من بحر داخل في الأرض.

واعلنوا أن درجة الحرارة في مطار مورمانسك تبلغ الآن سبع درجات مئوية فوق الصفر وهذا أمر مفرح لنا لأننا كنا خشينا عندما رأيت الثلوج في الأرض أن يكون الجو أشد برودة غير أننا شعرنا بعد فوات الأوان أن الثياب التي نرتديها لاتكفي لهذه البرودة.

وقبل الوصول إلى مدينة (مورمانسك) قلّت الثلوج في الأرض، ولاشك أن ذلك راجع إلى كون موقع المدينة منخفضًا بالنسبة إلى ما قبلها لأنها ميناء على البحر وهو هنا المحيط المتجمد الشمالي ولكن مياهه الآن غير متجمدة.

وقد فوجئت لأسفي الشديد بوجود غيوم فوق مدينة (مورمانسك) وعندما نزلت الطائرة تحت الغيوم اتضحت منطقة المدينة ذات مستنقعات متعددة ونهر يسرع في جيرانه إلى البحر وثلوج في الأماكن المرتفعة وهي ذات أشجار غير نضرة تبدو مصفرة اللون فليس فيها ما هو أخضر شديد الخضرة ريان، بل إنها تبدو كالأشجار العطشى مع أن العطش هنا غير وارد لكثرة المياه في الصيف والثلوج في أكثر فصول السنة.

ولم نر في المنطقة التي حول المدينة أية زراعة حقلية أو نحوها وإنما خضرتها كلها أشجار غير نضرة من أشجار الغابات.

في مطار مورمانسك :

هبطت الطائرة في مطار (مورمانسك) في السادسة تمامًا في مطار نظيف ممتد المدارج، وحول المدارج اعشاب برية قصيرة غير ملتفة وترى منه أشجار قصيرة القوام أي غير مرتفعة.

وعندما نزلت أخذ الركاب يرتدون الملابس الثقيلة التي كانت معهم، ويلبسون أطفالهم ملابس ثقيلة أيضًا وكانوا تخففوا منها في موسكو.

وبدت أبنية المطار ممتدة ولكنها متواضعة غير مرتفعة وإن كانت نظيفة وتلال ذات أشجار من أشجار الغابات باهتة، فليست في نضارة الأشجار الخضر التي تبدو ريانة في موسكو والموظفون الذين في المطار ومنهم الذين أقبلوا إلى الطائرة عليهم المعاطف الثقيلة واللفاعات، وهي التي تشبه المناديل الصوفية المستطيلة تلف على العنق لتقيه البرد.

استقبال رسمي :

رأيت من النافذة رجلاً من رجال الدين المسيحي عليه الملابس الرسمية المسيحية بيده باقة من الزهور معتني بها ومعه رجلان وامرأة وهم يتقدمون من سلم الطائرة فقلت للأخ عبدالحميد إن معنا في الطائرة ضيوفا يستقبلونهم استقبالاً رسميًا فقال: هذا الاستقبال لك، ولم يكن اخبرني قبل ذلك بأن زيارتي إلى مدينة (مورمانسك) صارت ذات طابع رسمي، وإنما كنت أظن أنها زيارة سياحية خاصة.

غير أنني عرفت أن الأمر كما قال عندما أوقفوا جميع الركاب عن النزول وطلبوا مني أن أنزل من الطائرة، وهذه عادة لهم في الاتحاد السوفيتي وهي أن لايسمحوا لأحد من ركاب الطائرات بالنزول منها قبل أن ينزل الضيوف ولا بالصعود إليها قبلهم.

فنزلت ونزل معي رفيقاي فتقدم رجل الدين المسيحي وهو خوري اسمه جريجورى كوزاك وهو رئيس رجال الدين في المدينة ورتبته (ميترو خوري) وصافحني وقدم إليَّ باقة الزهور التي يحملها ثم سلم علينا مرافقوه ومنهم ممثل مجلس الأديان الذي هو بمثابة وزارة مهمة في الاتحاد السوفيتي واسمه فلاديمير نيكولاي، ومندوبة من تلفاز مورمانسك أو من التلفاز السوفيتي موجودة في (مورمانسك) وممثل لمدينة مورمانسك.

ثم صحبونا جميعًا إلى غرفة كبار الزوار في المطار بينما أمروا موظفين في المطار بإحضار امتعتنا من الطائرة.

ومما يجدر ذكره أنه رغم مظاهر عدم الاتصال ومظاهر ضرورة الحصول على سمة دخول للجمهوريات أو المدن السوفيتية فإن البلاد كلها منطقة جمركية واحدة بمعنى أنه لاتفتش أمتعة من انتقل فيها من مكان إلى مكان آخر.

وفي قاعة كبار الزوار في المطار وهي جيدة مؤثثة تأثيثًا حديثا ذكروا لي أن تنظيم المطار هذا التنظيم الحالي هو جديد وكرروا الترحيب بنا.

أول من جاء من المسلمين :

وقالوا وفيهم رجل الدين المسيحي وممثل مجلس الأديان وممثل بلدية (مورمانسك) إنكم أول وفد من المسلمين نستقبله استقبالاً رسميًا في هذه البلاد فلم يزر منطقتنا هذه قبلكم أي وفد إسلامي من أي بلد مسلم كان.

وإن كان قد زارها أشخاص قبلك من الذين ذكرناهم، فإن زيارتهم لم تكن رسمية ولم نعرف عنها شيئًا مع أن هذه المنطقة مهمة لأن فيها قاعدة عسكرية للجيش السوفيتي وكل شخص مهم يصلها لابد أن يكون لدى الإدارة فيها علم عن وصوله.

قالوا: وهذه فرصة لكن يعرف فيها المواطنون من أهل هذه المدينة شيئًا عن الدين الإسلامي وأثره على الفرد والمجتمع فلم يسبق أن سجل أو اذيع حديث ديني إسلامي في تلفاز هذه البلاد.

حديث عن الإسلام :

هيأ الجميع أنفسهم لاجراء حديث تلفازي معي، وكان مصورو التلفزة يرونهم كيف يكون جلوسهم، ثم تقدمت المذيعة التلفازية فسألتني عن الغرض من قدومنا إلى هذه المدينة؟ فأخبرتها أنه غرض سياحي بالدرجة الأولى وأننا كنا في هذه البلاد السوفيتية فشعرنا بالصداقة من الشعب السوفيتي للشعب العربي كما شعرنا بالترحيب في أي مكان حللنا به من هذه البلاد.

فسألتني عن المناطق التي زرتها من الإتحاد السوفيتي؟ فأخبرتها أنها المناطق الآسيوية المسلمة وجمهورية (بشقردز ستان) وذلك أنني أعمل في رابطة العالم الإسلامي، ومهمة الرابطة هي توثيق العلاقات الثقافية الإسلامية بين المسلمين في العالم، والتعاون تعاونا ثقافيًا إسلاميًا خاليًا من الأغراض السياسية أو إرادة التدخل في الأمور الداخلية للدول.

وهذا هو ماتعمله الرابطة في جميع أنحاء العالم.

فسألتني عن الإسلام وأثره في الفرد والمجتمع؟ فأجبت بذكر كلمة مختصرة عن مبادئ الإسلام وكانت قد قالت: إن المقابلة ستستغرق ربع ساعة ولكنها استمرت إلى أكثر من ذلك، وقلت وأنا أعرف أن الكلام سيكون في الحقيقة لجميع سكان هذه المنطقة الذين يشاهدون التلفاز: إن الإنسان لاتقتصر حاجاته في هذه الحياة على المأكل والمشرب ونحوهما من الحاجات الجسدية ولو كان كذلك لما كان هناك فرق بينه وبين الحيوان الذي يأكل ويشرب ويموت، وإنما الإنسان كائن حي راقٍ يحتاج إلى غذاء روحي يجلب الطمأنينة والهدؤ إلى نفسه ويعطيه السعادة الروحية التي يحتاجها والإسلام يوفر له ذلك.

إضافة إلى أن الإسلام جاء بالأمر بحسن المعاملة مع الآخرين وبالصدق والأمانة وعدم الغش وعدم إيذاء الإنسان أو حتى الحيوان.

فقالت : إذاً ما هو قولكم في الاضطرابات التي نسمع بها بين الحين والآخر بين المسلمين أنفسهم في مناطق الجمهوريات الإسلامية من بلادنا السوفيتية؟

فقلت : إنني لم أسمع بالتفصيل عن تلك الاضطرابات وكنت سمعت شيئًا مما جرى في جمهورية تاجيكستان قبل أيام من اختلاف ونزاع بين الاكثرية الناجيكية والاقلية الأوزبكية في تلك الجمهورية من دون أن أعرف تفاصيلها فقلت: إن الاختلاف بين الناس أمر في طبيعتهم ولكن المهم أن يرجعوا عند الاختلاف إلى المنابع الثقافية لهم وهي عند المسلمين الرجوع إلى أوامر الدين الإسلامي وما تتقضيه من فض ذلك النزاع وقد بلغنا أن الإخوة المسلمين في الجهات التي ذكرتيها قد رجعوا عنها وزالت تلك الاختلافات بالفعل.

وهنا قالت: والآن سوف أسالك سؤالاً أخيراً وإن كان غير مهم، ثم سألت وهي تبتسم قائلة: هل أحضرتم معكم إلى منطقتنا هذه ملابس ثقيلة؟

وذلك أنها لاحظت أن ملابسنا معتادة ليس فيها معاطف ثقيلة من التي مع الناس ومنهم هي وجميع المستقبلين الذين كانوا يجلسون معنا وإن كانوا قد أبعدوها في الجلسة لأن أبنية المطار مدفأة.

ولم يكن بالمستساغ مني أن أنفي ذلك لأنه سيدل على سؤ التقدير مني وعلى عدم السعي للحصول على المعلومات اللازمة عن المنطقة قبل الوصول إليها، ولا أن أقول غير الحقيقة وهي أننا لانحمل تلك الملابس الثقيلة فأجبتها بقولي: هذا السؤال شبيه بالسؤال التي يوجهه الناس عندنا إلى الذين يحضرون إلى بلادنا في فصل الصيف من الضيوف الأجانب حيث يقولون لهم: هل أحضرتم معكم إلى بلادنا ملابس خفيفة؟ فضحك الجميع وانتهت المقابلة التلفازية بأكثر مما قدر لها بخمس دقائق.

في مدينة مورمانسك :

أركبونا في حافلة صغيرة جيدة لم تستعمل إلا قليلاً واجلسونا مع الخوري جريجوري كوزاك على مائدة مثبتة في داخل الحافلة بحيث تتحول إلى ما يشبه غرفة الاجتماع الصغيرة، وذكروا أن هذه السيارة لجمعية اقتصادية دينية، وهذا فيه تجوز لأن الجمعيات الاقتصادية غير مسموح لها حتى الآن بالعمل في الإتحاد السوفيتي وإنما تكون للجمعيات المعترف بها مثل الإدارة الدينية وإدارة رعاية الكنائس سيارات أو أشياء تستعملها وتستفيد للجمعية لا للأفراد مما قد يأتي منها من دخل.

وتبين بعد ذلك أن هذه السيارة ليست للكنيسة التي يرأسها أو يرعاها كما يقولون.

مدينة الشاطئ الشمالي :

انطلقت الحافلة متجهة إلى مدينة (مورمانسك) التي تقع على بعد ٣٧ كيلو متراً من المطار ومعنى اسمها باللغة الروسية الشاطئ الشمالي الذي يراد به شاطئ الاتحاد السوفيتي من جهة الشمال.

وقد أسست قبل ٧٤ سنة ويبلغ عدد سكانها (٥٠٠) ألف نسمة.

وانطلقت السنة مضيفينا بالكلام لاسيما بعد أن انطلقت ألسنة ضيوفهم بالسؤال.

وصرنا نسبح في جو من الغرابة الذهنية والحسية لايقدر المتعة منه إلا من كان شغوفا بالغرائب متطلعًا للعجائب.

وتقع (مورماسك) ومنطقتها في شبه جزيرة فليست جزيرة كاملة.

أقزام الأشجار :

مررنا بأشجار من أشجار الغابات المصفرة فقال رئيس شئون الأديان: إن أشجارنا كما ترون قصيرة رغم كونها معمرة فبعضها يبلغ عمرها مائتي سنة وبعضها أقل من ذلك ولكن عمرها يمتد إلى أكثر من مائة سنة ومع ذلك ترونها قصيرة كأنها الأشجار التي مضى عليها سنتان فقط في البلدان الحارة، وقال حتى طولها بمعنى ارتفاعها يكون محدوداً مهما بلغت من العمر.



أقزام الأشجار على نهر كوالا المتدفق بين مورمانسك والمطار

وذلك - فيما يقولون - لقصر المدة التي تورق فيها وتشب فهي لايكون عليها ورق إلا لأقل من شهرين في السنة وحتى في هذين الشهرين يكون الجو بارداً فأكثر أيام السنة دفئًا هي هذه الأيام التي أتيتم إلينا فيها ودرجة البرودة

كما ترون هي الآن تبلغ خمس درجات فوق الصفر وإذا لم يتمزق السحاب وتطلع الشمس عند منتصف الليل وهبت ريح شمالية فإن البرودة تنخفض إلى درجتين أو ثلاث فوق الصفر، وحسب تقرير مصلحة الأرصاد الجوية فإن الجو الليلة سيكون أبرد من أول النهار مع الأسف.

وعلى ذكر الجو قال: لقد كان المطر غزيراً خلال الأيام الثلاثة الماضية وقد وقف هذا اليوم بفضل قدومكم، فقلت لنفسي ولصاحبيّ اللذين لايفهم لغتي غيرهما: استغفر الله من هذا الكلام.

ولا زراعة :

وقالوا: إن مدينتهم ليس فيها زراعة أصلاً وكل الذي يحتاجونه من الغذاء يأتيهم من المركز يريدون بذلك (موسكو) إلا السمك فإنه عندهم كثير ورخيص وبأنواع جيدة قالوا: وحتى الحيوان فإنه لايوجد عندهم أي حيوان نافع إلا قليلاً من المركز يجلب إليهم علفها من موسكو.

وذكروا أن في مدينتهم هذه معادن وهي ميناء شمالي مهم للأتحاد السوفيتي وقال لي الخوري جريجوري بعد ذلك: لقد عملت في سيبريا لمدة عشر سنوات وعملت هنا والعمل هنا احسن بكثير من سيبريا لأن درجة البرودة في الشتاء تبلغ هنا ٢٨ إلى ٣٠ درجة مئوية تحت الصفر، وفي سيبريا من ٤٥ إلى ٥٠ درجة تحت الصفر، والسمك هنا متوفر بكثرة وبأسعار رخيصة ولايوجد في سيبريا كما لايوجد فيها سمك رخيص مثل رخصه هنا.

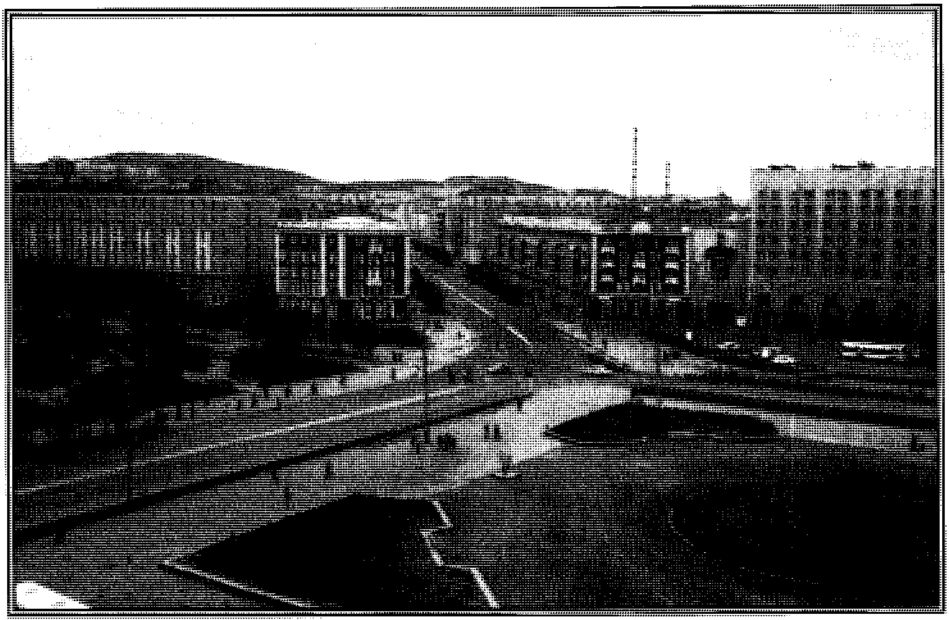
قرية كوالا :

مر الطريق فوق نهر يسرع في جريانه إلى البحر فقالوا: هذا هو نهر (كوالا) ويصب في البحر المحيط الشمالي بالقرب من ميناء مدينة (مورمانسك) وبجانبه هذه القرية التي تسمى كوالا أيضًا على اسم النهر.

وكان يسكن في هذه القرية منذ ماقبل اربعمائة سنة وإلى عهد قريب شعب من شعوب الشمال يسمى (سامي) ولا علاقة لهذا الاسم بالساميين الذين منهم العرب واليهود، وهو شعب من الصيادين ليس له ثقافة ولا دين.

وهذا الشعب هو أول من عرفه التاريخ من سكنة هذه المنطقة فقبله أي قبل اربعمائة سنة لم يعرف أن أحداً سكن هذه البلاد.

قالوا: وهو شعب قصير القامات: فقلت: ربما كان لذلك علاقة بقسوة الطقس، وأنه أثر فيهم كما أثر في هذه الأشجار التي تستمر قصيرة رغم كون أعمارها تبلغ مائتي عام، ولم يفهموا هذا التعليل، بمعنى أنه لم يكن في أذهانهم من قبل.



احد ميادين مدينة مورمانسك صورة التقطها المؤلف عند منتصف الليل الشامس

هذا وقد ران على الشمس سحاب منعنا من رؤيتها ونخشى أن يحين وقت غروبها في موسكو وهو قبل الحادية عشرة ليلاً بقليل، فلا نتمكن من رؤيتها مشرقة في نصف الليل.

الفندق القطبي :



فندق ارتيكا الذي نزلنا فيه في مورمانسك

وصلت السيارة إلى مدينة (مورمانسك) وقصدت تَّواً فندقًا رئيسيًا فيها جيداً اسمه (ارتيكا) ومعناها القطب، ومن أولى بهذه التسمية من مدينة هي أقرب المدن المعمورة من القطب؟ بل واقعة في المنطقة القطبية بل قالوا: إن القطب أقرب الينا من موسكو فموسكو تبعد عنهم جهة الجنوب بألف وثمانمائة كيلو متر، والقطب لايبعد عنهم جهة الشمال إلا الفًا واربعمائة كيلو متر.

ومثل هذه المسافة تمامًا يفصلهم عن مدينة (لينين قراد) فهي أقرب إليهم من موسكو بأربعمائة كيلو متر فهم يعتبرون في نهاية العالم كما يقولون عن أنفسهم.

وهذا الفندق في غاية التنظيم بالنسبة إلى الفنادق في الإتحاد السوفيتي.

وقد شعرنا بالبرد الشديد عند النزول من السيارة وإلا فإن الفندق فيه تدفئة جيدة حتى إن عند مدخله بابين له أحدهما خلف الآخر من أجل إلا يتسرب

الهـواء البـارد عـند فـتح البـاب وقـد جـعلوا هـواء حاراً يـنبـعث من انابيب تحت الأرض يدفئ مـدخل الفندق ومع ذلك شـعـرنا بالبـرد الشـديد وعـرفنا أننا قـد أخطأنا التقدير في عدم إحضار ملابس ثقيلة معنا إلى هذه البلاد.

هذا مع أننا في أكثر فـصول السنة دفئًا عندهم وهو آخر شهر يونيو، وهذا الدفء هو نـسـبي والا ّفـإنه الآن في مـثل برودة أوروبا الشـمـاليـة كـبـريطانيـا وفرنسا في فصل الشتاء.

الثلج الأزلي :

رأينا قطعا قليلة من الثلج في الأماكن المرتفعة من المدينة فقالوا: إن هذا الثلج مثل الذي رأيتموه من الطائرة هو ثلج أزلي لايذوب أبد الدهر لأن الثلوج الأخرى التي تكون في الأماكن المنخفضة تذوب في هذه الأيام، وأما هذه الثلوج الباقيـة ونحن الآن في أشد أيام الصـيف دفئًا فـانها لاتذوب أبداً وسـرعـان ما تنزل عليها الثلوج الجديدة فتركبها.



أحد ميادين مورمانسك

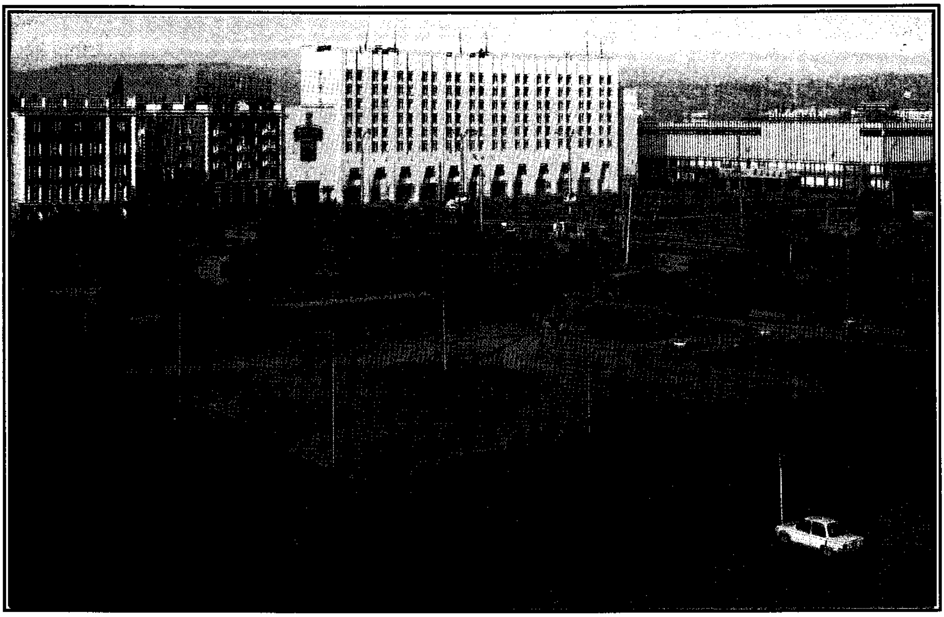
الليل والنهار سواء :

عقدنا جلسة معهم في الفندق للبحث في برنامج الزيارة فقالوا لنا : إن بلدتنا كما ترون ليس فيها ليل ولا نهار وإنما الزمن كله نهار ولذلك لم نضع فقرات البرنامج قبل قدومكم مفضلين أن نبحثه معكم ونحن على استعداد لأن نمضي فيه ليلاً أو نهاراً لأن الجولة فيما حول المدينة ستكون في النور سواء في الليل والنهار فإذا أحببتم أن تكون الجولة بعد منتصف الليل فإنكم سترون من المدينة ماترونه منها في النهار ثم اتفقنا معهم على أن تكون الجولة بعد العشاء في حوالي الساعة العاشرة والنصف ولايمكن أن نقول في وصفها إنها في الليل فالوقت كالنهار وإنما نقول: إنها العاشرة والنصف بعد الظهر.

ثم تركونا لاستراحة في الفندق على أن يعودوا إلينا في الثامنة والنصف.

وانزلونا في غرف جيدة نظيفة فيها مايكون عادة في فنادق الدرجة الأولى الجيدة من الأثاث والصابون والمناشف، أما التدفئة فإنها شديدة الحرارة إذا وضع الإنسان يده على مصدر التدفئة ولكنها لاتكون كذلك إذا ابتعد عنه إلى سائر الغرفة وليس ذلك من اتساع الغرفة وإنا هو من شدة برودة الصيف في هذه البلاد.

وكانت غرفتي في الطابق السابع تطل على ميدان واسع مهم أمام الفندق يسمونه ميدان (كونتانستوتوتيا) أي الدستور.



ميدان الدستور السوفيتي في مورمانسك

وقد التقطت صوراً له من نافذة الغرفة وكذلك لجانب من البلدة هي التي نراها مع هذا الكلام.

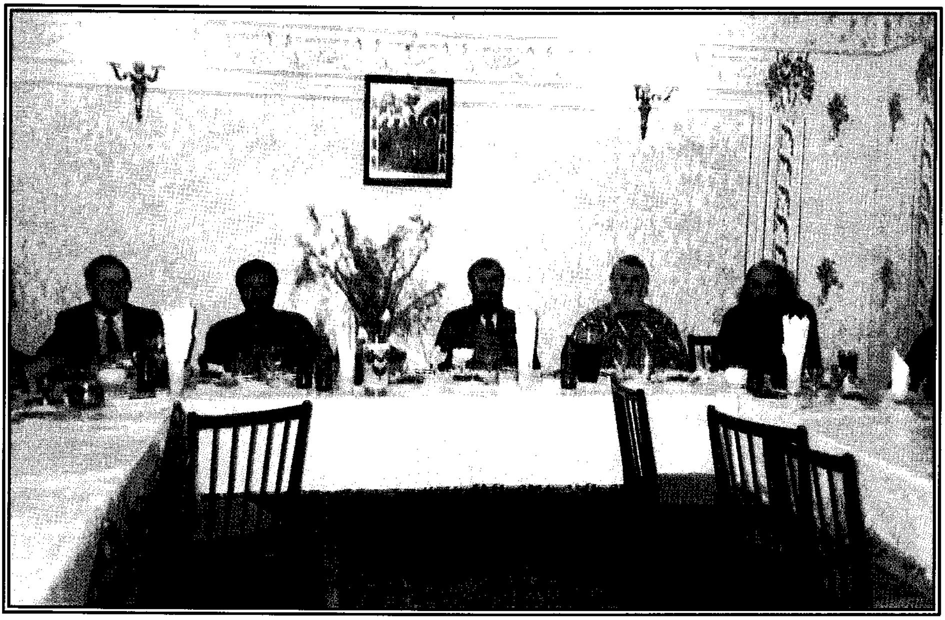
وكان الميدان هذا فيه اناس كثير وطيور النورس تقع وتطير بين الناس دون أن تستوحش لأنها لاتذار، مما ذكرني منظرها بمنظر طيور نورس أخرى في مكان بعيد كل البعد عن هذا الطرف الأرضي الشمالي ألا وهو مدينة كيب تاون عند رأس الرجاء الصالح في أقصى القارة الإفريقية جهة الجنوب.

عشاء أهل الدين :

عادوا إلينا في الثامنة والنصف وقالوا: لقد طلب رئيس الكنيسة هنا الخوري جريجورى ويسمونه هنا (الاب ريجورى) أن يكون عشاؤكم في بيته للجامع الديني الذي يجمع بينكم.

فقلت لهم : إن القرآن الكريم نص على أن النصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا فقال: (ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون).

وقد حضر رئيس بلدية مورمانسك واسمه (يفيقيني كلمينو) إلى بيت رئيس الكنيسة وشاركنا العشاء فيه مع عدد من المسئولين ومنهم نائب رئيس الكنيسة وممثل شئون الأديان.



على مأدبة الغداء، المؤلف في الوسط على يمينه الاستاذ أيمن حبيب فرئيس شئون الاديان وعلى يساره الخوري جريجوري كوزاك

وأخذ رئيس البلدية يحدثنا عن مدينته مدينة (مورمانسك) حديثًا يبدو معتاداً له، ولكنه بالنسبة إلينا مما تقشعر منه الأبدان لأننا كنا نرتعد برداً في هذا الصيف عندهم فكيف بها في غيره؟ بل كيف بها في الشتاء إذا غابت الشمس وعم الظلام وعتا الجو؟

وقال: لقد حاربت مدينتنا حربًا مستيمتة خلال الحرب العالمية الثانية وخربها الألمان ولكن المقاومة التي ابدتها المدينة جعلتها تستحق أن تحمل لقب المدينة (البطلة) الذي اطلقه عليها المسئولون في الإتحاد السوفيتي تقديراً للشجاعة التي أبدتها في مقاومة الغزاة الألمان.

حديث عن الدين :

تحدث الخوري جريجوري إلينا على العشاء عن الحالة الدينية في هذه المدينة وحديثه كان بحضور المسئولين الحكومين المختصين بهذا الأمر مثل ممثل مجلس الأديان الذي هو رئيس الشئون الدينية في المنطقة وليس المراد بذلك أنه مسئول أو معني بتنمية الأديان وتشجيعها وإنما هو مسئول عما يتعلق بتطبيق سياسة الدولة تجاه الأديان، ورئيس البلدية الذي هو ممثل السلطة الرسمية قال الخورى: لقد عانينا كما عاني غيرنا من طغيان الإلحاد في هذه المدينة ومن الظلم الذي لحق بالأديان على أيدي الملحدين، وكان الضغط شديداً علينا حتى لم يكن بالإمكان آنذاك مجرد التفكير بإمكانية بناء كنيسة في المدينة وذلك حتى آخر السبعينات ثم أتيحت فرصة للمتدينين في المدينة أن يبنوا هذه الكنيسة فبنوها في فترة قياسية وهي مدة سنتين وكلها بنيت من تبرعات المتدينين مثلما أنها الآن تدار شئونها من تبرعاتهم.

وذكر أن اسمها كنيسة (سانت نيكولاي).

وقال : عندما نادى الرئيس جورباتشوف بسياسة إعادة البناء (البروستريكا) قام المتدينون ببناء كنيسة ثانية في مكان مقارب لمكان هذه الكنيسة.

وكان يحدثنا من بيته القريب من الكنيسة وان كان يفصل بينهما فاصل من الفراغ.

وذكر أن عدد المتدينين الذي يحضرون الصلاة في الكنيسة بازدياد حتى إنه كان يحضر الصلاة في بعض الأحيان عدد يقرب من ثلاثة الآف، قال: وفي العيد الكبير يكون العدد أكثر من ذلك هذا مع العلم بأنني عندما رأيت مكان الصلاة في داخل الكنيسة لم أره يزيد على أن يتسع لأكثر من خمسمائة مصلٍ.

وجدناهم وضعوا على المائدة مقدمات الطعام من شرائح سمك السلمون المدخن اللذيذ، ومن أنواع أخرى من السمك ثم جاؤا بالأطباق الرئيسية وهي

كلها من السمك، ولكنه أنواع مختلفة يجمع بينها السخاء في المقدار واللذة في الطعم وقال: كل مافي هذه المائدة من السمك وليس فيها شيء من اللحم إطلاقًا فتستطيعون أن تأكلوا منها من دون أن تتحرجوا.

وجاؤا مع السمك بالأرز والبطاطس المطحون وبنوعين من الخبز والزبدة وشيء من سلطة الطماطم والخيار وقالوا يؤكدون ماتقدم: إن كل ما على هذه المائدة هو مجلوب من المركز يريدون بذلك موسكو إلا السمك فإننا نرسله إلى المركز وهنا مصنع كبير لتعليب السمك في المدينة وذلك لكثرة مايصطاد منه من مياه هذا المحيط الشمالي الذي تقع عليه مدينتنا وذكروا أن هناك اسطولاً حكوميًا ضخمًا مخصصًا لصيد الأسماك وجلبها إلى هذه المدينة ثم تصديرها منها إلى موسكو وغيرها من أنحاء البلاد السوفيتية.

وكان يقدم الطعام ونحن جالسون على المائدة امرأتان قدم احداهما على أنها زوجته وقال: إنه رزق منها بخمسة أولاد والأخرى من العاملات عنده وكان إعداد الطعام جيداً وترتيب تقديمه أجود، والصحون والملاعق ونحوها ممتازة.

وبعد العشاء أحضروا القهوة فكان عشاء لذيذاً يصلح زاداً لجولة في مدينة باردة ولكن كان الأكثر متعة منه ما حصلنا عليه من معلومات عن أحوال هذه المنطقة.

ثم صحبونا لرؤية الكنيسة وقد بنيت بناء جيداً حتى إن واجهتها مصبوغة ببعض الأصباغ الذهبية التي لا أدري أهي من الذهب الخالص أم من معدن أصفر آخر ولكنني سألتهم عما إذا كان ذلك من الذهب؟

فقالوا : نعم.

وليس داخل الكنيسة واسعًا وقد قدرت سعته لما بين اربعمائة إلى خمسمائة شخص وتركبها قبة عالية ذكروا أن ارتفاعها ١٥ متراً.

وفي داخل هذه الكنيسة صورة زعموها للسيد المسيح عليه السلام وذكر الخوري قصتها لنا قائلاً إن القيصر فلان كان يبغض المسيحيين وأنه رأى صورة

للسيد المسيح فرفسها برجله وحطمها ولكنها ارتسمت على فراش كان معلقاً في مكان كذا، وذكر اسم المكان، لذلك نحن المسيحيين نرسم هذه الصورة على المناديل وعلى السجاد ونعلقها في الكنائس ونحوها من الأماكن الدينية المحترمة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الكنيسة تتبع المذهب الاورثوذكسي وليست بروتستانتية كما أنها ليست كاتوليكية تدين بالولاء لبابا الفاتيكان.

جولة في مدينة مورمانسك :

قبل الجولة احضروا لنا ملابس ثقيلة هي معاطف مبطنة بالفراء قائلين: إنه يصعب عليكم تحمل البرد اثناء الجولة بملابسكم هذه لاسيما أننا سنذهب إلى أماكن مرتفعة مما حول المدينة تنزل درجة البرودة فيها عما هي عليه في المدينة.

وعندما ألبسوني ذلك اللباس قلت لهم: إنني أشعر بأنني أستطيع الآن أن أتجول في القطب نفسه بهذه الملابس وليس في مدينة مورمانسك، كما ألبسوا ملابس ثقيلة للشيخ عبدالحميد بن محمد حسين مرافقنا الذين كان بمثابة لساننا الناطق في الحقيقة وبمثابة أذننا السامعة لأنه كان يترجم كل ماذكرته مما قلناه وقيل لنا من الروسية إلى العربية، ما عدا كلمات وجملاً من الإنجليزية ليست بذات بال تبين أن سائق السيارة يعرفها دون غيره من الموجودين.



مع رئيس شئون الأديان في مورمانسك فلاديمير نيكولاي بالملابس الثقيلة

بدأت الجولة في العاشرة والنصف من بعد الظهر على الحافلة نفسها التي كنا عليها وقد امتلأت بالمرافقين وكان منهم رئيس البلدية (يفيقيني كلمينو) وممثل الأديان (فلاديمير نيكولاي) والخوري (جريجورى كازاك) ونائبه وعدد من المرافقين.

وقد غير الخوري ملابسه الكهنوتية بأخرى مدنية وقال: هذه الملابس هي التي البسها هنا وتكفيني حتى في شتاء هذه المنطقة وذكر أن أصله من أوكرانيا وعمل في سيبريا عشر سنين ثم في هذه المدينة ٧ سنوات.

وكان أول مالاحظناه أن المدينة مرتبة منظمة وأن الاشارات الضوئية التي تنظم المرور فيها كثيرة لعدم وجود جسور أو انفاق فيها شأنها في ذلك شأن أكثر الشوارع في المدن السوفيتية حيث تقل الجسور والانفاق وإن تكن موجودة في المدن الكبيرة.

وأهلها الذين رأيناهم في الشوارع أكثر نضارة من أهل موسكو وكلهم من البيض الشقر فلم أر بينهم من هو أسمر وكأنما المرء يرى بعض البلاد الاسكندنافية كالسويد مثلاً، فالغلظ الموجود في أبدان بعض الروس من أهل موسكو وما جاورها لم أره هنا، والعجائز وكبار السن غير موجودين ولما أبديت هذه الملاحظة للمرافقين ذكروا أنها صحيحة وذكروا أن كبار السن لايتحملون العيش في هذا الجو العابس المظلم في أكثر السنة ولذلك يرحلون إلى الجنوب ويهجرون هذه المدينة.



المؤلف في أحد الشوارع الجميلة في مورمانسك

ووسائل المواصلات فيها كثيرة من الحافلات المعتادة إلى العربات الكهربائية التي يسميها المصريون (الترووللي باص).

معهد الصيادين :

وقفنا عند بناء متسع مهم في هذه البلاد ذكروا أنه يسمى (معهد الملاحين) يلتحق به الصياديون الذين يراد بهم صيادو السمك وهو أكثر عمل هذه المدينة بل إن السمك هو المحصول الرئيسي الذي تنتجه هذه المدينة، ويقول بعض أهلها: إنه الذي يحمل الناس على السكنى فيها لوفرته ورخص أسعاره وتعدد أنواعه.



عند تمثال الدب القطبي في مورمانسك

وقد زينوا واجهة معهد الملاحين بتمثال ضخم للدب القطبي الأبيض الذي تشتهر به البلاد الروسية، بل إنه صار رمزاً على الاتحاد السوفيتي، وهو تمثال كبير بحيث وقف حوله وعلى أكتافه طائفة من المرافقين من أجل التصوير، ثم انطلقت الحافلة الصغيرة النظيفة في شوارع (مورمانسك) التي ينبغي أن نتذكر أن معنى اسمها هو الشاطئ الشمالي الذي يراد به الشمال الروسي البعيد.

الملعب المركزي :

مررنا بالملعب المركزي في المدينة وهو متوسط السعة رغم اشتهار الإتحاد السوفيتي بالولع بالرياضة بأنواعها.

وهو ملعب مكشوف سألتهم عن كيفية البقاء فيه في البرد فأجابوا بأنه مخصص للتزلج على الجليد وما عليهم لكن يكون كذلك إلا أن يصبوا فيه ماء فيتجمد ويتزلجون عليه.

ثم واصلنا السير في شوارع هذه البلدة الغريبة إلاَّ في أناسيها فإن أشكالهم لاتبدو غريبة في أعيننا.

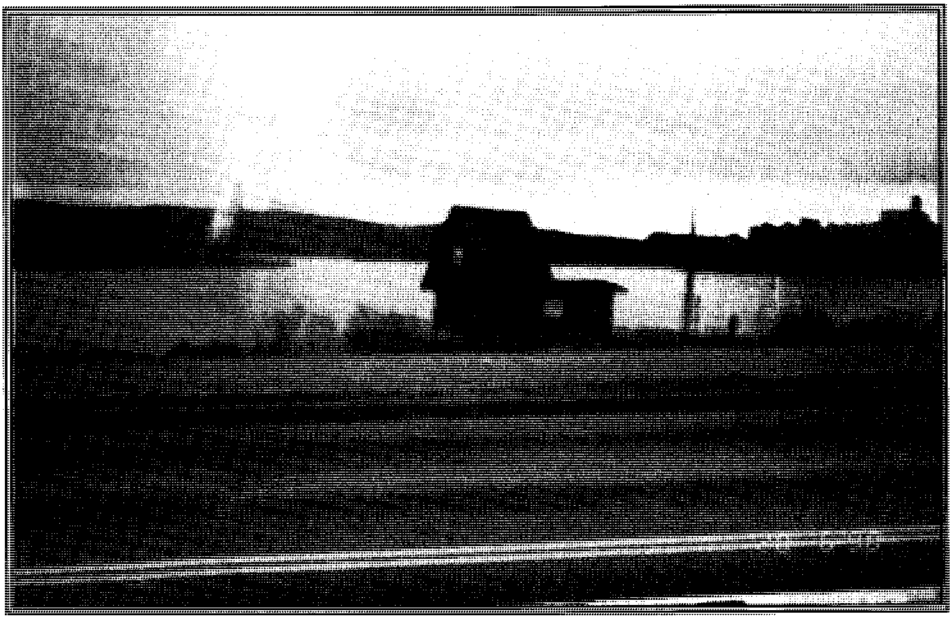
وكان من الأشياء التي اقشعر لها جلدي من البرد في الخيال منظر أحياء جديدة من المدينة بنوها على تلال مرتفعة وكانت الريح الباردة تلفح وجوهنا فتصورت هذه الأماكن المرتفعة في الشتاء القارص فذكروا أن السبب في بنائها في هذه الأمكنة العالية أن الأرض في الوديان ليست قوية بحيث تحمل هذه المنازل المتعددة الطوابق التي هي من الأبنية الحكومية التي تجعلها شققا سكنية صغيرة تؤجرها للناس.

وأرض المدينة ليست مستوية بل هي مؤلفة من تلال غير عالية ومن أماكن بينها كالوديان وليس فيها جبال إلاَّ في مكان بعيد عن النظر.

أول بيت في المدينة :

ذهبنا إلى منطقة قريبة من ميناء المدينة وإن كانت مرتفعة فيه، لأن موقع الميناء منخفض بالنسبة إلى أماكن مرتفعة تحيط به وذلك لرؤية بيت منفرد

وحده يسمونه (بيت سيمون) وهو الشخص الذي أقام أول بيت في هذه المدينة في العصر الحديث والبيت من الخشب سقفه مسنم تسنيما مشدوداً أي حاداً وذلك من أجل أن تنزلق عنه الثلوج فلا تركبه فتثقل عليه وتهدمه إذا كان سقفه مسطحًا أو كان تسنيمه قليل الإرتفاع والتسنيم في البيت أن يكون سقفه على هيئة سنام البعير.



أول منزل في مورمانسك

وهذا البيت الخشبي الذي يبدو الآن منفرداً ليس حوله شيء من البيوت يطل على الميناء ولكن في منطقة مرتفعة عن البحر قليلاً.

وذكروا أن تاريخ بناء هذا البيت هو تاريخ ابتداء إنشاء هذه المدينة قبل ٧٤ سنة بالضبط، وقد تصورت هذه المنطقة قبل ذلك التاريخ وهي خالية مظلمة قارسة البرد، فعجبت لقوة شكيمة ذلك الرجل الذي أقام هذا البيت الخشبي وأسس بذلك هذه المدينة سواء أقصد أن يكون بيته نواة لهذه المدينة أم لم يقصد.

ولذلك كرموه فحافظوا على الشكل الأصلي لبيته.


المؤلف على خليج مورمانسك

وقد طلبت منهم أن يطلعوني على تاريخ مختصر للمدينة مكتوب إذا كان يوجد لديهم فذكروا أنه توجد أشياء باللغة الروسية وليست مهيئة للزوار الأجانب.

العادة الروسية :

بينما كنا ذاهبين إلى المنطقة التي فيها ذلك البيت وكانت السيارة تسير غير مسرعة من أجل أن نستجلي المنطقة اعترض طريقها المزفلت رجل قوي البنية في حدود الثلاثين من عمره وهو يلوح لها بقبضة يده ويقف في الطريق، ولم يستطع السائق أن يتفادى الإصطدام به إلا بصعوبة لأنه لم يتزحرح عن مكانه وسمعنا ضربة مفزعة تبين أنها بسبب انكسار المرآة اليمنى من السيارة التي تكون عادة بارزة عن مستواها، وأن الرجل لوح بقبضته للسيارة حتى صدم بها المرآة فانكسرت المرآة تمامًا، وجزمنا بأن الرجل قد أصيب فأوقف السائق السيارة وذهب إليه ولم يكن يبدو فيه أي أثر للاصابة فهو يسير دون أن يبدو عليه أنه تأثر فلكمه السائق بيده وعاد وهو يدمدم بكلمات لانفهمها.

وقال نائب الخوري معلقًا على ذلك: إنها العادة الروسية (روسي خراخير) والعادة الروسية هذه هي الإكثار من شرب الخمر حتى السكر.

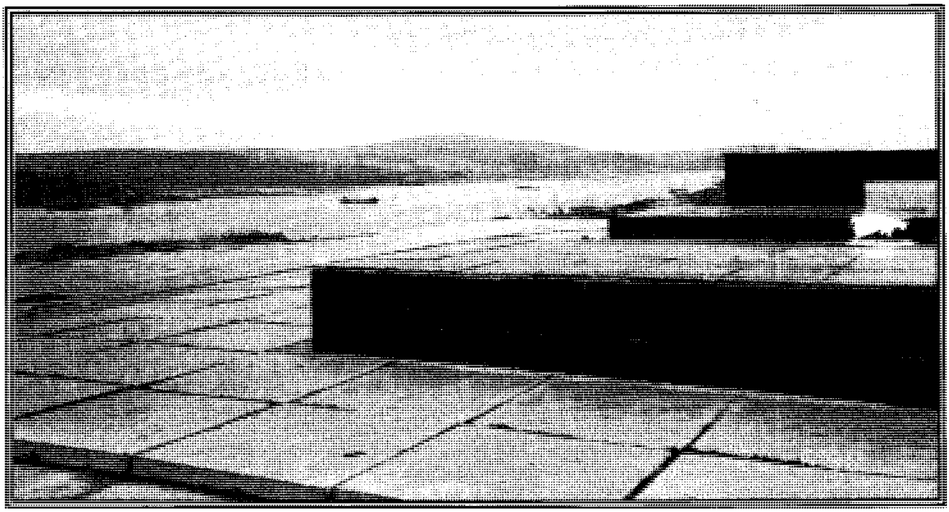
وهذا أمر معروف من أمر الروس وكثرة شربهم للخمر إلى درجة الإسراف وذلك نابع عن عادة قديمة مصدرها - في الأصل - اعتقادهم بأن الخمر تدفئ شاربها في بلادهم الباردة، إضافة إلى قسوة الحياة وقلة الإيمان أو عدمه في نفوس أكثرهم.

وقد رأيت عدداً من الناس في موسكو عليهم مظاهر السكر، وإن لم يكن ذلك عامًا في الناس، وتكافح الحكومة السوفيتية انتشار الخمر في البلاد فتمنع تقديمها في طائراتها أو قطاراتها وتحدد بيعها للناس في ساعات معينة من يومي السبت والأحد فيزدحم الناس على الحوانيت التي تبيعها وكلها حكومية حتى يؤلفوا صفوفًا طويلة (طوابير).

وذلك لما لمسوه من سؤ أثر الخمر على الإنتاج في البلاد، وعلى صحة الأفراد.

تمثال الجندي المجهول :

صعدت السيارة إلى تلة عالية من المدينة ذكروا أنها أعلى نقطة فيها ووقفت عند تمثال عالٍ للجندي المجهول يسمونه (اليوشي)، ويبلغ ارتفاع التمثال ٣٦ متراً فهو في ارتفاع بناء مؤلف من عشرة طوابق مثلاً، وقد أوقدوا بين قدميه شعلة نار لاتزال موقدة منذ أن اشعلوها قبل ١٥ سنة.



الشعلة المنقدة في مورمانسك

ومع أن منظرها هو رمز مأخوذ عن اليونانيين فإن لمنظر النار المشتعلة هنا في هذه البلاد الثالجة معنى خاصًا وموقعًا حسنًا في النفس، لما تمثله من منظر

الدفء الذي يحتاج إليه في أي فصل من فصول السنة فعندما ترجلنا من السيارة حول ذلك التمثال كانت الريح تهب باردة تخترق الملابس الثقيلة وتكاد تخترق العظام.



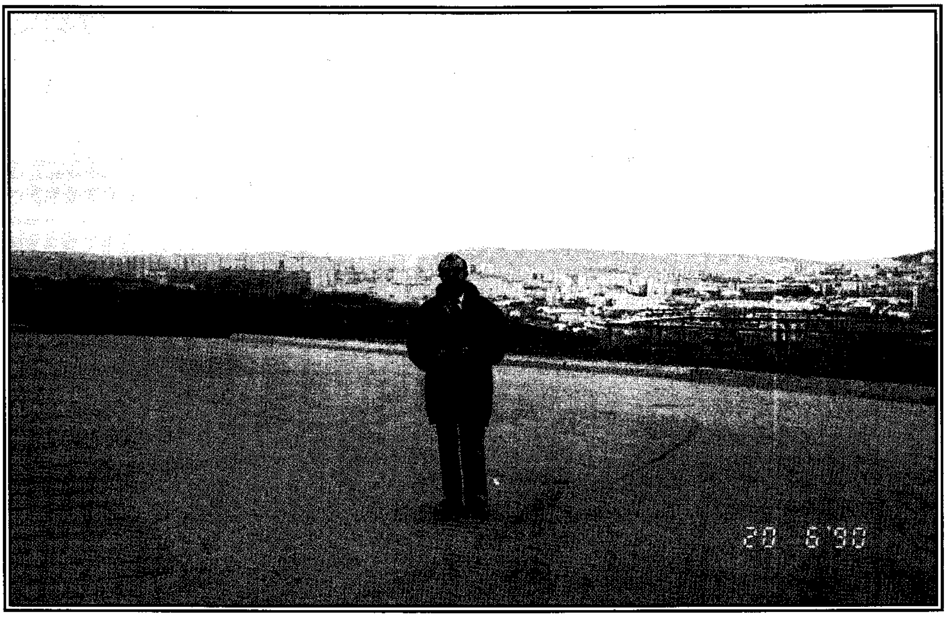
صورة تذكارية مع المرافقين في المكان المرتفع البارد

قرب تمثال الجندي المجهول البارد في مورمانسك

وننظر منه إلى بقايا الثلوج الأزلية أو الأبدية كما يسمونها وهي التي لاتذوب أبداً على الأيام بل تبقى طيلة الألوف من الأعوام إلى ما شاء الله من دوهور قد تمتد حتى يتغير الطقس على وجه الأرض كلها فيصبح مكان القطب الشمالي الحالي منطقة صحراوية جافة، أو منطقة استوائية حارة رطبة كما كان ذلك في سالف العصور (وتلك الايام نداولها بين الناس).

وقالوا ينوهون بإقامة هذا التمثال: إن هذا التمثال سيظل قائمًا ما بقيت هذه الثلوج الأبدية متراكمة وأنه رمز على تقدير الشعب السوفيتي لشجاعة هذه المدينة التي قاومت الغزو الهتلري الغاشم.

وقد جعلوا التمثال ينظر إلى جهة الغرب لأن الألمان جاؤا من تلك الجهة من ناحية بلاد النرويج التي تقع إلى الغرب من المنطقة.



المؤلف في المكان المرتفع المطل على مورمانسك

والتعبير بالغرب هنا هو اصطلاحي وإلاَّ فإنه ليس في المدينة في هذه الأيام شرق ولا غرب إذا أريد بذلك الجهة التي تشرق منها الشمس أو كبد تغرب فيها، لأنها لاتشرق ولاتغرب، بل تظل سابحة في آفاق السماء لاترتفع في السماء ولاتغرب في مغربها.

وكذلك الحال في شهور الشتاء حيث تغيب عنهم الشمس فلاتشرق من المشرق ولاتغرب في المغرب لأنها لاتكون موجودة في سماء بلادهم ولافي آفاقها أصلاً.

وقد رأينا بعض الناس وضعوا الزهور على قدمي ذلك التمثال وربما كان ذلك لكونهم فقدوا عزيزاً أو قريبًا في هذه المنطقة إبان الحرب إلا أننا لم نر عند التمثال أحداً.



صورة تذكارية مع رئيس بلدية مورمانسك

يفيقيني كلمينو في المرتفع المطل على المدينة

الميناء الشمالي :

حول هذا التمثال الذي يقع في مكان عالٍ يشرف على ما حوله مكان ممهد تمهيداً جيداً ومبلط بالرخام أو الحجارة الملساء تجولنا فيه ننظر في آفاق هذه المدينة العجيبة فكان أول ما لاحظناه والساعة الآن تزيد عن الحادية عشرة قليلاً بعد الظهر أن الشمس موجودة الآن في جهة الشمال لأنها تدور في الأفق طيلة الوقت فلا ترتفع في عنان السماء ولاتغرب في الأرض وإنما تدور في الأفق كله، وفي تلك الساعة بالذات كانت في الجهة الشمالية وقد حال السحاب المخيم على المدينة دون أن نرى عينها ولكنهم أشاوروا إلى نور معين في السماء جهة الشمال وقالوا إنها هناك.

وأشرفنا على الميناء الشمالي أهم مافي هذه المدينة في الوقت الحاضر، وهو واقع في مكان منخفض مستطيل أشبه مايكون بالوادي الممتد بين التلال وإنْ لم يكن واديًا بطبيعة الحال.

وتحيط به تلال ممتدة غير عالية تجلل الأماكن المرتفعة فيها كميات ليست كبيرة من الثلوج الأبدية أي التي لاتذوب أبداً.

وأكرر القول بأن الساعة الآن قد تجاوزت الحادية عشرة أي قبل منتصف الليل بنصف ساعة ونحن نسير في جو مثل جو النهار تماماً فكل شيء منير كما كان عندما وصلنا إلى المدينة في السادسة، وليس في المدينة أي نور منار سواء أكان نور مصابيح الشوارع أو الأنوار المنبعثة من البيوت إذْ لاحاجة إلى إيقاد المصابيح لوفرة النور في الجو، وذلك لكون الشمس لاتزال مشرقة.

ومن الطريف في هذا الصدد أنهم قالوا وهم يضحكون إن الشمس قد اختفت اليوم من عندنا لأنها ذهبت إلى بلادكم في المملكة العربية السعودية.

وكان نائب الخوري عندما رآنا نظر مليّا في وجوهنا يتأمل السمرة فيها وقال بجد واهتمام: لقد غيرت الشمس ألوانكم فاصبحتم سمراً يالكم من محظوظين، فقلت في نفسي ما قال الأقدمون في أمثالهم: لايحسد الثرثار إلاّ الأبكم.

والناحية الجدية في الموضوع أن هذا الرجل وهو مثقف مطلع قد تخيل أن أصل ألوان الناس هو البياض الشديد أو الصهبة كما هي ألوانهم وإنما تغيرهم الشمس إلى السمرة أو السواد، ونسي أوتناسى ما قاله الأقدمون من كون اللون الأصيل للبشرية هو السمرة الشديدة فهي لون آدم ابي البشر، ومن ذلك اشتق اسمه في اللغات السامية (آدم) من الأدمة وهي السمرة الشديدة مع الحمرة.



الميناء في مورمانسك كما يرى من منطقة نصب الجندي المجهول

وقد لاحظنا أن القوم هنا سواء منهم من صحبونا في هذه الجولات أو من رأيناهم في الفندق والمدينة يتميزون عن الروس من سكان موسكو وغيرها من المدن السوفيتية بالمرح وكثرة الضحك وحسن المعاملة أي أن التجهم الذي هو طابع الناس في البلاد الروسية ليس موجوداً هنا وهذا أمر عجيب إذ المفروض أن يكون العكس هو الصحيح لما يسببه هذا الجو الثالج المظلم من عبوس واكفهرار في أخلاق الناس.

وربما كان مرجع ذلك إلى تغير يحدث في طبيعتهم في هذا الفصل الصيفي المنير الذي هو بمثابة الربيع لغيرهم لأنه لاربيع عندهم ولم نستطع أن نسأل مرافقينا عن ذلك لأن هذا السؤال قد يكون فيه اتهام لمواطنيهم بالعبوس والإنقباض و(ياغريب، كن أديب).

وهذا الميناء المهم الذي نشاهده يتجمد في الشتاء وقد خصصوا خمس سفن ذرية تحطم الجليد الذي يعترض السفن التي تستعمله ومع ذلك فإن البواخر المعتادة لاتستطيع الوصول إليه والإبحار منه عندما يستحكم الشتاء.

ومن الطريف في هذا الصدد ما ذكروه من أن هناك تياراً بحريًا دافئًا يمنع منطقة في هذا المحيط الشمالي الذي يتجمد في الشتاء من التجمد وذكروا أنه قادم من (كوبا) في البحر الكاريبي، ولا أدري لم خصوا بلداً شيوعيًا بكون هذا التيار يأتي من عنده مع أنه يصح أن يقال: إنه يأتي من بلدان مجاورة لها غير شيوعية مثلما يصح أن يقال إنه يأتي منها.

وهذا على غرابة مافي تيار بحري يأتي من بلاد حارة بعيدة جداً إلى هذا المحيط الشمالي فيدفئ ما يصل إليه منه.

لاحر إلا بعد الانصراف:

هناك مثل عامي في بلادنا يقول: لا حر إلا بعد الانصراف، ولابرد إلا بعد الانصراف.. والمراد منه أن أشد الحر يكون بعد انصراف الشمس من جهة الشمال إلى جهة الجنوب وذلك في مثل هذه الأيام من شهر يونيو حيث تصل

الشمس إلى أقصى مدى ذهابها إلى جهة الشمال في حوالي ٢٢ حزيران (يونيو) ثم تبدأ بعده العودة ثانية جهة الجنوب فيشتد الحر عندنا آنذاك.

وعكسه البرد بعد الإنصراف أي انصراف الشمس ويكون ذلك في ٢٢ من شهر يناير حيث تصل الشمس إلى أقصى ذهابها جهة الجنوب ثم تبدأ بالتحرك جهة الشمال وهو المسمى هنا بالإنصراف فيشتد البرد عندنا حينئذ.

فأردت أن أسألهم عما إذا كان يوجد مثل ذلك في بلادهم ولكن تبين لي أن هذا السؤال سيكون ساذجًا لأن الشمس لاتبعد عنهم جهة الشمال في الصيف، وإنما هم في غاية نهايتها بل إنها لاتصل إليهم كما تصل إلي غيرهم بمعنى أنها لاتتوسط في سماء بلادهم في هذه الأيام، وإنما تظل كأنما هي تدور في الأفق، بل في الآفاق كلها عندهم.

مدينة مورمانسك :

إنحدرنا من هذه التلة العالية إلى قلب المدينة مع شوارع مزفلتة جيدة أرصفتها مفروشة بالأزفلت لابالبلاط ولكنها نظيفة معتنى بها حتى وقفنا في ميدان من قلب المدينة اسمه (ميدان كريل وفوديا) وكريل وفوديا شخصان من اصل بلغاري اقاموا لهما تمثالين هنا في هذا الميدان المهم وهما واقفان كل واحد منهما بجانب الآخر.

وذكر رئيس البلدية أن هذا التمثال قد أزيح عنه الستار قبل شهر فقط وأنه أقيم تكريمًا لهذين الشخصين الذين علما الشعب الروسي الأبجدية التي يستعملها الآن.

وتقع على هذا الميدان المكتبة العامة ذكروا جميعًا أنها تحتوي على مليون كتاب واعتقد أن في هذا شيئًا من المبالغة فمبناها جيد يطل على هذا الميدان ولكنني لا اظنه يتسع لهذا العدد من الكتب مع أنني لم أدخله ولذلك لا أعرف سعته من الداخل.



بين رئيس البلدية يفيقيني كلمينو ورئيس شئون الأديان فلاديميير نيكولاي عند تمثالي الذين علما الروس الأبجدية السلافية

ولكن مجرد اعتناء القوم بجمع المقدار الكبير من الكتب أمر له دلالته فالكتب هي المادة الثقافية التي توفر للجميع الثقافة والاطلاع.

ومما يجوز ذكره هنا لمناسبة الحديث عن الأبجدية الروسية نذكر أن حروفها تختلف عن الحروف اللاتينية المستعملة في أكثر البلدان الأوروبية، وإنما تشبه الحروف اليونانية من بعض النواحي، مثلما أن ديانة الأكثرية هنا، أو لنقل مذهبهم الديني هو الأرثوذكسية السائدة في بلاد اليونان.

وبعد وقفة في هذا الميدان وحديث عن الثقافة فيه التقطتا صوراً تذكارية مع الجميع ثم استأذن رئيس البلدية (يفيقيني كلمينو) في الإنصراف وقال: أرجو أن تسمحوا أن أذهب إلى بيتي وأن أودعكم والقوم يكفون في ارشادكم إلى بقية الجولة في أنحاء المدينة.

فانزلناه عند بيته وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف قبل منتصف الليل في البلدان التي تغيب عنها الشمس.

وادي الرياضة :

قدمنا أننا مررنا بالملعب الرياضي في المدينة وأنهم قالوا إن الناس يصبون الماء فيه في الشتاء فيتجمد فيتزلجون عليه.

وهنا أرونا ميدانًا طبيعيًا أسموه (وادي الرياضة) وذلك أنه ينحدر من أعلى إلى أسفل انحداراً حاداً فيكون على المتزلج فيه أن يقفز فوق أماكن واسعة منه يفعل شدة اندفاعه من المكان المرتفع قبله.

وبجانبه ميدان تعليم الرماية ومنزل الشباب للرياضة أيضًا.



المؤلف أمام قاعة السباحة المغطاة الدافئة في مورمانسك

وفي وادي الرياضة أشجار معمرة قالوا: إن عمرها يبلغ أكثر من مائتي سنة، ولكنها كلها قصيرة لما ذكرناه من قسوة الطقس وقصر المدة التي تورق فيها ومن ثم تنمو وأما في بقية فصول السنة فإنها تكون في سبات عميق يشبه السبات أو النوم الشتوي لكثير من الحيوان مثل الضب والحية في بلادنا العربية، فالضب لايخرج من بيته في الشتاء، ويبقى دون طعام أو شراب لمدة ثلاثة أشهر أو تزيد ولذلك تقول العامة عندنا: إنه يأكل من (جعوره) أي من رجيعه يعني برازه، وكذلك الحية تظل مدة طويلة لاتخرج وهي لاتأكل ولاتشرب خلال تلك المدة.



صورة تذكارية، مع مدير شئون الأديان

في منحدر تطل عليه أشجار الغابة القصيرة المعمرة

ومثل ذلك ما سمعناه وإن لم نشاهده عن أنواع من الأسماك والمخلوقات الأخرى التي ذكرها العلماء وذكروا أن لديها قدرة على ايقاف الحياة لزمن.

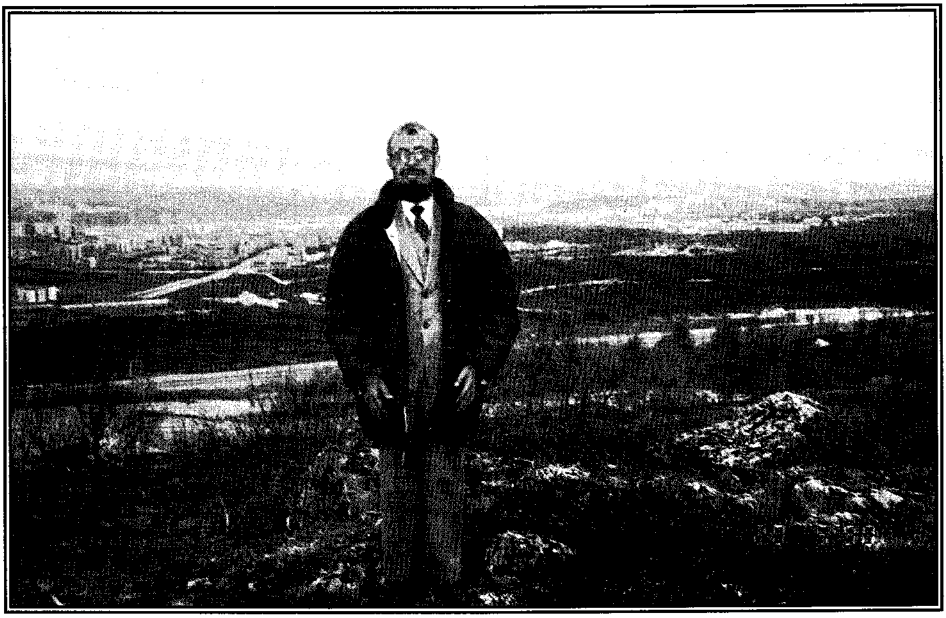
فالأشجار هنا مثل ذلك الحيوان في كونها توقف حياتها أو تقف حياتها دون إجراء منها فلا تنمو كما تنمو الأشجار الحية في البلدان المعتدلة والحارة ولاتموت ننتظر فصل الحياة القصير.

وقد عثرنا بين هذه الأشجار على ست من البيض لبعض الطيور التي تكون في هذه المنطقة في الصيف وهي بين الاعشاب على الأرض.

فواكه الغابة :

كنا شربنا شرابًا غريبًا آخر من عصير الفاكهة على العشاء أمس فأخبرونا أنه من فواكه الغابة ولم أفهم ذلك على الوجه الصحيح لأن غاباتهم قاسية الطقس لايمكن أن تكون فيها أشجار من أشجار الفواكه المعروفة.

ولكن السيارة اتجهت بنا جهة الشمال من المدينة وارتفعت فوق تلال غير مستوية وذلك من أجل أن يرونا طبيعة الريف في هذه البلاد.



المؤلف بين بقايا الثلوج الأزلية

في مرتفع يطل على مدينة مورمانسك من جهة الشمال

فوقفنا في مكان مرتفع خارج المدينة من جهة الشمال اسمه (كاتكا) وكان في الأرض نبات اخضر مع ميل إلى الزرقة أشبه مايكون بالطحالب المائية منه بالعشب الذي تكون له أوراق أو يرتفع له ساق، وقالوا: هذه هي من أعشاب التندورة التي ترعاها الأيابل - جمع أبل - وهو نوع كبير من أنواع الوعول التي تعيش على حدود المنطقة القطبية وهو يأكل عروقه البارزة.

عشب غريب:

وهذا العشب من أعجب ما رأيته في حياتي، بل لم أر مثله قط، وذلك أنه كما رأيته وكما شرحوا لنا حاله لاتكون له عروق داخلة في الأرض وإنما عروقه خارجة من الأرض مرتفعة إلى الأعلى قليلاً وذكروا السبب في ذلك وهو أنه

يكون بين الثلوج والأرض باردة فيطلب ضوء الشمس في الأوقات التي تطلع فيها على هذه البلاد حتى يأخذ ما يلزم له لحياته، وقد قلعوه بالفعل وقلعت بعضه فوجدت أنه لاعروق له في الأرض وإنما يبدو وكأنما ألصق فيها إلصاقًا وهو نبت على هيئة الكف وأكبر من ذلك ملتصقًا بعضه ببعض.

وأروني فاكهة الغاب وتكون من عشب لا من شجر وهو عشب ضعيف القوام يفترش الأرض افتراشًا وتكون فيه هذه الفواكه على هيئة الأصبع النحيل اللاصق فيجمعونه ويأكلونه ويعصرونه وهو الفاكهة الوحيدة التي تخرجها أرضهم في أوقات ذوبان الثلوج إن صح أنه فاكهة.

ومن عجيب أمره أنه ينبت وحشيا أي دون استنبات ومع ضعفه فإن عشبته تبقى اثني عشر عامًا قبل أن تثمره.

وذلك لقلة الشمس التي يتغذى عليها النبات وتراكم الثلوج في أكثر فصول السنة، بل إننا رأينا ثلوجًا في ذلك المكان ليست متصلة وإنما هي على هيئة قطع متفرقة وهي من الثلوج الأزلية التي لاتذوب أبداً ووقفنا على بعضها وصورناه.



بين الاستاذين ايمن حبيب وعبدالحميد قرب خليج مورمانسك

هذا وقد بلغت الساعة الثانية عشرة بعد الظهر وهو منتصف الليل في البلدان التي يكون فيها ليل وأما هذه البلاد فإنه ليس فيها ليل حتى يكون له منتصف فضلاً عن ان يكون له أول أو آخر، وكرروا هنا ما قالوه قبل قليل وهم يشيرون إلى جهة الشمال ويقولون: ان الشمس الآن لاتزال في هذه الجهة وقد تقدم شرح ذلك.

وماذا عن الإسلام؟

انتهت جولتنا في مدينة (مورمانسك) في الواحدة إلا ربعًا بعد منتصف الليل الاصطلاحي وتركونا في الفندق، فأسرعنا للصلاة، لأننا عندما بدأنا الجولة في العاشرة والنصف لم تكن الشمس قد غربت على المدن القريبة من المنطقة التي يوجد فيها مسلمون ومساجد مثل لينين قراد وموسكو كما سبق.

وهنا لابد من الاجتهاد في أوقات الصلاة لأنه ليس هناك غروب للشمس ولاطلوع، فقدرنا للصلاة تقديراً كما في الأحاديث التي وردت في أيام الساعة: يوم كشهر وشهر كسنة أو ما هذا معناه، ومنها أن أوقات الصلاة تقدر تقديراً، وعملنا كما عمل الإخوة المسلمون أهل البلاد الذين لايبعدون كثيراً عن القطب فصلينا الظهر في الوقت المعتاد في البلدان المعتدلة والعصر كذلك والمغرب كذلك وإن لم تغرب الشمس لأنها لاتغرب وكذلك العشاء والفجر.

وليس في هذه البلدة مسجد ولا جمعية إسلامية حتى نرى ماذا يفعلون بأوقات صلاتهم التي هي مشكلة في هذا الصيف الذي لاتغرب شمسه أصلاً وفي الشتاء الذي لاتطلع شمسه مطلقًا، فماذا يعملون؟

قلنا: إن الأصح هو تقدير الأوقات تقديراً فيمكن مثلاً أن يقسم الوقت إلى ٢٤ ساعة كما هو حاصل فتكون صلاة الظهر في الثانية عشرة من النهار الاصطلاحي الذي هو نهار البلدان المجاورة لها التي فيها نهار وصلاة العصر مثلاً في الرابعة وصلاة المغرب من بعد السادسة مع أن وقت صلاة المغرب هو بعد غروب الشمس ولكن الشمس هنا لاتغرب وتكون صلاة العشاء بعد المغرب

بساعة ونصف والفجر في الرابعة بعد منتصف الليل في البلاد التي يكون فيها ليل.

فهذا تقدير مبني على اوقات الصلوات في البلدان المعتدلة مثل بلدان خط الاستواء أو البلدان التي يعتدل فيها الجو في بعض فصول السنة مثل بلادنا حيث يكون فيها اعتدال ربيعي يوم ٢١ من نيسان (ابريل) ويوم ٢٢ من ايلول (سبتمبر) من كل عام.

أو أن يعملوا بما افتى به بعض علماء الحنفية من أن تكون أوقات صلاتهم طبقًا لأوقات صلاة أقرب بلد إسلامي منهم مثل تركيا أو أقرب بلد يقطنه مسلمون مثل موسكو ولينين قراد، وبلاد التتار والبشكير وجبال القوقاز التي كانوا اسلافنا العرب يسمونها (جبال قفج).

والصيام؟

والمشكلة العويصة هي مشكلة الصيام في رمضان فهي عويصة بالفعل حتى بالنسبة للبلدان الشمالية التي يقطنها مسلمون ويكون فيها ليل ولكنه قصير في الصيف وطويل جداً في الشتاء، ففي البلدان الروسية هذه يطول النهار في الصيف حتى يبلغ ماينبغي على من يريد أن يتقيد بالصيام على الكيفية التي يصوم بها المسلمون في البلدان المعتدلة عشرين ساعة أو أكثر من ذلك بساعة.

هذا في الصيف وأما في الشتاء فإن النهار يقصر حتى لايزيد مايصوم الصائم فيه على خمس ساعات والأمر في الشتاء سهل لأن فيه تخفيفا على المسلمين وقد صاموا ما أمرهم الشرع به من الإمساك عن الطعام منذ طلوع الفجر حتى غروب الشمس ولكنهم لايستطيعون أن يصوموا عشرين ساعة متواصلة في أيام الصيف لمدة شهر كامل إلا من رزق منهم قوة في دينه، وتحملا في بدنه، وصبراً على مايلحق في ذلك من تعب ومشقة.

هل في مورمانسك مسلمون؟

الجواب : نعم، فقد جاء الجواب على هذا السؤال قبل أن نسأله ونحن لابد فاعلون وهو أن ممثل شئون الأديان (فلاديمير نيكولاي) قال وهو يذكر سكان مدينة مورمانسك إن لدينا في المدينة أناسامن قوميات عديدة من قوميات الإتحاد السوفيتي فذكر منهم الأوزبك والقازاق والتتار.

وهؤلاء كلهم مسلمون ولكن عادة المسئولين السوفييت ألايقسموا الناس على قدر أديانهم أو قل إنهم لايعرفونهم - بتشديد الراء - بناء على مايعتنقون من دين لأن الإتحاد السوفيتي يتبنى سياسة الحادية معادية للأديان وإنما يقسمونهم على حسب قومياتهم ومعروف أن قوميات عديدة كل أفرادها من المسلمين كالتي ذكر أنه يوجد منها اناس في مورمانسك وهي الأوزبك والقازاق والتتار.

ولكن هؤلاء أفراد معدودون وليست لديهم البصيرة بالدين، لأن التربية الدينية ممنوعة في الاتحاد السوفيتي وإنما يتلقى الناس ما تجب معرفته من الدين في البيوت أو في المجالس الخاصة الخالية من الجواسيس.

وإلاَّ لو كان لهؤلاء بصيرة لقاموا بتأليف جمعية إسلامية فيها وعن طريق هذه الجمعية طلبوا الإذن من الحكومة في بناء مسجد وقد تمنحهم الحكومة الأرض اللازمة لذلك إذا طلبوها.

والذي نعرفه من قوانين الإتحاد السوفيتي في تأليف الجمعيات الإسلامية أنها لابد من أن يكون اعضاؤها عشرين فأكثر فلاتمنح رخصة تأليف الجمعية لعدد يقل عن العشرين.

هذا وقد بحثت مع المفتي الشيخ طلعت تاج الدين بعد أن عدت إلى موسكو، موضوع الوجود الإسلامي في هذه المنطقة وأنه لابد من ذلك من أجل توفير المعرفة الدينية للإخوة المسلمين الذين يقيمون فيها ومن أجل الدعوة إلى الإسلام عن طريق مشاهدة المسجد، ورؤية المسلمين فيها.

فذكر لي أنه سوف يعمل على تأليف جمعية إسلامية في مدينة مورمانسك وأنه يعرف أنه يوجد فيها مسلمون يعملون في مجالات العمل من التعدين إلى صيد الأسماك إلى نحو ذلك.

أوقات العمل في مورمانسك :

جرنا حديث الدين وتقدير أوقات الصلوات والصيام فيها إلى الحديث عن أوقات العمل عندهم من دون أن نبحث معهم الناحية الإسلامية، لأن الحديث عنها معهم ليس بذي موضوع فأخبرونا أن جميع المواعيد عندهم تكون بالساعة فلا يعرفون تحديد الوقت أو تقريبه بغروب الشمس أو طلوعها أو بالليل والنهار وذلك لاختلاف الليل والنهار واضمحلال أحدهما في الآخر في وقت من الأوقات.

وذكروا أيضًا أن الناس في الشتاء إذا انتهوا من اعمالهم عادوا إلى بيوتهم لايكون لهم شغل إلا الأكل والشرب والنوم مع العائلة، وقال رئيس البلدية! وشرب الخمر !.

وقال أحدهم وإن الناس يزيدون في مورمانسك، بسبب كثرة لبثهم في بيوتهم في الشتاء وعقب على ذلك ممثل مجلس الأديان فقال: الحقيقة أنهم يزيدون ولكن السبب في زيادتهم ترجع إلى المزايا والرغبات التي توفرها لهم الحكومة بسبب قسوة العيش فيها لشدة البرودة.

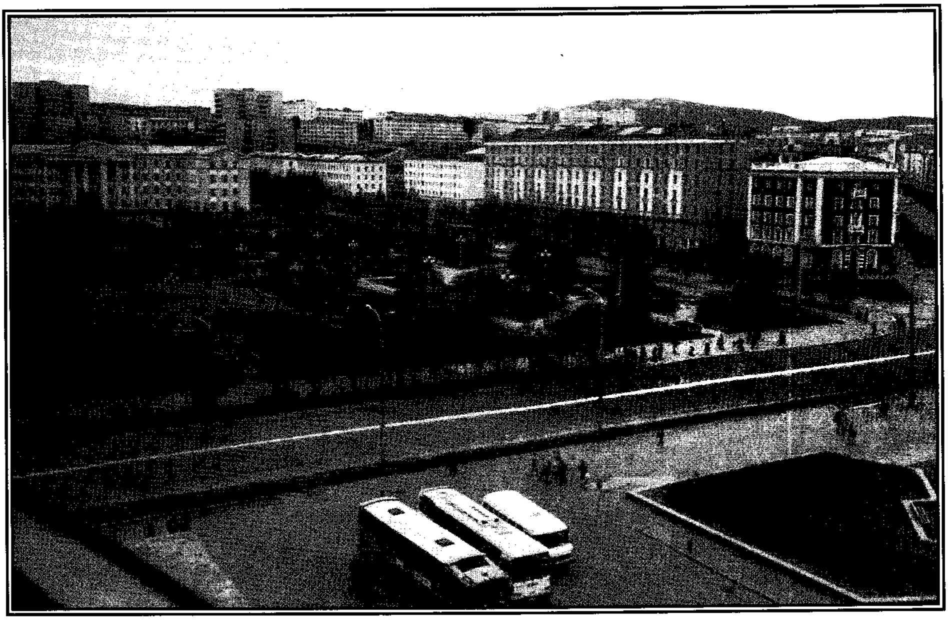
ومن ذلك زيادة الرواتب فهي أكثر من مثيلاتها في المدن الروسية الأخرى وقالوا: حتى العلاوات الضخمة اي غير المعتادة تكون لهم دون غيرهم كل ست سنين.

ومعلوم أن هذا أمر مهم في البلدان الشيوعية حيث يكون الناس أو أكثرهم من العاملين في الدولة وهي التي تدفع لهم رواتبهم.

وذكروا أن الأمراض في الشتاء ليست أكثر منها في الصيف رغم البرد ولكن الأدوية المعتادة وزيت كبد الحوت تجعل الأجسام تقاوم تلك الأمراض.

وذكروا أن عطلات العمل تكون كلها في الصيف فيذهب الناس إلى الجنوب من أجل وجود الشمس، يفعل ذلك عمال المصانع وغيرها حتى المدارس ومن ذلك أن مدرسي المدرسة الثانوية العامة وجميع طلابهم يوجدون الآن كلهم في الجنوب جهة البحر الأسود من أجل أن يأخذوا نصيبهم من الشمس، وتقوم الحكومة بدفع نفقات هذه العطلات لأنها ضرورية لاجسام الناس وعقولهم، إذ يصعب على الإنسان أن يقضي الوقت كله في هذا الظلام الدامس إلا في فصل الصيف الذي هو بارد أيضًا بالنسبة إلى المركز اي منطقة موسكو.

وذكروا أن بعض المصانع يغلق أبوابه تمامًا، لأن جميع من فيه يذهبون إلى الجنوب يطلبون الشمس الصاحية هناك.



منظر من مناظر مدينة مورمانسك في الليل الشامس (التقطه المؤلف)

قالوا: وأما عمال الميناء وصيادو السمك فإنهم يستبدلون بغيرهم كل أربعة أشهر أو خمسة لأنهم لايستطيعون العمل في هذا الجو المظلم البارد أكثر من ذلك فيذهب من أقام مثل هذه المدة للجنوب في إجازة مضاعفة بالنسبة إلى الاجازات في هذه البلاد فعطلة صيادي السمك تكون (٦٠) يومًا في السنة

لأنهم يكونون في البحر ليلاً ونهاراً، ولايتمتعون بعطلة اسبوعية، مع أن إجازة الموظفين هنا هي مضاعفة بالنسبة إلى أوقات الإجازة في المدن ذات الجو المعتاد وفي الإتحاد السوفيتي فهي هنا (٤٢) يومًا وفي موسكو ونحوها ٢٤ يومًا في السنة.

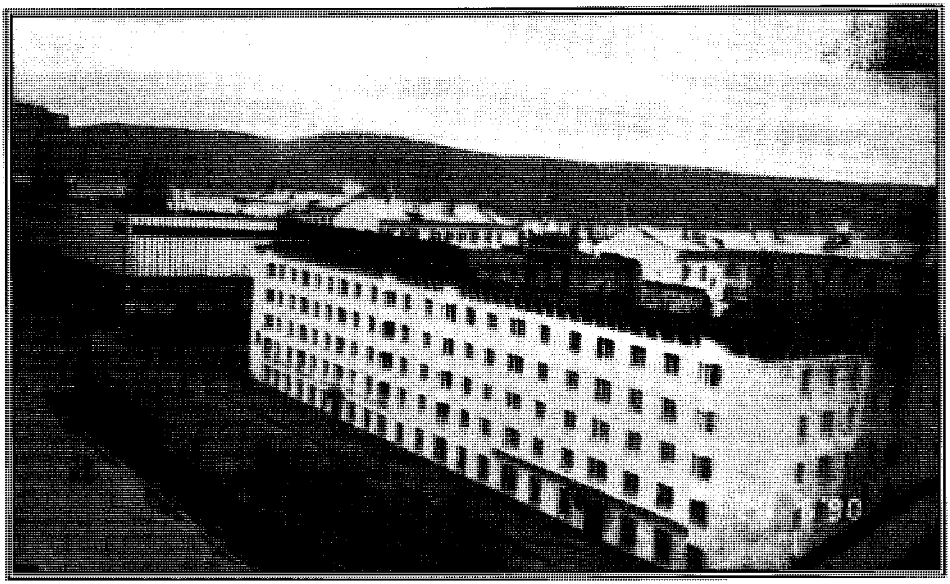
وكرروا قولهم بأنه لا أحد يستطيع أن يقضي الوقت كله في هذه البلاد.

وذكروا أن المصنع الرئيسي في هذه المدينة هو مصنع لترميم السفن فسألتهم عن مدخنة لمصنع رأيت دخانها عاليًا يبدو على البعد من كل التلال التي في المدينة أهي ذلك المصنع الذي ذكروه لأنه قريب من البحر، فأجابوا بالنفي وقالوا: ذاك محطة لتوليد البخار الدافئ الذي توصله الأنابيب لكل أنحاء المدينة ولايمكن العيش في المدينة بدون وجود مثل هذه التدفئة.

أما أوقات العمل في الحوانيت وهي كلها حكومية فإنه يبدأ في الحادية عشرة ويمتد حتى الساعة الثامنة مساءً والدوائر الحكومية الأخرى يبدأ عملها من التاسعة صباحًا حتى السادسة مساءً، وأما المصانع ونحوها فإن لها نوبتي عمل في اليوم تبدأ الأولى في الثامنة إلى الثانية، وتبدأ النوبة الثانية من الرابعة حتى الحادية عشرة مساء، ومع ذلك يجد الناس أوقاتًا لايدرون ماذا يصنعون خلالها.

الظهر بعد منتصف الليل:

هذا العنوان فيه تجوّز وقصته أن القوم بعد أن تركونا في الفندق وصلينا لم نستطع مغالبة استجلاء مناظر هذه المدينة وما قرب من الفندق من شوارعها فخرجنا في تمشية على اقدامنا نحمل المصورات ونلتقط ما يروق لنا من المناظر.



بعد منتصف الليل في مورمانسك

وذلك في جولة حرة فكان أول انطباع عجبناله أننا الآن والساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل الاصطلاحي كأننا في وقت الظهر الذي وصلنا فيه إلى هذه المدينة فالنور الطبيعي يغمر شوارعها وليس فيها أي شيء مضاء بالكهرباء لأنه لاحاجة إلى ذلك.

وحتى الصور التقطناها كلها من دون الحاجة إلى مساعدة الضؤ من المصوِّرة.

والشيء الذي كان ينغص هذه الجولة رغم المتعة منها هو شعورنا بالبرد الشديد رغم الملابس الثقيلة وقد لاحظنا أن الناس موجودون في شوارع المدينة من المشاة وراكبي السيارات والحافلات رغم كونها تقل حتى تكاد تتوقف في مثل هذه الأوقات في البلدان المعتادة فكأننا بذلك في وقت الظهر مما حملني على كتابة هذا العنوان.

بلاد الظلمات :

ومع هذه الشمس المشرقة بمعنى أنها طالعة وإلاً فإنه ليس المراد بذلك أنها كشمسنا في وسط النهار إذْ لاتتوسط كبد السماء هنا وإنما المراد أنها لاتغيب فإن عمر هذا الإشراف قصير يعقبه ظلام طويل، بل ظلمات بعضها فوق بعض مما حدا ببعض الاسلاف العرب إلى تسميتها بلاد الظلمات ومنهم الرحالة ابن بطوطة رحمه الله حيث اطلق عليها (بلاد الظلمات) وذلك في معرض حديثه عن وصوله إلى بلاد البلغار التي تقع على نهر (ايتل) الذي يسمى في صحفنا وكتبنا الحديثة بنهر الفولقا، وهذه تسمية اجنبية حمل مسجليها الجهل بما كان اسلافنا يسمون به هذا النهر وكأن الأخلاف منا لم يتصوروا أن يصل علم الاسلاف إلى ذلك الموضع من نهر (ايتل) فذكرا بن بطوطة: أن بلاد البلغار يقصر فيه الليل جداً وأن بعدها (بلاد الظلمات) يقصد إلى جهة الشمال، وهي هذه البلاد القطبية.

وأهل هذه المدينة الذين تحدثوا الينا كان الحديث الكثير منهم عن مدينتهم في وقت الشتاء حين يرين ظلام دامس طويل يفتقدون فيه الشمس من آخر شهر اكتوبر إلى آخر شهر مارس لايبصرون فيها الشمس مطلقًا، بل لايبصرون أي شيء من ضوءها لأنها تذهب جنوبًا في مرأى العين، فيحجبها تكوير الأرض عن هذه البقعة القطبية الشمالية.

أعظم الأعياد عندهم :

وذكروا أن أكبر احتفال عندهم ويعتبر اعظم الأعياد أثراً في نفوسهم ذلك الاحتفال الذي يقيمونه في أول شهر ابريل لمناسبة عودة الشمس إلى الظهورليس معنى هذا أنها تطلع عليهم يومًا كاملاً في أول ابريل وإنما معناه أنهم يرون الشمس فيه، وتكون رؤيتهم للشمس في أول الأمر للحظات بمعنى أنها لاتطلع إلا لدقائق ما تلبث بعدها أن تغيب ثم تأخذ بالتريث عندهم ويأخذ النهار في الطول حتى يبتلع النهار الليل فلا يكون هناك ليل في شهر يونيو هذا.

وقد سألتهم بهذه المناسبة عن القمر ظانا أنه كالشمس لايرونه فقلت لهم: هل لديكم شعراء في مدينتكم؟ فأجابوا: إن عددهم قليل، وأنهم ليسوا من فحول الشعراء فقلت لهم: كيف يتغزلون بالنساء وهم لايرون القمر فيشبهونهن به كما نفعل؟

فأجابوا إننا نرى القمر في الشتاء لافي الصيف لأنه يكون في الصيف محجوبًا عنا بنور الشمس إذ الشمس تكون طالعة في الليل فلا يرى، وإنما نراه في الشتاء طيلة الوقت، حيث لايكون هناك نهار أو شمس تحجب رؤيته.

فقلت: هذا إذاً عكس المثل العربي الذي يقول: أضيع من قمر الشتاء وذلك أن القمر عندنا في الشتاء لايستمتع الناس بالجلوس بالقمراء منه، وهي ضوءه بسبب البرد وإنما يبقون في الليل في المنازل.

وأنتم تقولون : أضيع من قمر الصيف، قالوا: وأما التغزل فإن الشعراء يتغزلون بأشياء أخرى وقال أحدهم إن الأقمار التي تمشي على الأرض تغنيهم عن التغزل بقمر السماء.

قالوا: والوقت في الشتاء يكون كله ظلامًا دامسًا مستمراً وتكون أنوار الشوارع فيه مضاءة طول الوقت لاتطفأ على امتداد الشهور المظلمة، والوقت الذي يقل فيه الإظلام قلة نسبية فلايكون في الظلمة كباقي الليل وذلك لمدة ساعة من الثانية إلى الثالثة ظهراً.

ولايكون هناك نور وإنما تخف فيه حدة الظلمة.

يوم الأربعاء ٢٧/١١/١٤١٠هـ.

وهو يوم اصطلاحي أيضًا، إذْ لاغروب ولاشروق للشمس فيه وقد اعتبرناه كذلك بالأيام المعتادة في البلدان التي تغيب شمسها وتشرق.

وكان أول مافعلناه في الثامنة صباحًا النزول إلى مطعم الفندق حيث وجدنا طعام الإفطار جاهزاً على المائدة وأربعًا من العاملات يسعين فيه إكرامًا لنا لكوننا ضيوفا غرباء عليهم.

وتناول ممثل شئون الأديان الإفطار معنا وكان طعامهم سخيًا منه بطاطس من القطع المطبوخة وخبز جيد ومربى وزبد ولبن من نوعين حليب ورائب وطعام اسموه الاكلة الروسية وهي الأرز باللبن وسلطة من الخيار والطعام ومع ذلك القهوة والشاي.

استئناف الجولة :

غادرنا فندق (اركتيا) التي معناها القطب الشمالي وحملنا معنا امتعتنا في السيارة المعتادة وهي مدفأة وفيها كما قدمت - مائدة ثابتة يتحلق حولها الركاب وهم في كراسيهم على جانب داخل السيارة وذلك بعد أن حضر الخوري (جريجوري).

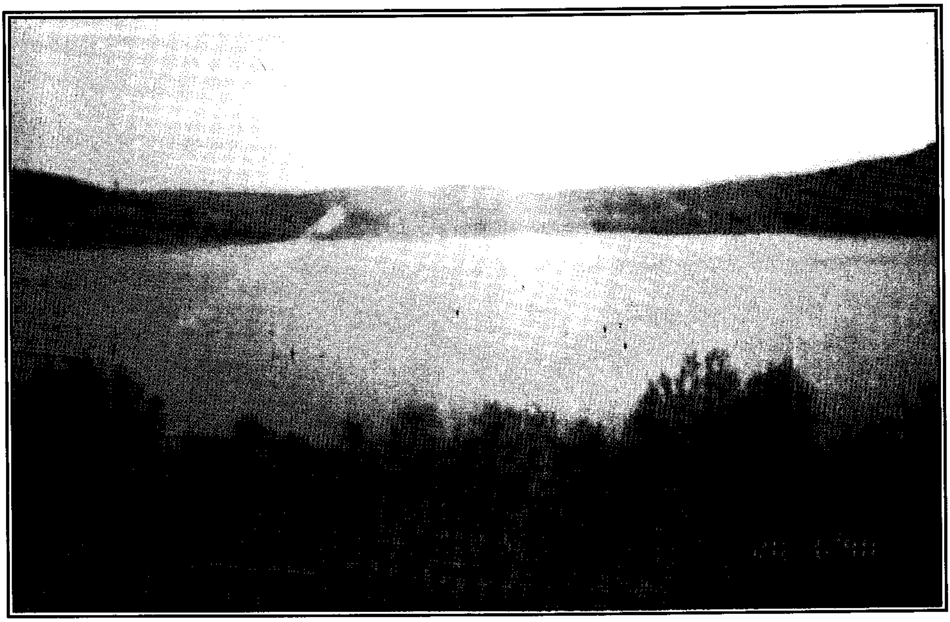
فاتجهنا مع شارع كبير في المدينة يتجه إلى الجنوب منها يسمى (كولاسي) على اسم الجزيرة كولا ونهرها (كولا) أيضًا.

ووصفوا لنا هذه الأرض التي تقع فيها المدينة بأنها شبه جزيرة تشبه كف الإنسان يحف بها بحر بارنتس على بعد ٨٠كم من المدينة والمحيط الشمالي الذي تقع عليه مدينة مورمانسك.

ووقفنا على الخليج الذي يقع في طرفه الميناء وهو خليج كوليسي تخرج منه البواخر إلى بحر بارنتس في مكان مرتفع حول الخليج عند مصب نهر كولا الذي تقدم ذكره، ونهر تولوما وهو نهر آخر يصل إلى قرب المدينة ويصب في هذا الخليج (خليج (كوليسي) إلا أنهما معا يتجمدان في فصل الشتاء.

وذكروا من عجائب الخلق أن أسماك السلمون تأتي من المحيط الأطلسي فتضع بيضها في نهر كولا وتتجشم الصعاب في ذلك.

وذكروا أن نهر تولوما يأتي من الأراضي الفنلندية فيصب في هذا الخليج وقد أقاموا عليه سداً من أجل توليد الطاقة الكهربائية، ورأينا بعد ذلك مساكن العاملين في الكهرباء في أبنية متعددة الطوابق (عمارات) بعضها من غرفة واحدة للساكن وبعضها من غرفتين وبعضها من ثلاث غرف ولا أكثر من ذلك.



نهر تولوما الذي يأتي من فنلندا عند دخوله خليج مورمانسك

وكلها منازل حكومية تبنيها الحكومة وتؤجرها ورأينا بيوتًا متفرقة قالوا: إنها شخصية، أي اقامها اصحابها ويسكنون فيها بمفردهم، وهي قليلة العدد سيئة المظهر يتألف ظاهرها مما يشبه الغرفة الواحدة قد بنيت من خشب اثرت فيه العوامل الجوية حتى اسود لونه.

خط العرض البعيد :

مررنا بنصب ظاهر مكتوب عليه خط العرض الذي تقع عليه هذه المدينة وهو ٥٦ ، ٦٨ ثمان وستون درجة و٥٦ من الدرجة شمال خط الاستواء وهو يدل على أن المنطقة بالغة الذهاب إلى جهة الشمال إذا عرفنا أن القطب الشمالي ليس بعيداً من هنا.

وعلى ذكر الأنهار ولمناسبة الحديث أمس عن كثرة الأمطار وما رأيناه اليوم من الاعشاب والأشجار وإن تكن أشجاراً غير نضرة سألتهم عما إذا كان يمكنهم ان يزرعوا البطاطس لأنه يتحمل البرد لكون ثماره تنبت تحت التربة فأجابوا

إنهم قد جربوا زراعته في الصيف فصار ذا ماء كثير ولاطعم له كطعم البطاطس الذي يكون في البلدان المعتادة.

وقالوا: وأما الشتاء فإنه لاينبت أصلاً حتى اشجار الغابة هذه فإنها ضعيفة لاتصلح للوقود.

ثم وقفنا على جسر اقيم فوق نهر كولا لمرور السيارات والنهر يتدفق تحته لأن المنطقة فيها انحدار إلى جهة مياه الخليج فالتقطنا صوراً تذكارية فيه ورأينا بجانبه جسراً يمر فوقه خط للسكة الحديدية ذكروا أنه يذهب إلى مدينة لينين قراد على مسافة الف واربعمائة كيلو متراً جهة الجنوب من مورمانسك.

وبالنسبة لتدفق النهر مع صفاه مياهه فلكونه يمر بأراضٍ صخرية ذكروا أنه يتجمد لمدة أربعة أشهر في السنة.

وعلى أطراف بلدة كولا التي تقدم ذكرها أقاموا نصبًا كتبوا عليه تاريخ أول إنشائها في عام ١٤٦٥م وقبل ذلك لم يكن في هذه المنطقة سكان ولايعرف أن أحداً سكنها.

الصلبان والشيوعيون :

الصليب رمز للديانة المسيحية مثلما أن الهلال الذي تتوسطه نجمة صار رمزاً للمسلمين في أغلب البلدان ذكرنا ذلك لمناسبة مرورنا بمقبرة المدينة وقد أقاموها على مكان مرتفع ولكن لايجعلون صلبانا على القبور وإنما يجعلون للقبور شواهد من الحجارة كالتي تكون في مقابر المسلمين، وسألت بهذه المناسبة رئيس الكنيسة عما يفعله بالشيوعي الذي يموت وهل يصلي عليه في الكنسية مع أن الشيوعيين ملحدون، ولايعترفون بالدين فقال: إذا أوصى الشيوعي قبل وفاته أن تجهزه الكنيسة وأن يصلى عليه فيها تولينا تجهيزه والصلاة عليه لأن معنى ذلك أنه متدين كان يخفي تدينه في حياته.

قال: وإن لم يوص فإننا نسأل أقاربه عما إذا كان قال لهم قبل موته أن يجهزوه في الكنسية فإن لم يقل لهم ذلك لم نصل عليه ولم نجهزه في الكنيسة.

العين الفضية :

وهي نبع صغير ينبع من تلة بجانب الطريق الاسفلتي المنطلق جنوبًا من مورمانسك ذكروا أنهم سموها بالفضية لوجود معدن الفضة بالفعل في مائها ويقصده الناس للشرب منه لأنه يطهر البطن من الجراثيم الضارة فيما قالوه.

كما ذكروا أن الناس يأتون إليه بالسيارات من أجل أن يأخذوا منه شيئًا للشرب وصنع الشاي لأن مذاق الشاي الذي يصنع منه جيد.

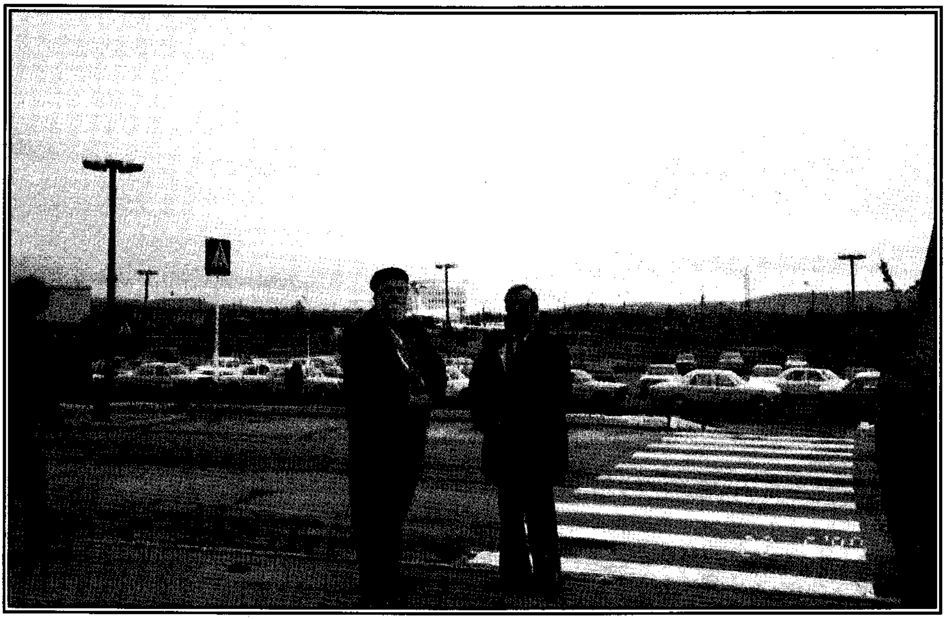
وقد جعلوا عليه صنبوراً تحته حوض فشربنا منه حتى روينا فهو بارد في هذا الجو البارد إلا أنه ليس شديد البرودة لكونه آتيًا من جوف الأرض وهو لذيذ الطعم، ولاحظت بياضًا في لونه قلت لهم: ربما يسمى بالفضي للونه، فقالوا: ربما ولكن الذي نعرفه أن فيه مقادير ذائبة من معدن الفضة.

ووقفة في غابة :

ثم وقفة أخرى في غابة صغيرة مجللة بهذه الأشجار التي تشوب خضرتها صفرة وهي قصيرة القوام رغم كونها معمرة وسمعنا فيها زقزقة طيور صغيرة لم نرها، فأخبرونا أن بعض الطيور المهاجرة الصغيرة تأتي إلى هذا المكان في الصيف وتفرخ فيه حتى إذا بدأ البرد يجتاحه كرّتْ عائدة إلى مواطنها في جنوب الأرض أو في الأقاليم المعتدلة.

الطوابير حتى في هذه البلاد :

وصلنا المطار وقد بقيت في الوقت على قيام الطائرة بقية صالحة فصاروا يروننا مطارهم بفخر لكونه جديد البناء مرتبا، إلا أنه صغير لو كان لعاصمة دولة يبلغ سكانها - أي تلك العاصمة - خمسمائة ألف لكان صغيراً عليها حتى ولو كانت من الدول النامية، إلا أنه في غاية النظافة وأكثر تنظيما من كثير من المطارات المماثلة له في مدن الاتحاد السوفيتي.



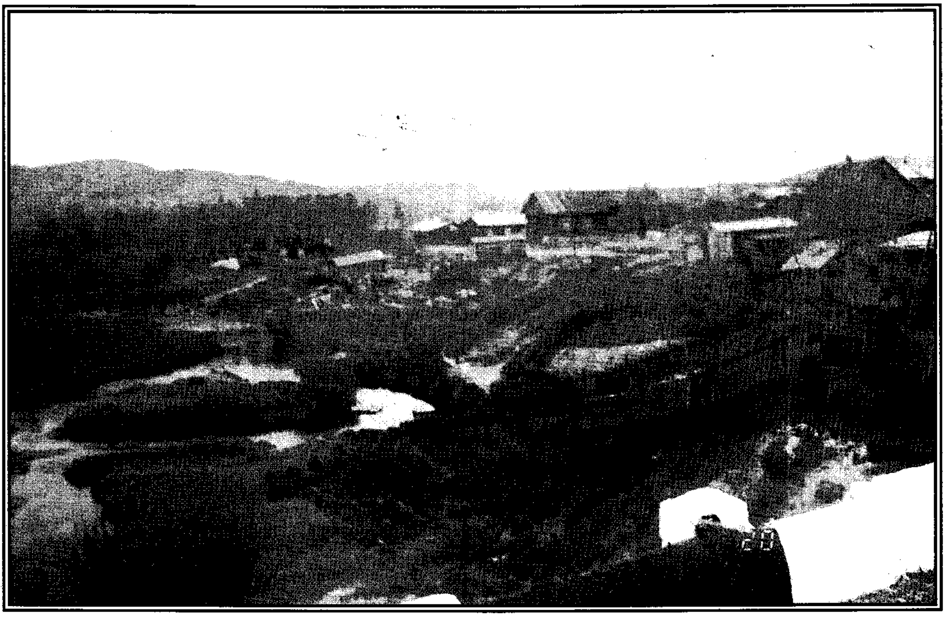
مع الخوري جريجوري في شارع المطار مما يلي المدينة

وأرونا متجراً صغيراً للبضائع في المطار يشتري منه المسافرون والسياح - على قلتهم وأغلبهم من سياح الداخل - تذكارات وتحفا بعضها مصنوع هنا على طريقة روسية لأن هذه البلاد ليس لصناعتها طابع خاص فهي حديثة لم تكتسب مصنوعاتها المحلية تقاليد وسمات مميزة.

فاشترينا تحفًا من الملاعق وغيرها ووقفنا عند المتجر في صف قصير (طابور) وهنا سألت مرافقنا هنا (فلاديمير نيكولاي) عن الطوابير وهي المعروفة في الاتحاد السوفيتي أمام مخازن البضائع أهي موجودة هنا ؟

فأجاب : نعم هي موجودة ونحن نعاني منها مشقة عظيمة وذلك أن كل شيء نحتاجه هو مجلوب من موسكو إلا السمك.

فقلت له: والطعام؟ فقال: والطعام.



مساكن شخصية منفردة بين المطار والمدينة في مورمانسك

وقد تقدم الكلام على ذلك إلا أنني واتتني في ذهني مقارنة أحببت أن أجدد الأمر معه وهي أن هذه البلاد رغم وجود نهرين يصبان في خليجها وهما نهر (كولا) ونهر (تولوما) ورغم كثرة الأمطار وتراكم الثلوج التي يذوب بعضها في الصيف لاتنتج شيئًا من الطعام فهي من هذه الناحية بمثابة الصحراء القاحلة إلاَّ أن الصحراء أرحم منها فهي أحسن جوا وأقل اغتيالا لمن يخاطرون فيها، كما أن الصحراء هي أرض الشمس المشرقة الصافية طول العام وهذه البلاد هي أرض الإظلام أكثر العام، ومع الإظلام البرد الشديد الذي يفتت العظام إذا تعرض له الإنسان دون أن يأخذ له الإحتياط تجمد الدم في عروقه فمات وقد يركبه الثلج فيصبح كأنه قطعة منه.

وفي غرفة كبار الزوار ويسمونها هنا غرفة الدبلوماسيين التي جلسنا فيها عند القدوم قضينا وقتًا قصيراً بينما كان القوم يسعون في قطع التذاكر وتحميل الأمتعة.

فتبادلنا العناوين مع الذين كانوا معنا وعلى رأسهم رجل الدين أو رئيس رجال الدين في هذه المنطقة، وطلبوا منا أن نرسل لهم نسخا من بعض الصور التذكارية التي التقطناها معهم لأنهم في هذه البلاد لديهم مصورات (الآت تصوير) ولكن ليست لديهم أفلام ملونة.

هكذا قالوا مع أن الأفلام الملونة الأمريكية والألمانية تباع في فندق (اركتيا) الذي نزلنا فيه، ولكنهم لايبيعونها إلا بالدولار أو نحوه من العملة الصعبة وهي غير موجودة لديهم ولا يستطيعون الحصول عليها.

مغادرة مورمانسك :

ارسلوا معنا مضيفة أرضية تصحبنا إلى الطائرة رغم بعد موقفها عن مبنى المطار وعدم وجود جهاز لاسلكي معها فسألت ركاب طائرة كانت واقفة عن وجهتهم فأرشدوها إلى طائرتنا واركبونا قبل الركاب الآخرين، جريا على عادتهم في إكرام الضيوف واركابهم قبل أهل البلاد في الطائرة.

ثم كانت مغادرة مطار مورمانسك على طائرة من طائرات شركة (ايروفلوت) وهي شركة الطيران الوحيدة في البلاد ومملوكة للدولة وتملك أكبر عدد من الطائرات عند شركة أو مؤسسة طيران واحدة في كل أنحاء العالم.

أقلعت الطائرة في الثانية عشرة والثلث ظهراً قاصدة موسكو وأعلنت المضيفة أن الطيران سيستغرق ساعتين.

ولم يقدموا في هذه الرحلة وهي في وقت الغداء إلا ضيافتهم المعتادة التي هي نصف كوب من عصير غير جيد من عصير الفاكهة، ومعنا في الطائرة أطفال يحتاجون لطعام.

وذكرت بهذه المناسبة بلاد البرازيل حيث يقدمون الضيافة في الطائرة في كل وقت وإذا لم يكن وقت غداء أو عشاء فإنهم يعطون الراكب علبة من اللدائن فيها مأكول ومشروب إذا لم يكن بحاجة إليه أخذ هذه العلبة معه وأكل مافيها في بيته.

موسكو بلاد الشمس والعبوس :

هكذا ظهرت موسكو لنا بعد أن زرنا هذه البلاد القطبية فقد عهدناها ذات شمس ساطعة وجو يميل إلى الحر إلا إذا هب الهواء فإنه يكون بارداً منعشاً.

ومن إطلالة من نافذة الطائرة وهي تحوم فوق المطار تبتغي النزول فيه رأينا من هذه المنطقة ما رأيناه من غيرها في موسكو من بحيرات متعددة وزوارق في نهر موسكو الذي يؤلف مجراه في بعض الأماكن متسعات مائية فالمستنقعات لاتتسع إلى أن تكون بحيرات وقد احاطت به البسط السندسية الخضراء.

عَوْدٌ إلى موسكو :

هبطت الطائرة في مطار (شري نتوفا) الذي اقلعنا منه أمس وهبوطها مريح مثل طيرانها المريح فأبصرنا في هذا المطار اعداداً كبيرة من الطائرات مثل غيره من المطارات السوفيتية وكلها تابعة لشركة (ايروفلوت) الكبيرة أو لنقل لمؤسسة (ايروفلوت) لأنها مؤسسة حكومية لاتبتغي الربح المالي من أعمالها.

وقد أبطأ الركاب في النزول إذْ ليس من عادتهم أن يبادروا بالقيام من مقاعدهم فور وقوف الطائرة لأنه ليس من عادة العمال على الأرض أن يسارعوا إلى وضع السلم في الطائرة.

وقد وجدنا أن جو موسكو قد تغير بعدنا فهو غائم غيما غير مطبق، ودرجة الحرارة فيه كما أعلنوها من الطائرة هي (١٠) درجات وهي أقل بكثير مما كانت عليه عندما كنا فيها.

وكان نزولي في المطار هذه المرة طبيعياً بمعنى أن أهل المطار لم يشعروا بأنني من الدبلوماسيين الضيوف نسبة إلى أنني أحمل جواز سفر سياسياً وقد طلبت من المرافق الأخ الشيخ عبدالحميد ألاّ يخبرا أحداً بذلك من أجل أن نرى كيفية تصرف الناس الموظفين وفي المطار، كما أرى المطار نفسه على حقيقته التي يراها عليه الجمهور.

فرأيت درج المدخل إلى مبنى المطار قذراً قد بعد عهده بالتنظيف وأعقاب لفافات التبغ تغطي جانبًا منه دون أن تزال، وليس في المطارات الداخلية التي ركبناها فيها في موسكو سير متحرك لنقل العفش وإنما يحمل الركاب امتعتهم بأنفسهم.

ودخلت حمام المطار فوجدته قذراً مهملاً إلى درجة لايمكن تصديقها، فالمراحيض مليئة بالقذرات، وأبواب الحمامات لاتغلق على من يريد أن يقضي حاجته، وهي من خشب متخرق متمزق حتى إن فيها ثقوبًا يمكن من يطلع منها أن يرى من في الحمام، ولكن من الذي يقبل أن ينظر إلى القذارة مختاراً؟

والمباول وهي الأمكنة المخصصة للبول - تفوح منها رائحة البول العفنة فقد بعد عهدها بالماء الذي هو أكثر مايكون لديهم.

ورأيت طابوراً في مبنى المطار تبين أنه ينتهي إلى شباك لبيع تذاكر القطارات لمن يريد السفر بالقطار بعد قدومه بالطائرة وهو طابور طويل حتى إن أحد المرافقين فيه كان يقرأ كتابًا بيده وهو واقف يقطع به الوقت.

دخول إلى موسكو :

إبتدرنا عند قاعة الوصول إلى المطار عدد من الأشخاص كلهم يقول: تاكسي، تاكسي، ويدل ذلك على أنهم يعملون لأنفسهم وأن لهم مصلحة في ذلك لأنهم لو كانوا يعملون في سيارات الأجرة التابعة للدولة لما حرصوا هذا الحرص، مما لم أشهد له مثيلاً في البلدان المتقدمة، ولايوجد مثيله إلا في البلدان المتأخرة.

ولم نحتج إلى (تاكسي) لأن سيارة مكتب العلاقات الخارجية للإدارة الدينية في موسكو كانت تنتظرنا فذهبنا معها إلى مطعم أوكرانيا الذين كنا نتناول فيه طعامنا، وذلك من أجل تناول الغداء ثم الخروج إلى المطار للسفر من موسكو حيث المقرر أن نسافر إلى قازان في الساعة السابعة من بعد الظهر هذا

اليوم أي بعد أقل من خمس ساعات من وصولنا إلى المطار الشمالي لموسكو وسيكون سفرنا من مطار الجنوب.

وجدنا في المطعم في انتظارنا الأخ (مكة محمد إسلام) هذا هو اسمه مكة على اسم مكة المكرمة وهو من التتار والأخ الشيخ جعفر بكماي نائب المفتي الشيخ طلعت تاج الدين وكذلك الشيخ عبدالحميد بن عبدالرؤف المعروف بمنة الله، وهو امام وخطيب في مدينة زين ناروزل في تتارستان.

فتناولنا الغداء مع الجميع وامتعتنا في السيارة.

الخروج إلى مطار الجنوب :

اسرعنا بعد الغداء إلى الخروج من مدينة موسكو إلى مطار الجنوب وهو مخصص للطيران إلى جنوب الإتحاد السوفيتي، ويبعد كما قلت عن قلب مدينة موسكو بحوالي ٧٠ كم.

وكنا مشفقين من أن نكون تأخرنا في الحضور غير أنهم اخبرونا أن الطائرة لم تصل بعد من قازان وأن علينا الانتظار.

وكان الانتظار متعبًا في أماكن الانتظار المخصصة للجمهور في المطار فطلب مرافقنا الأخ عبدالحميد بن محمد حسين من المسئولين أن يدخلونا إلى قاعة (الدبلوماسيين) في المطار لكوني أحمل جواز سفر (دبلوماسيًا) فاعتذروا بأن ذلك غير ممكن الآن، معللين ذلك بأن المرأة التي معها مفتاح الغرفة غير موجودة، وقد تحضر بعد نصف ساعة، وهذا أمر غريب ومثله في الغرابة أننا طلبنا الحصول على قهوة من مقهاة الفندق فأخبرونا أن ذلك أيضًا - غير ممكن الآن، لأن العمال ينظفون أرض المقهاة وآنيتها ولايفرعون من ذلك إلا بعد ثلاثة أرباع الساعة.

هذا مع العلم بأن المطار يغص بالمسافرين والواصلين في هذه الفترة من النهار فجلسنا في المكان المخصص للجمهور في قاعة الترحيل جلوسًا غير مطمئن، وبخاصة أنهم لم يستطيعوا معرفة موعد وصول الطائرة من قازان وهي التي سنسافر عليها.

في قاعة الدبلوماسيين :

بعد الموعد المضروب جاءت امرأة في منتصف العمر وفتحت الغرفة لنا فوجدناها جيدة فيها مقاعد مستطيلة مريحة وبعد الموعد المحدد لفتح المقهاة جاؤا بالقهوة ومعها الكعك اللين (الكيك) ومأكول خفيف آخر فأكلنا واسترحنا ولم يكن معنا أحد في هذه الغرفة ثم نمنا فيها ولم يشاركنا الدخول فيها أحد من الناس إلى أن تركناها بعد أن لبثنا فيها ساعات طوالا.

وهذه الغرفة مهملة من العناية حتى إن فيها كتبا للدعاية ولأغراض أخرى قد ركبها الغبار وبقية أثاثها متروك دون ترتيب.

وقد صلينا في الغرفة الظهر والعصر جمعًا ثم المغرب والعشاء جمعًا وقصراً أيضًا، واستفدنا منها في الراحة والاسترخاء.

ولكن عندما أردنا دخول الحمام أخبرونا أنه ليس فيها حمام وأنه يمكننا أن نذهب إلى الحمام العام في المطار في الطابق الأرضي والغرفة في الطابق الذي فوقه.

فوجدت ذلك الحمام في غاية القذارة والإهمال تفوح منه رائحة البول والأذى قبل أن تدخله وتسبح في جوفه طائفة من الذباب مما خشيت على صحتي منها لأنها تقع على بعض المراحيض المليئة بالقذر دون أن تذهب بها المياه، وليس في داخل الحمام ورق ولاماء، بل إن الموضع الذي يوضع عليه ورق الحمام منها مكسور بحيث لو وجد الورق لم يمكن وضعه فيه.

وذلك أمر عرفته عن الحمامات والمراحيض في الأماكن العامة في الدول الشيوعية من الصين الشعبية إلى رومانيا فكلها على مثل هذه الحالة من السؤ، مع أن الشيوعيين جاؤا إلى الحكم بحجة إراحة الجمهور وخدمته فيما يزعمون، ولكن المحلات التي يستعملها الجمهور في غاية السؤ ولذلك يحرصون على أن يكون الضيوف الأجانب الذين يعرفون وجودهم في أماكن أحسن من الأماكن المخصصة للجمهور في بلادهم.

جمهورية تتارستان

من موسكو إلى قازان :

عرفنامنهم عدم مبالاتهم بالذين يكونون في قاعة كبار الزوار إلا إذا كانوا زواراً رسميين، ونحن لانعرف الروسية حتى نفهم موعد قيام طائرتنا لذلك حرصنا على تنبيه الأخ الكريم المرافق لنا الشيخ عبدالحميد إلى ذلك.

ولذلك انتبه لاعلان المكبر من المطار عندما أعلنوا عن قيام الطائرة في الساعة الثانية عشرة ليلاً.

وعندما وصلنا إلى منطقة دخول المسافرين منعوا الأخ عبدالحميد من الدخول معنا إليها على اعتبار أنه لن يسافر لأن مهمته معنا تكون قد انتهت بسفرنا إلى قازان فهو من إدارة الشئون الدينية في آسيا الوسطى وقازاقستان التي قدمنا منها إلى موسكو وستكون العناية بنا ومرافقتنا في قازان من مسئولية الأخ المفتي الشيخ طلعت تاج الدين، رئيس الإدارة الدينية في القسم الأوروبي وسيبريا.

وقد حاول الشيخ عبدالحميد أن يدخل معنا إلى ما قبل الصعود إلى الطائرة من أجل راحتنا - جزاه الله خيراً - فلم يستطع، وودعناه شاكرين، فقد كان نعم الرفيق في السفر.

وكان الأمر يحتاج إلى حمل الأمتعة حيث كانت أمتعة الركاب كلها مجمعة فأخذنا امتعتنا إلى عربة تنقلها للطائرة مع باقي الامتعة ولم يكن معي في هذه السفرة إلا الأستاذ الصحفي أيمن حبيب من جريدة عكاظ.

قدموا لنا حافلة كبيرة نقلتنا إلى الطائرة مع أن عددنا قليل فليس معنا أحد إلا مضيفة أرضية، أما بقية الركاب فقد سبقونا إلى الطائرة.

فلم نجد مكانًا في الطائرة واعتذروا بما معناه إن بعض الأطفال احتلوا المقاعد، واقاموا شخصين كانا في مكاننا ثم جعلوا يبحثون لهما عن مكان إذْ الطائرة مليئة حتى آخر مقعد بالركاب والطائرة ليست كبيرة أظن أن عدد ركابها لايتجاوز المائة.

أما الركاب الذين امتلأت بهم الطائرة فإنهم أقل وجاهة ونضارة من الركاب الذين كانوا في الذهاب معنا إلى مورمانسك والإياب منها، وبعضهم عليهم القلانس (الطواقي) استشعاراً منهم بأنهم مسلمون لأنها أصبحت بمثابة الشعار للمسلمين في هذه البلاد، وإن كان كثير من المسلمين لايلبسونها.

وقد أبطأت الطائرة بعد استكمال جلوس الركاب في مقاعدهم كالعادة مع أنها كانت متأخرة عن موعدها كثيراً.

ثم اقلعت من المطار في الساعة الواحدة وعشر دقائق متأخرة عن موعدها المحدد في الأصل بأكثر من ست ساعات.

بلاد الشفق والغسق :

كثيراً ماسمعت الشيخ المفتي طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية اللقسم الأوروبي من الإتحاد السوفيتي وسيبريا يقول عن بلاده بلاد البشكير التي عاصمتها مدينة (اوفا) التي مر ذكرها في أول الكتاب بأنها بلاد الشفق والغسق.

ويفسر ذلك بأن الشفق الذي هو النور الذي يلي غروب الشمس يختلط فيها بالغسق الذي هو نور الفجر فلا يكون بينهما فاصل كما يكون في البلدان الإسلامية الأخرى.

وذلك كله - بطبيعة الحال - يكون في فصل الصيف دون غيره من بقية فصول السنة.

وكان أسلافنا العرب يسمونها وما كان أسفل منها من البلاد الواقعة على نهر (ايتل) الذي يسميه عوام الكتاب عندنا بنهر الفولقا (بلاد البلغار) مما اشتبه على بعض الجهال ببلاد البلغار الحالية المسماة (بلغاريا) والتي عاصمتها صوفيا، وهي بعيدة عنها كل البعد ولكن التسمية لها أصل تاريخي صحيح فالبلغار الموجودون الآن في جمهورية بلغاريا أصلهم من هنا، أي من البلاد الواقعة على نهر إيتل (الفولقا) هاجروا من هناك في عصر البعثة المحمدية

وقبل أن يسلم (البلغار) هؤلاء الذين يسكنون على شواطئ ايتل بثلثمائة سنة ولذلك بقي للفريقين اسم (البلغار) وصار التفريق بينهم بالنهر الذي يسكنون حوله فالشماليون اسمهم عند المؤرخين (بلغار ايتل) والجنوبيون اسمهم (بلغار دونه) أي نهر الدون.

وقد اشتهرت بلاد البلغار المسلمين الشمالية هذه عند الفقهاء فذكروها في معرض قصر الليل وطول النهار في الصيف وعكس ذلك في الشتاء وكيفية توقيت الصلاة في الحالة الأولى وأرادوا ببلادهم ما يمتد منها إلى ما يسمى ببلاد الظلمات وهي بلاد القطب الشمالي.

وقد زار الرحالة ابن بطوطة مدينة (بلغار) ووصف قصر الليل فيها بعد أن ذكر ما هو معروف من كون أهلها كانوا مسلمين في زمنه وتقع مدينة (بلغار) على بعد لايزيد على (٣٠٠) كيلو متر من (قازان) التي نحن ذاهبون إليها.

ولذلك لم اعجب حينما رأيت غرة الفجر وضاءة بعد قيام الطائرة من مطار موسكو الجنوبي بعشر دقائق فقط وكان نور الشفق في الجهة الغربية لايزال موجوداً.

ولعلك تذكر ما مر بك من قولنا عند الحديث عن أوقات الصلوات في هذه البلاد الشمالية.

ولاشك في أن ضوء الفجر هذا كان موجوداً قبل منتصف الليل ولكننا لم نكن نراه ونحن بين المباني في مطار موسكو لأننا رأيناه بعد اقلاعها بعشر دقائق، ونحن ذاهبون جهة الجنوب الشرقي وليس جهة الشرق.

وقد ابطأوا بالضيافة القليلة التي يقدمونها عادة وهي عصير الفاكهة ثم قدموا ماءً فقط في اكواب صغيرة قدمه المضيف وهو رجل عليه ملابس معتادة وليست ملابس مضيفي الطائرات.

وكان المفروض أن يشكو الركاب من تأخير الطائرة ومن عدم وجود الطعام فيها لاسيما أن فيها عدداً من الأطفال، ولكنني لم ألمس شيئًا من ذلك، فالجميع كان صامتًا هادئًا.

واستمر ضؤ الفجر أمام عيني بعد الواحدة كما ذكرت لأن مقعدي كان بجانب النافذة والطائرة متجهة جنوبًا شرقًا، ولكن استمر ضؤ الفجر يزداد قليلاً قليلاً دون أن تطلع الشمس مباشرة كما يحدث في بلادنا مثلاً. ومن الطريف في الأمر أن بعض الراكبات تضايقن من وجودهن مع اطفالهن في مقاعد الطائرة فجلسن في أرضها، وأجلسن الأطفال على الكراسي.

وكانت الطائرة تمعن في سعيها نحو مدينة (قازان) عاصمة جمهورية تتارستان، وأنا أفكر في الأمجاد التاريخية للإسلام والمسلمين التي كانت هذه العاصمة المعروفة بإسلامها منذ القديم قد سطرتها بأحرف من نور، كما سطرتها عاصمة المسلمين قبلها (مدينة سراي) التي كانت عاصمة التتار المسلمين عدة قرون من ذلك أنها استمرت حوالي قرنين ونصف من الزمان، وهي تأخذ الضريبة من إمارة موسكو هذه التي اصبحت عاصمة دولة كبرى هي دولة الإتحاد السوفيتي كما كانت تأخذ الضريبة من الإمارات والمقاطعات الروسية الأخرى.

وكان مجرد ذكر الحرب مع المسلمين يخيف الروس المسكوفيين ويرهبهم، لما ذاقوه من قوة المسلمين في الماضي، حتى نشبت الخلافات بين قادة المسلمين في المنطقة، وزاد اتحاد الروس في المقابل ووقوفهم ضد المسلمين فكانت الهزيمة الماحقة لمدينة (قازان) على يد القيصر إيفان الرهيب أو المدهش حيث احتلها وهدم جامعها في عام ٩٥٩هـ الموافق ١٥٥٢م ولم تقم للمسلمين دولة مستقلة من ذلك التاريخ.

وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل كانت الطائرة تحوم فوق (قازان) ومازالت غرة الفجر وضاءة في الآفاق، إلا أن الظلام كان يلف الأرض أرض قازان كما يلف الغموض تاريخها عند عامة الناس في بلاد الإسلام.

وبدا نهر (ايتل) الذي يسمى (نهر الفولقا) وهو يغسل أقدام قازان والنهر الآخر نهر قازان وهو يزيل الدرن عن وجهها الوسنان، وكأنما تظاهرا على أن يلتقيا في هذه النقطة من مدينة قازان كما يتلاقي المحبان في البستان.

في مطار قازان :

هبطت الطائرة في مطار قازان في الثانية و٥ دقائق من بعد منتصف الليل بعد طيران لم يزد على ساعة وربع فهي ليست بعيدة من موسكو.

ووجدنا في استقبالنا في الطائرة الأخ الشيخ كامل بن إمام الدين، ذكر لنا أنه إمام وخطيب في مسجد قازان وقال لي بعضهم بعد ذلك: إنه لم يبلغ درجة أن يكون إمامًا في الجامع وإنما هو مؤذن، وعبدالحميد عبدالباري رئيس المتولين في المسجد المذكور، وذلك حيث صعدا إلى الطائرة لمقابلتنا فيها، معهما مضيفة أرضية صحبتنا حتى بناية المطار.

ثم اجلسونا فترة قصيرة في قاعة كبار الزوار إلى أن حملوا امتعتنا على سيارة أخرى من سيارتين كانتا معهما وكنا نحمل متاعًا كبيراً من الهدايا للمساجد وأئمتها في قازان، كما أن معنا ثقلاً من هدايا أهديت لنا في طول رحلتنا في الإتحاد السوفيتي، وقد تولى ثقل ذلك كله هذان الأخوان الكريمان جزاهما الله خيراً، إذْ لم نجد في المطار حمالين يحملونه عنهما، ولم يكن بنا قوة على أن نكفيهما مؤنة حمله.

مدينة قازان :

انطلقت السيارتان من مطارقازان الذي كاد يخلو من الناس قبل تحركنا إذْ كان الذين معنا قد ذهبوا إلى المدينة، والوقت ليس وقت اللبث في المطار.

وكان الضؤ قد انتشر إلا أن الشمس لم تشرق بعد فأبصرنا طريق المطار ضيقًا وسط مزارع غير نضرة، إلا أن الخضرة الشاملة من الأعشاب وبعض أشجار الظل كانت شاملة.

وقد علمنا بعد ذلك أن شمول الخضرة هنا هو مثل منطقة موسكو من اعشاب برية تخلفت عن ذوبان الثلوج، ومن حقول تنتج بعض المحصولات الزراعية، ولكنها لاتصلح لانتاج أكثر المزروعات النافعة التي تنتجها البلاد المعتدلة.

حتى وصلنا إلى ضواحي المدينة التي يبدو عليها طابع القدم ولم تكن فيها حركة للناس والسيارات في هذا الوقت المبكر من الفجر رغم اتساع النور.

ونزلنا في فندق بلغار وهو من الدرجة الثانية حيث تعذر فيما أخبرونا به الحصول على غرف لنا في فندق تتارستان الذي هو أرقى منه، وانزلونا في غرف كل واحدة منها أمامها قاعة جلوس فيها ثلاجة وتلفاز ملون كبير وسريران إلاَّ أن السرير فيها ضيق مثل سائر فنادق الإتحاد السوفيتي التي نزلنا فيها حتى في الفنادق الراقية، وحتى الأغطية ليست عريضة ولا أدري ما يصنع النائم في شدة البرد إذا انزاح عنه الغطاء الضيق، والوسائد في هذا الفندق مستديرة كالبكرة المستطيلة الشكل تكون على هيئة القماش الطويل الذي يباع ملفوفًا بعضه على بعض.

يوم الخميس ١٤١٠/١١/٢٨هـ.

جولة في مدينة قازان :

استيقظنا مبكرين رغم كوننا لم ننم إلا في الثالثة قبل الفجر، وقد أبطأ علينا مرافقنا الأخ كامل إمام الدين وقد يقتصر من ذكر اسمه على (كامل إمام) لأنه كان قد سهر الليلة البارحة في انتظارنا في المطار.

وفي الساعة الثانية عشرة كنا نبدأ جولة للإطلاع على بعض معالم مدينة قازان ستتبعها جولات أخرى إن شاء الله، ولكن ماعرفته أول الأمر من المرافق الشيخ (كامل إمام) جعلني أخشى من ألا أتمكن من معرفة ما أريد معرفته منها، كما تمكنت من مثل ذلك في صحبة إخوان آخرين، وذلك بأن الشيخ كامل رجل لايحب فضول الحديث، ولغته العربية ليست كافية لاكثر من الأشياء الضرورية المعتادة.

ومع ذلك شرحت له ما أفكر فيه ورجوته أن يصبر على اسئلتي الكثيرة، وأن يشرح لي دون سؤال أمر مانمر به من أماكن ومعالم في المدينة ومن شواهد عدم محبته الخوض فما لايعنيه أنه لم يعرف اسم رئيس جمهورية تتارستان على سبيل المثال.

واسم (قازان) مأخوذ من اسم نهر (قازان) الذي يلتقى بنهر ايتل (الفولقا) عند تلك النقطة التي بنيت عليها المدينة.

وأما معنى اسم (قازان) للنهر فإن معناه القِدْر، قيل : إن ذلك لكونه محفوراً كالقدر أو لنحو ذلك مما لم يعرفه أصحابنا.

ومدينة (قازان) مدينة تتارية خالصة بناها الملك صرتق خان بن باتو خان من ذرية جنكيزخان المغولي الشهير.

وذلك أنه أثناء حكم التتار لتلك المنطقة وبعد أن تغلب على حكام روسيا التي كانت ممالك وإمارات متعددة استقبله حكام الروس بالخبز والملح علامة الطاعة والانقياد لأمره، فترك مقاتلتهم وقبل هداياهم، ثم نزل مع عساكره منزلاً وأمرهم أن ينتخبوا موضعا صالحًا لإقامة الملوك جيد الهواء ويكون قريبًا من بلاد روسيا ليسهل على المسلمين جمع الخراج من الروس ويكون الروس تحت انظار ملوك المسلمين، وموضع مراقبتهم.

فوقع اختيارهم على موضع قازان فبنوا فيه بلدة، وانشأوا فيه قصوراً واسموه (قازان) فاجتمع فيها خلق عظيم من التتار والجرميش والجواش والوتاك والموردو والبلغار، وكلهم كانوا مسلمين.



ضاحية منسقة في قازان

وأهل قازان الأصلاء في الوقت الحاضر يتألفون من أنسال هؤلاء ويجمعهم اسم (التتار) أما الكفار من سكانها فإنهم من الروس والأوكرانيين والأرمن المهجرين وغيرهم من الطوائف غير المسلمة التي تؤلف نصف عدد سكان قازان في الوقت الحاضر أو يزيد على ذلك وقد صارت دار خانية أي سلطنة عظيمة اسمها (خانية قازان) اعتباراً من عام ٨٤١هـ وإن تكن جزءاً من دولة (آلتون اورده) المسلمة الشهيرة.

واستمرت كذلك إلى أن استولى عليها الروس في عام ٩٥٩هـ.

ولكن ليست هذه المدة هي وحدها التي كان فيها الروس خاضعين لملوك المسلمين التتار وقبلهم البلغار وإنما كانوا قبل ذلك كذلك بسنين طويلة، وقبل أن تنشأ قازان هذه.

ولولا أن المجال هنا ليس مجال بحوث تاريخية مفصلة لنقلت هنا ما يزدهي القارئ الكريم من أخبار المسلمين وعظمة الإسلام في هذه البلاد عندما كان قادة المسلمين مجتمعي الكلمة آخذين بالإسلام ثم ما يشجي القارئ الكريم ويثير أحزانه عندما تفرق المسلمون وصار بعضهم يقاتل بعضا حتى صار بعضهم يستعين بالروس وغيرهم من النصاري كالليتوانيين - سكان لتوانيا - فضاع ملكهم، وانقلبت كفة الدهر بهم حتى صاروا محكومين من الروس بعد أن كانوا حاكمين عليهم، ولله في خلقه شئون!.

ميدان الحرية :

كانت أول وقفة في ميدان اطلقوا عليه ميدان الحرية مع أنهم لم يحصلوا على حريتهم بعد أن اسقطت دولتهم فهم تحت حكم شيوعي قد حرم كل الشعب من حريته الإقتصادية والسياسية، ولكن العناوين تكون خداعة أو حتى لو لم تخدع الناس فإنها يخيل لواضيعها أنها قد تنطلي على السذج من الناس.

وفي وسط ميدان الحرية هذا تمثال أقاموه لزعيم الشيوعية الهالك (لينين) وهذه عادة لهم في أن يقيموا تماثيل لينين في أهم الميادين من مدن الإتحاد السوفيتي، حتى في بلدان المناطق الإسلامية.



الشيخ كامل إمام وعلى يمينه إحدى المسلمات في أحد الميادين في قازان

وينتصب تمثال لينين أمام مقر الحزب الشيوعي في الجمهورية جمهورية تتارستان.

نصف السكان مسلمون :

هذه البلاد البلغارية التي أسموها تتارية كان جميع سكانها من المسلمين وكانت ذات مجد تاريخي إسلامي عريق غير أنه على أثر الاحتلال الروسي لها قبل الشيوعية بأدهارصار يهاجر إليها أناس من الكفار من الروس والأكرانيين وغيرهم حتى صارت نسبتهم في العاصمة تعادل نسبة المسلمين وأثروا على أبناء المسلمين فيها، حتى صاروا لايعرفون من دينهم إلا أنهم غير مسيحيين وذلك فيما عدا بعض أئمة المساجد الذين هم من القلة بمكان.

ومع ذلك لاتزال بعض المسلمات وخاصة من المسنات والمتوسطات في العمر يتمسكن بمظهر إسلامي يتميز في غطاء للرأس لايستعمله غيرهن من النساء.

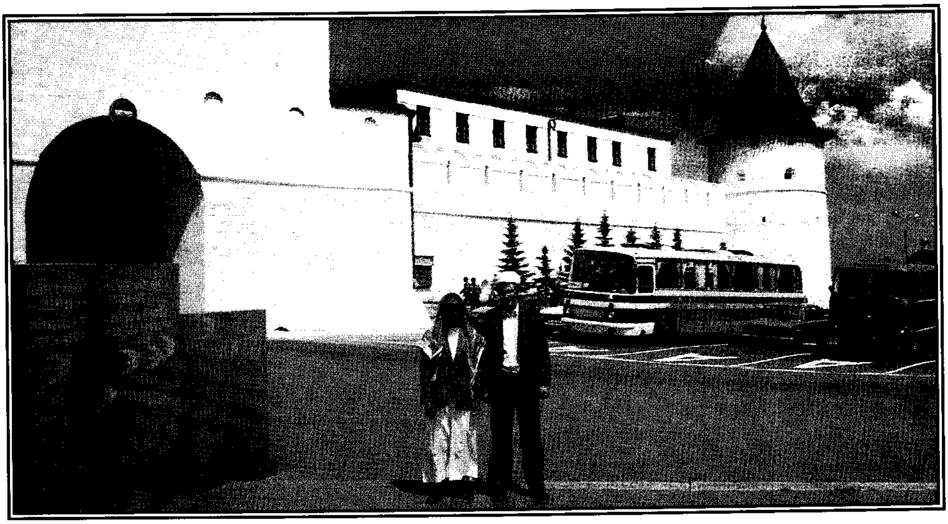
أما أكثر من يراهم المرء في المدينة فإن مظاهرهم سواء منهم الرجال والنساء هو مظهر الأوروبيين، لأنهم حتى المسلمون منهم ينتمون جغرافياً إلى القارة الأوروبية ولاتربطهم بقارة آسيا إلا روابط قديمة بل بالغة القدم.

إضافة إلى وجود نصف السكان من الروس والأكرانيين الذي هم من الأوروبيين الأصلاء كما قدمت.

القلعة الإسلامية :

واصلنا مرورنا في شوارع مدينة قازان فمررنا بجامعة اسمها جامعة لينين قالوا: إنه كان قد درس فيها فترة من الزمن.

ولاحظنا أن الشوارع مشجرة بأشجار كبيرة نامية منذ عهد بعيد، ولكن التشجير فيها غير شامل للشوارع مع أن خضرة الأشجار الباسقة موجودة في كل مكان اتجه إليه المرء وذلك لكون المدينة تقع عند التقاء نهرين، وتتمتع بمقادير ضخمة من المياه العذبة إضافة إلى كثرة الأمطار التي تقع عليها، وكثافة الثلوج التي تجللها في الشتاء.



في ميدان قلعة الكرملين في قازان مع كامل إمام

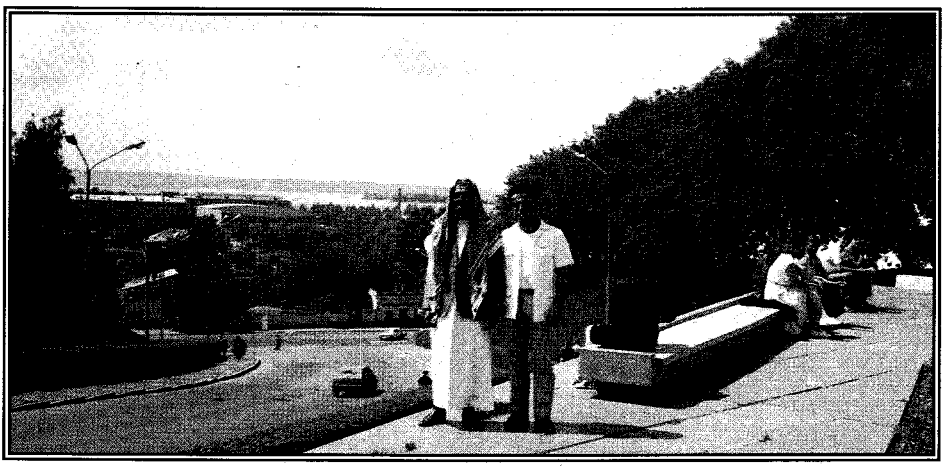
وكان الهدف من مرورنا هذا هو الذهاب إلى قلعة بيضاء اللون، ذكروا أنها كانت قلعة المسلمين قبل سقوط المدينة في أيدي الروس، فغيروا تسميتها إلى قلعة (الكرملين) تشبيها لها بقصر الكرملين الحصين الموجود على الميدان الأحمر في موسكو.

هكذا قالوا، وإن لم اكن من ذلك على يقين.

وتقع القلعة ضمن منطقة مرتفعة تطل على نهر ايتل الذي هو نهر الفولقا حيث يغسل اقدامها ويتمددأمامها، مفسحًا المجال لمقادير ضخمة من المياه العذبة أن تنتفع بها المدينة.

ويرى المرء من هذا المكان المرتفع مناطق شاسعة من ضواحي المدينة وأطراف نهر (الفولقا) تجلل الخضرة شطآنه ويهز النسيم افنانه في هذا الجو الربيعي البديع، وفي مناظر غاية في الروعة والجمال.

غير أن المرء الذي يكون مثلي قد قرأ تاريخ المسلمين في هذه البلاد وما لقوه من هزائم على أيدي أعدائهم الذين قضوا على دولتهم قضاء مبرمًا، وقضوا عليهم ثقافيًا بما هو مثل ذلك في ظنهم فإنه لابد أن تختلط في ذهنه مشاعر الإحساس بالروعة والجمال بمشاعر الأسف والاسى على تغير الأحوال لغير صالح الإسلام وإن كان لايزال يلمس بصيص النور في حلكة الظلام متمثلاً في حرص المسلمين التتاريين في الوقت الحاضر على العودة إلى المنابع الثقافية الإسلامية الأولى والإعتزاز بشخصيتهم المتميزة حتى إنهم أخذوا يعودون إلى ارتداء الملابس التتارية المميزة وأخذ حتى المتعلمون منهم تعليمًا عصريًا يضعون على رؤسهم القلانس وهي الطواقي إشارة منهم إلى أنهم مسلمون يتميزون عن غيرهم من المواطنين.



مع أحد المسلمين في المنتزه المرتفع في قازان

وقد جعل المرافقون من المسلمين الذين انضموا إلى الأخ كامل إمام الدين واسم أحدهما سليمان ... والآخر فريد فصاروا مجتمعين يحدثوننا الحديث المحزن المتمثل لما حصل على المسلمين في هذه القلعة.

قالوا : إن القيصر إيفان (كروزني) وهذه كلمة روسية معناه: المدهش أو الرهيب، عند ما احتل بجيشه مدينة قازان قتل من أهلها عشرة الآف انسان ثم أغرق جنودُه ومن جاؤا بعده كل من لم يقبل المسيحية في نهر (الفولقا) هذا وبخاصة علماء المسلمين.

وهدم هذه القلعة وبقيت مهدومة مدة طويلة حتى بنيت في القرن الحادي عشر الهجري على ماهي عليه الآن.

المسجد الذي حولوه إلى كنيسة :

بعد الأحاديث المحزنة عن هذه القلعة التي كانت رمزاً لقوة المسلمين ذهب الرفاق بنا إلى مكان قريب بل هو جزء غير بعيد من هذه المنطقة المرتفعة التي ترى من سائر أنحاء المدينة القديمة ومن نهر ايتل (الفولقا).

وذلك لمشاهدة مسجد عظيم حوله الروس إلى كنيسة وكان مسجداً عامراً بالمصلين، زاهراً بأنوار الإسلام إلى زمن احتلال ايفان الرهيب هذه المدينة.

وقد جملوا كنيستهم التي كانت مسجداً بحيث طلوا ابراجها وقبابها بالذهب الذي يرى من مسافات بعيدة.



قباب المسجد الذي حولوه إلى كنيسة في قازان

وقبابها وابراجها والمراد بذلك هذه الكنيسة التي كانت مسجداً مبنية على طراز المساجد التي بنيت في المعهد المغولي في الهند، ولاشك أنها أقدم من تاريخ ازدهار امبراطورية المغول في الهند، ولكن الأساس في ذلك الطراز هو أساس تركستاني، نقله المغول المسلمون مع مانقلوه من مظاهر المدنية إلى القارة الهندية ولايزال الآن يمثل أكثر مظاهر المدنية الإسلامية المغولية في الهند، وقد تأنقوا في تجميل المكان المحيط بالكنيسة وبخاصة ماكان من جوانب مدخلها فغرسوا فيه نوعًا من الزهور غريبا لا أذكر أنني رأيت مثيلاً له من قبل مع أنني رأيت أنحاء العالم، وإن لم أدع لنفسي المعرفة بأنواع الزهور فهي طويلة ترتفع إلى صدر الرجل الواقف، وزهورها تشبه زهور الفطر الذي ينبت عندنا في الصحراء فليست أوراقًا خالصة كالأوراق المعتادة.

المنارة الشامخة :

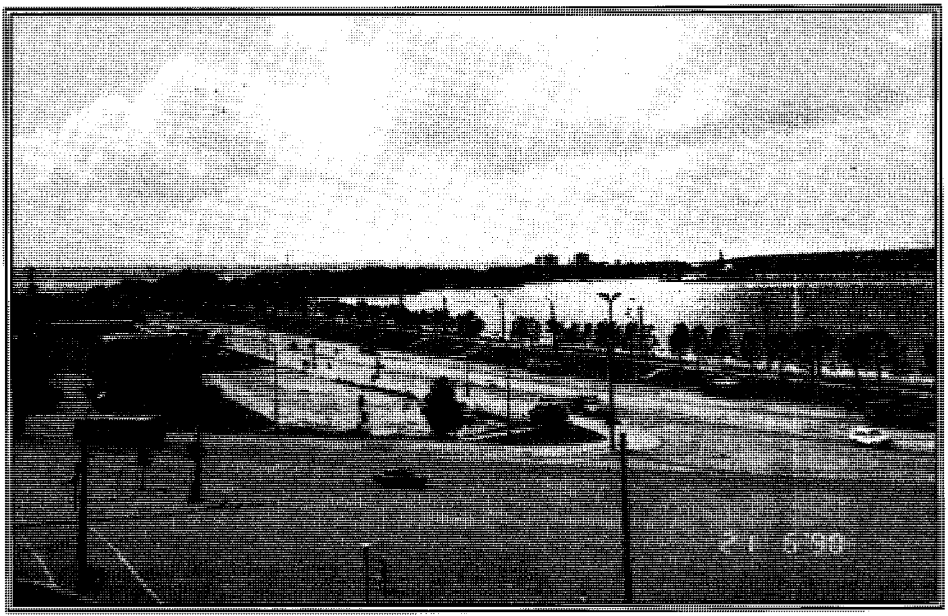

المنارة العالية في قازان
أسفلها الزهور الطويلة العجيبة

وغير بعيد منها رأينا مسجداً متوسط السعة، غير بهي المنظر بجانب تلك الكنيسة التي حولت من مسجد وهو ذو قبة لونها أخضر وقالوا أيضًا إنه كان مسجداً فحول إلى كنيسة والآن صار متحفًا وليس على قبابه شعار إسلامي أومسيحي وبناؤه قديم، ولكننا رأيناهم الآن يفعلون شيئًا جيداً أرادوا به أن يكون شعاراً للإسلام أعلى من شعارالمسيحية وهو أنهم يبنون الآن منارة ضخمة على هيئة صومعة مربعة على شكل يقرب من أشكال المآذن في الأندلس وفي المغرب حتى الآن، ويريدون لها أن ترتفع شامخة في السماء فيضعوا عليها شعار المسلمين الهلال والنجمة ويضيئونها بحيث ترى في الليل

من مسافات بعيدة، وبذلك يغطي منظرها بمظهرها الإسلامي على منظر أبراج الكنيسة وقبابها لأنها أعلى منها وقد رأينا البناء فيها قد ارتفع وصورناها ولكن لايزالون يرفعونه.

ملتقى النهرين :

قدر لي أن أرى ملتقى أنهار كثيرة في أنحاء العالم لو ذهبت اعدها هنا لخرجت عن المقصود من الكلام ولكن من أقربها لنا ملتقى الرافدين نهري دجلة والفرات في العمارة في العراق، وملتقى النيلين الأبيض والأزرق قرب الخرطوم في السودان، وأبعدها ملتقى نهري الأمازون وهما النهر الأسود ونهر سالمونس وقد ذكرت أمر التقائهما في كتاب: «على ضفاف الأمازون»..



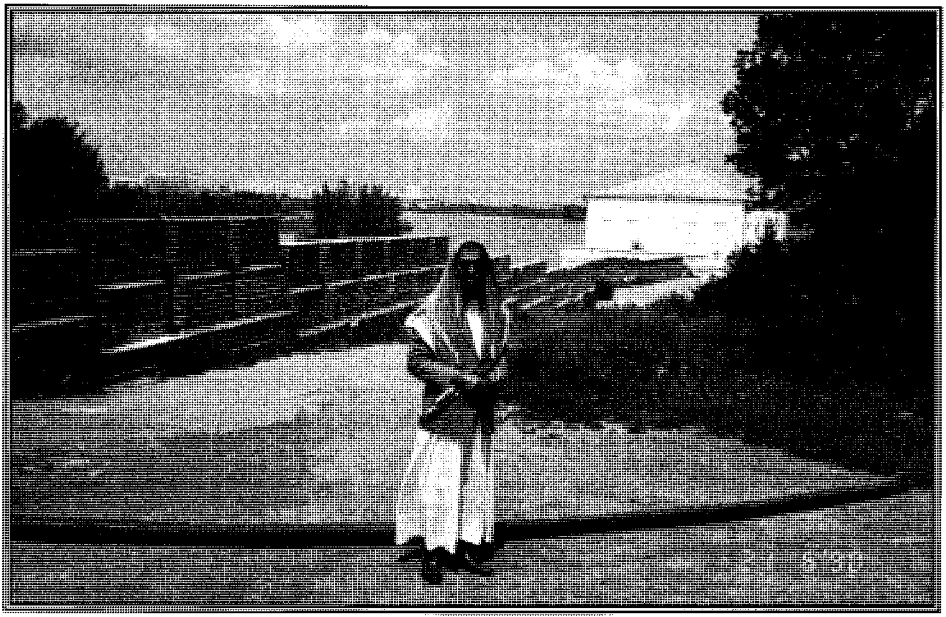
ضفة نهر الفولجا عند قازان

وهنا رأيت اليوم ملتقى نهر ايتل المسمى بالفولقا ونهر قازان وهو منظر جليل جميل في اعيننا نحن الذين نعيش في الصحراء، ونفتقد الأرض الخضراء ونشرب من البحر لأنه لايوجد لدينا نهر وذلك بعد أن نصفيه وننقيه، مما فيه من شوائب وذوائب حتى يصبح عذبًا فراتا، بعد أن كان ملحًا أجاجا ويؤلف ملتقى

النهرين عند مدينة قازان الذي يرى من مكان مرتفع فيها مكانًا حيويًا في هذه المدينة منذ تأسيسها ولايزال حيويا لها حتى الآن لاسيما في هذا العصر الذي أصبح فيه الحصول على الغذاء امراً مطلوبًا وصار مايزيد منه عن حاجة منتجيه سلعة ثمينة.

وتطل على ملتقى النهر وإن كان ذلك من مكان غير ملاصق المساجد التي حولت إلى كنائس أو متاحف والمنارة الضخمة التي قدمت ذكرها التي من المقرر أن تكون أعلى بناء في المدينة رمزاً لعلو شعار الإسلام والمسلمين.

وهو رمز نرجو أن تتلوه الحقيقة فيرتفع شعار الإسلام عاليًا على غيره، حاكمًا على ما سواه كما كان في هذه البلاد في قديم العصور.

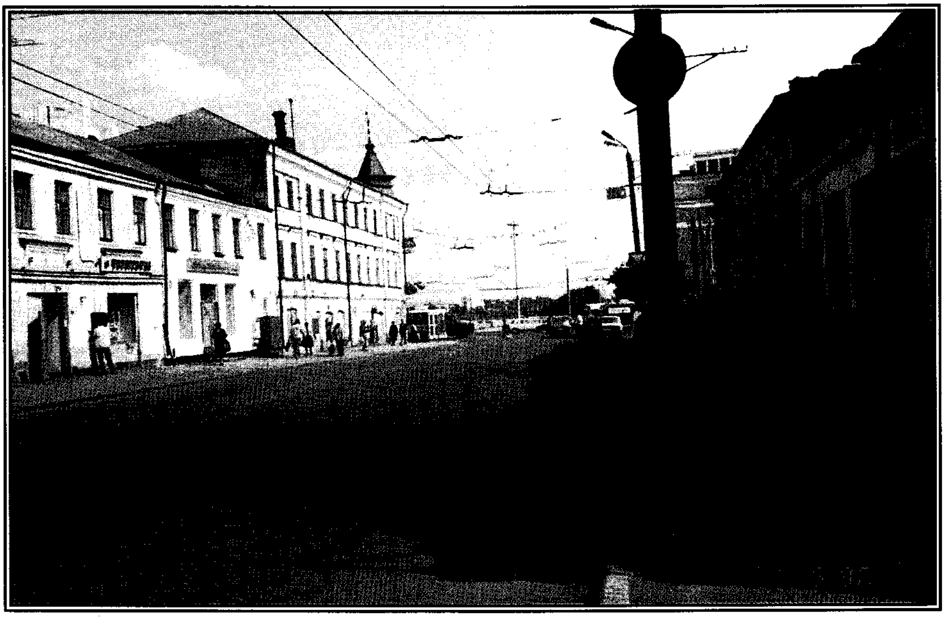


على ضفة نهر الفولجا في قازان

قلب المدينة :

ذهبنا إلى قلب المدينة من أجل الصلاة في الجامع الكبير فيها فوقفنا في نقطة مهمة منها هي ميدان يطل عليه فندق (تتارستان) ويقع في قلب المدينة

الذي يعج بالحركة لاسيما في هذه الساعة من وقت الظهر وقد عدت إليه بعد ذلك عدة مرات فوجدته دائمًا يمتلئ بالأناسي والسيارات.



شارع في قازان

كما أنه مركز مهم للمواصلات العامة التي تنطلق إلى أحياء المدينة وضواحيها وهي مؤلفة من الحافلات المعتادة وقد رأينا صفًا طويلاً من الركاب في موقفها ينتظر الواقفون فيه وصول الحافلة، وقد وصلت الحافلة بالفعل وحملت اكثرهم، وهناك (الترام) الذي يسميه عوام المصريين (التورماي) وهو ينقل الناس على خطوط حديدية مثبتة في شوارع المدينة الرئيسية شأنها في ذلك شأن كثير من المدن السوفيتية وهناك حافلات الكابلات أو الحبال الكهربائية التي هي على الحافلات المعتادة التي تسير على إطارات كإطارات السيارة ولكنها متصلة من اعلاها بأسلاك قوية من الكهرباء.

وكل هذه الوسائل العامة متوفرة وهناك سيارات الأجرة (التاكسي) وهي كثيرة كثرة لم أرها عليه في موسكو مثلاً، وأكثرها حكومي وقليل منها شخصي أي يملكه صاحبه فيما ذكروه لنا.

جامع المرجانية :



مدخل جامع المرجانية في قازان

اسرعنا إلى جامع المرجانية أكبر المساجد واشهرها في قازان وقد سلم من عدوان الشيوعيين إذْ أبقوا عليه، ولم يصادروه كما صادروا غيره من المساجد كما سلم من عدوان القياصرة النصارى الذين حولوا بعض المساجد إلى كنائس، وإن كان تاريخ بنائه بعد سقوط دولة قازان بكثير، فقد تعاقبت على المسلمين في هذه المناطق مصائب وبلايا من المسيحيين المتعصبين وصلت في بعض حقب التاريخ إلى حد إجبار المسلمين على الدخول في المسيحية اجمعين، ومن لم يفعل ذلك فإنه يبعد عن بلده، وإذا قاوم ذلك يقتل.

ونسبته إلى الشيخ مرجان بن شهاب الدين مرجاني وهو عالم مؤرخ من علماء هذه البلاد المشهورين، وكان تاريخ بناء هذا المسجد قبل مايزيد قليلاً على مائتي سنة.

وصلنا إلى المسجد وكانت صلاة الظهر على وشك الإقامة فدخلنا إليه من باحة مكشوفة بعدها قسم مسقوف يصعد في درج منه إلى المسجد الرئيسي

فوجدناه مكتظًا بالناس الذين حضروا لصلاة الظهر، وهم في صفوف عديدة إلا أنها قصيرة.

ومن الغريب فيه أن في آخرهم صفا من كبار السن قد جلسوا على الكراسي يصلون عليها دون قيام، أو سجود، وذلك لعجزهم عن الحركة التي تلزم للقيام والسجود على الأرض بسبب كبر السن، وربما كان لرطوبة البلد وبرودتها دخل في عدم مرونة مفاصل الناس فيها إذا بلغوا من الكبر عتيا.



المؤلف يلقى كلمته في جامع المرجانية في قازان

على يمينه الأستاذ كامل إمام ويساره المترجم

وهذا الجمع من المصلين الذين أكثرهم من كبار السن في يوم معتاد من أيام العمل، ولو كان في يوم عطلة كيوم الأحد مثلاً لكان عدد المصلين أكثر من ذلك بكثير.

وقد القيت في المصلين كلمة بعد الفراغ من الصلاة استمعوا لها كلهم دون أن يخرج من المسجد أحد وقد تضمنت التحية لهم من مهابط الوحي ومنطلق

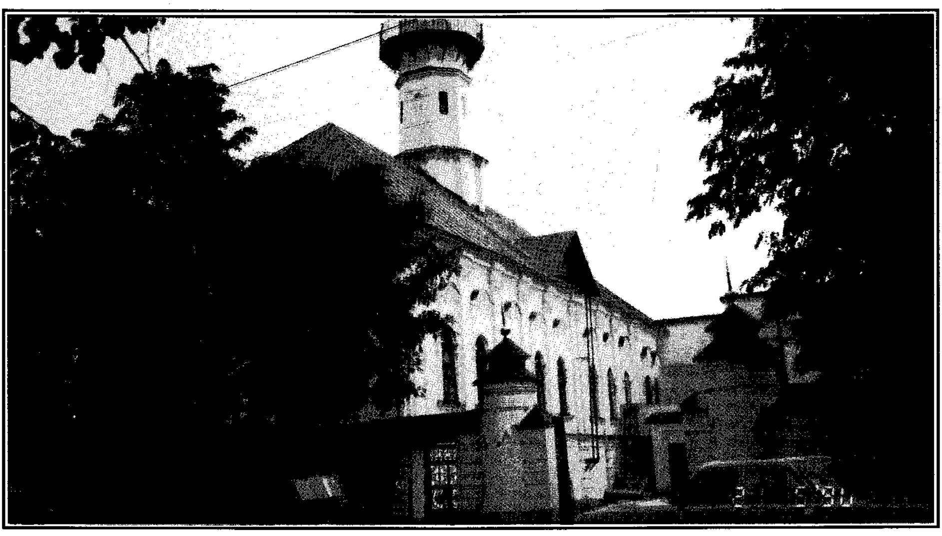
الرسالة من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وبينت لهم أهداف الرابطة، والغرض من مجيئنا إلى هذه البلاد وقلت لهم: إننا سننقل ما شاهدناه منكم هنا من محبة للإسلام والمسلمين إلى إخوانكم في الحرمين الشريفين.

وختمتها بدعاء لهم خاصة وللمسلمين عامة وقلت في نهايته إننا نسأل الله تعالى أن يقدر الاجتماع بكم مرة ثانية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، فضجوا بالتأمين، وبلغ بهم التأثر مبلغه، فجاؤا كلهم إليَّ يسلمون ويقبلون ويحتضنون، وقال عدد منهم وهو يسلمون: والله إننا الآن نشعر وكأننا رأينا رسول الله حينما رأيناك.

وكنت ارتدي الملابس العربية.

وقد ترجم كلمتي من العربية إلى التتارية الشيخ ابوبكر بن علي وهو إمام في منطقة بنزا على بعد ٦٠٠ كم من قازان.

وعندما انتهت الصلاة وخرجنا إلى الفناء الخارجي للمسجد وجدنا القوم قد احضروا جنازة للصلاة عليها في فناء المسجد، وقد حضر جمع من أهل الميت، وقد اصطفوا صفوفًا في المسجد، وأمَّ الصلاة على الجنازة إمام المسجد الشيخ عبدالله بن صفاء.



جامع المرجانية في قازان

وهم لايدخلون الجنازة إلى المسجد، وإنما يصلون عليها في الفناء المكشوف، وصلاتهم عليها مثل ماهي عندنا من دون زيادة أو نقص أو تغيير.

غداء تتاري :

كان موعد الغداء في هذا اليوم في مطعم تتارستان الذي هو تابع لفندق تتارستان، فكان طعامًا هنيئًا لذيذاً وسبب ذلك أن اللحم فيه بقري طازج كنا قد افتقدناه عندما تركنا طشقند حيث كان الطعام بخاريًا ممتازاً، جميع اللحم فيه لحم طازج مما ذبحه المسلمون، أما في موسكو ومورمانسك فإن اللحم كله مثلج محفوظ منذ زمن، هذا إذا وجد، وإلا فإن أغلب مايقدمونه هو السمك ولو كان طازجًا لكان جيداً، وإنما يكون مخزونًا قديمًا كثيراً ما تكون أطرافه سوداً من طول الخزن أو من سوئه.



أمرأة من المسلمات امام فندق تتارستان وفي يمين الصورة الشيخ كامل إمام

وقد كان مطعم الفندق مليئًا بالمسلمين الذين يغطون رؤسهم بالطواقي (القلانس) الخاصة، وأكثرهم من الذين يستعدون لمغادرة هذه المدينة إلى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج، وقد جعلوا من قازان مكان تجمع لهم.

وكان الإخوة الكرام يحيوننا عندما يعلمون أننا قادمون من مكة المكرمة، والقوم بطبيعتهم وديون ومجاملون.

ميناء قازان :

استأنفنا الجولة بالسيارة بعد الغداء، فذهبنا إلى ميناء قازان وهو ميناء نهري عظيم، إذ قازان بعيدة عن البحار كما هو معروف.

ويقع الميناء على نهر قازان أحد النهرين الذين يمران بالمدينة وهو ميناء معمق القعر، إذْ رأينا فيه بواخر كبيرة راسية لاتكون كذلك في العادة إلا على ميناء بحري عميق، وتسير البواخر مع نهر ايتل (الفولقا) إلى حيث يصب النهر في البحر وإلى حيث يقبل النهر على قازان قبل انحداره منها.

وكان الجو ربيعيًا ممتعًا قد سطعت شمسه، وابتسمت سماؤه فتلاقت ابتسامتهما مع الابتسامات النهرية الصافية.



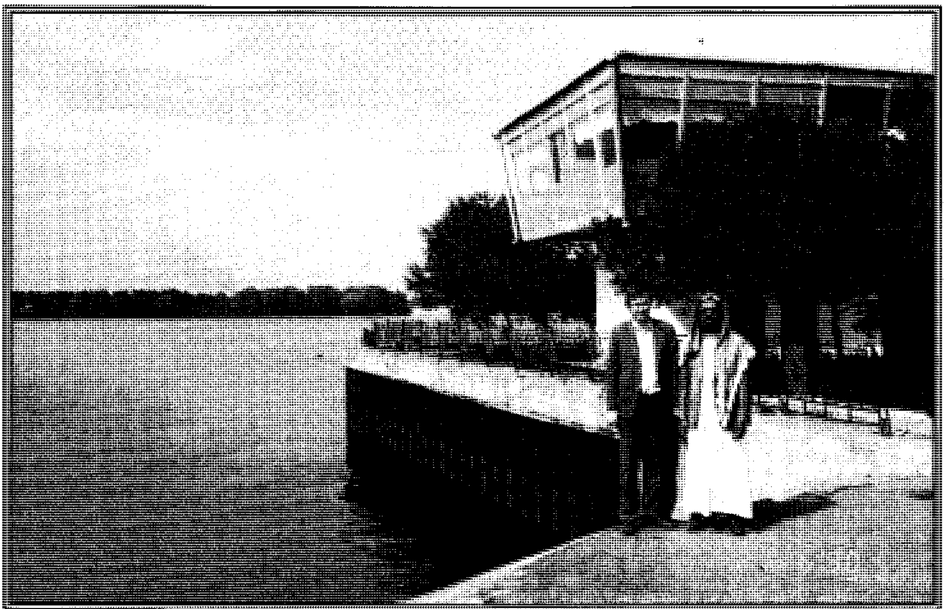
في شارع الميناء النهري في قازان

وقد جملوا شارع الميناء على النهر ما شاء لهم التجميل من زهور مختلفة الألوان وخضرة طبيعية من أشجار تميل منها الافنان، وهي تعانق مياه النهر لايفصل بينهما في بعض الأحيان إلاّ ثالث الثلاث الحسان: الماء الخضرة والوجه الحسن.

لاسيما أن ذلك الفاصل من وجوه بيض قد لسعتها الشمس الصافية فصارت وردية دامية، وقد أخذت من هذا الصيف الذي هو في الحقيقة ربيع مريع - بفتح الميم - عذراً، لكي تبدو منها الأطراف حتى تكاد تصل الأرداف.

وحتى البواخر الراسية فيه والمنازل المطلة على حواشيه هي جميلة الطلاء، رائعة المنظر وقال المرافق الأخ (كامل إمام): السبب في ذلك أن الأجانب والسياح ينزلون هنا.

وقد جلس الناس على المقاعد أو استرخوا فوق الاعشاب يتشمسون في شمس حامية كأنها شمس الشتاء عندنا.



على شنير الميناء النهري في قازان مع كامل إمام

وقلت لصاحبي الاستاذ أيمن حبيب: أين هذا الجو الربيعي المبتسم، من جو مورمانسك العابس الثالج حتى في شهر الصيف الشديد: شهر حزيران؟.

وقد ذكرني منظر هذا الخضم الضخم من المياه النهرية العذبة، والبواخر راسية فيه، والناس الموجودون حوله ما كنت رأيته قبل ذلك في مدينة (بوينس آيرس) عاصمة الأرجنتين التي تقع على حافة الطرف الجنوبي للأرض كما تقع مدينة (قازان) هذه على حافة الطرف الشمالي والمقصود بحافة الطرف هنا البعيدة عن اقصى الطرف.

فهناك في بيونس آيرس ميناء نهدي عظيم ترسو البواخر الكبيرة فيه وكأنها في مياه بحر عميق.



شارع في قازان

وانطلقنا مع شارع واسع، ولكنه غير مجمل، وكان بإمكانهم أن يجملوه لتوفر أسباب ذلك لديهم وهو شارع (تتارستان) من الشوارع الرئيسية المهمة في هذه المدينة تشقه قضبان الحديد التي تسير عليها عربات الترام وتحف به منازل مسنمة السقوف.

مسجد السوق :

وقفنا عند مسجد يسمونه (مسجد السوق) لوقوعه في القلب التجاري أو الذي كان تجاريًا من المدينة على شارع (كيروف) وهو شيوعي من زملاء لينين وهذا الشارع لابأس به بالنسبة إلى شوارع هذه البلاد، وأما بالنسبة إلى بلادنا فإنه دونها بمراحل.

كما يقع المسجد على شارع آخر اسمه (باريز كادونا) غير نظيف تتراكم الاتربة على جانبيه وارصفته محطمة متروكة دون أن تصلح.

وهذا المسجد كان من المساجد الأسيرة إذْ صادره الشيوعيون ولم يكتفوا بذلك بل هدموا منارته في عهد ستالين حتى لاتبقى فيه علامة ظاهرة تدل على أنه كان مسجداً، وإن كانت قبته باقية ولكنها لاترتفع كما ترتفع المنارة بطبيعة الحال ولاتكون علامة للمساجد خاصة، فقد تكون في غيرها بخلاف المنارة.

وقد اعيد إلى المسلمين قبل ثلاثة اشهر فقط، فسارعوا إلى ترميمه، وجمعوا الأموال اللازمة، وكان القائم على ذلك شخصا واحداً جمع من إخوانه المسلمين ما كفي لاعادة شاهد ذهبي اللون على القبة يعلوه هلال وتجديد طلاء القباب الأخرى فيه، وشرع في ترميم المسجد كله، مع بناء المنارة، ولايزال المسجد حتى الآن تحت الترميم.

وقد تجولنا فيه وهو غير جاهز للصلاة الآن من أجل الترميم، إذْ اعيد للمسلمين بعد أن خربه الشيوعيون الا هيكله الرئيسي وأرونا شاهداً ضخمًا اظنه من الصفر ليضعوه فوق المنارة عند اكمالها.



القبة التي يصلحونها في المسجد المستعاد

ملعب كرة القدم :

تركنا القسم القديم من مدينة قازان ذاهبين إلى قسم من المدينة حديث فكان أبرز معالمه ملعب كرة القدم، وللشيوعيين ولع بالرياضة معروف، وذلك لعدم وجود ما يشغلون به الشباب من الناحية الدينية وليس معنى هذا الكلام إنكار أهمية الرياضة للشباب وإنما المراد الإخبار بأنهم اعتنوا بالرياضة، وبرزوا فيها لهذا السبب.

ثم مررنا فوق جسر على نهر قازان أحد نهري المدينة، وقد دفن ما يلي طرفه من اليابسة دفنا من أجل التوفير في مواد الجسر وكان عليه زحام شديد من السيارات الضخمة من حافلات وناقلات وسيارات ركوب وهي كثيرة في هذه المدينة كثرة ملفتة للنظر، وكذلك تمر فوقه عربات الترام التي تسير على القضبان الحديدية.

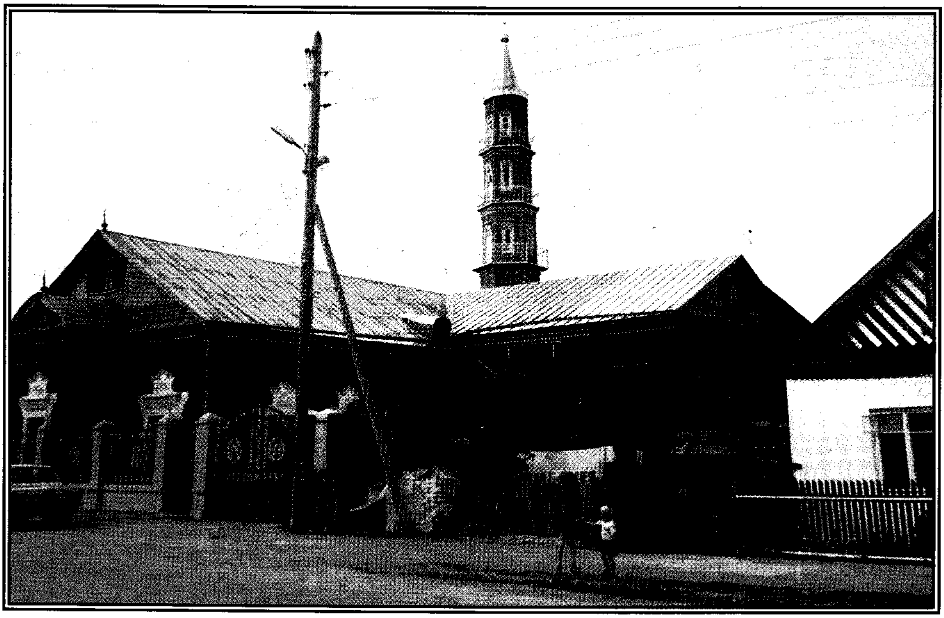
مسجد قراوي :

جلنا في عدة شوارع وأقسام من المدينة وهي ليست بتلك التي تجعل أهلها يفتخرون بحالتها الحاضرة مع امكانات وتوفر وسائل ذلك كما سبق وأهم ماهو حاصل وجميل فيها أن شوارعها مشجرة بأشجار ضخمة متنوعة وهي يانعة شديدة الخضرة، وارفة الظلال، إلا أن الغبار في الشوارع موجود يؤذي من تمر السيارات به وهي مسرعة لأنهم لايستعملون الآت رشف الغبار حتى وصلنا مسجداً يسمى (مسجد قراوي) ويقع في حي شوارعه غير جيدة وليس فيها أرصفة وإنما جوانب الطريق فيها حشائش وحشية نامية بمعنى أنها نبتت من دون استنبات.

ولم أر الناس ينتفعون بجوانب الشوارع الخالية من الأرصفة فيزرعونها كما رأيت أهل خوارزم وفرغانة يفعلونه وذلك بأن يزرعوا جوانب الشوارع التي تلي الأبواب بالخضرات وأشجار الفاكهة وقد رأيت هناك الثمار من العنب وغيره متدلية على جوانب البيوت، وذكرت ذلك في كتاب: «يوميات آسيا الوسطى».

وإنما رأيت هنا في جوانب الأرصفة دجاجًا ساربًا بديلاً من ذلك.

و(مسجد قراوي) جميل المظهر مبني بالآجر الأحمر له منارة مرتفعة عليها شاهد أبيض اللون يعلوه هلال وعلى واجهة المسجد هلال أيضًا.



مسجد في قازان

ويقع على شارع مزفلت، إلا أن السيارات التي تمر منه تثير غرابًا ناشئًا عن سحق التراب الذي يتركه الكناسون في الشارع أو مما تطيره الريح إليه، وهو في حي قال لي المرافقون: إن ٨٠٪ من سكانه مسلمون، دخلنا إلى المسجد فرأيناهم كتبوا عليه باللغة العربية هذه العبارة: إن الإسلام نظيف فتنظفوا، فإنه لايدخل الجنة إلاَّ نظيف.

ولا أدري مم أخذوا هذا اللفظ إن كانوا يريدون به أنه حديث أو أثر، وإن كان مجرد قول قالوه فإن معناه صحيح، لأن الذي يدخل الجنة حتى ولو كان في الدنيا غير نظيف النظافة الحسية، فإنه يكون نظيفًا عند دخولها.

كما كتبوا عند مدخل المسجد الشهادتين (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) بخط عربي لابأس به، وعلى المحراب جملة (الله أكبر).

وليس في هذا المسجد قبة بخلاف المساجد الأخرى التي مررنا بها وإنما وضعوا عليه سقفًا مستعاراً وتدور مع دوران حيطان المسجد من الداخل قناديل عربية جميلة، وقد خصصوا قسمًا خلفيًا فيه لصلاة النساء.

وهو مفروش بالسجاد، وقد البسو أسافل الحيطان الواحا من الخشب من اجل مكافحة البرودة في الشتاء.

وفي الطابق الثاني مدرسة للاطفال يبلغ عدد الأطفال الدارسين فيها حوالي المائة يدرسون في يومي السبت والأحد، وأما بقية الأيام فإن المدرسة مخصصة لنساء المسلمين من أجل تعليمهن مبادئ دينهن وهذا أمر مهم جداً، حبذا لو اقتدى المسلمون في البلدان الأخرى بإخوانهم هنا في هذا الأمر، وذكر لنا بعض جماعة المسجد وكنا وجدنا فيه ثلاثة أن المسجد جديد كان مكانه بيتا اشتروه من صاحبه، ثم حصلوا على أرض حوله من الحكومة.

واخبروني أن عدد المصلين في أوقات الصلاة اليومية يكون مابين ٢٠ إلى ٤٠، وفي الجمعة يصل إلى ٨٠٠ مصلٍ.

بيت تتاري :

عزم علينا الأخ المرافق الاستاذ (كامل إمام) على زيارة بيته، وشرب الشاي فيه، إكرامًا لنا ولما رآه من حرصنا على الإطلاع.

ويقع في حي اسمه (قرابار) ذكروا أنه سمي باسم شخص الماني كان أول من ابتدأ البناء فيه وبنى فيه عدة بيوت شوارعه غير مسفلتة لكنها ليست مغبرة لأنها مكسوة بحشائش طويلة جداً يبلغ طولها في حواشي الشارع قرابة طول قامة الرجل.

وذلك أن الحي جديد، وكثير من أرضه خالٍ إلا من هذه الأعشاب النامية.

وقد اجلسنا الأخ كامل في غرفة غير واسعة من بيته المؤلف من ثلاث غرف يفتح بعضها على بعض> أي كل غرفة بها باب للغرفة التي تليها، وليست تفتح على قاعة منفصلة كالمعتاد.

واخبرنا أن هذا البيت ملك له، لأنه يعمل وزوجته تعمل أيضًا في مصنع للحلوى، وقد استقبلته زوجته وسلمت علينا على استحياء دون مصافحة واسمها (فاليه) ذكر لنا زوجها أن اشتقاقه من الفأل الحسن باللغة التتارية، مثل الفأل بالعربية.

وينطق بيتهما بكونه بيت مسلمين حريصين على اظهار الشعارات الإسلامية من ذلك سجادة على الجدار فيها صورة المسجد الحرام في مكة المكرمة.

وحدثنا الشيخ عن عمله وعمل زوجته بأنه يتقاضي (٢٥٠) روبلاً راتبًا شهريًا وزوجته راتبها مائتا روبل، وأن ذلك يكفي لهما، لأنه يدفع للحكومة ١٥ روبلاً في الشهر للماء والكهرباء.

ولذلك رأينا في البيت عدداً من الأدوات الكمالية مثل جهاز للتلفزة وجهاز لتسجيل الإذاعة اسمعنا منه جملة كانت تعجبه من إذاعة نداء الإسلام في مكة المكرمة، وذكر لنا كما ذكر غيره من الإخوة المسلمين أنهم يستمعون إلى إذاعة نداء الإسلام بوضوح، ويستفيدون منها غير أن الذين لايفهمون العربية من المسلمين هنا لايستمعون إلا إلى إذاعة القرآن الكريم منها وإن لم يفهموا معانيه.

ولذلك كان من الواجب علينا أن ننبه إلى ضرورة ارسال إذاعات إسلامية موسعة موجهة إلى الإخوة المسلمين في الإتحاد السوفيتي وقد فعلنا ذلك في تقاريرنا الرسمية.

وفي البيت مكتبة صغيرة من بينها كتب عربية، منها - على سبيل المثال - كتاب: «عشرة النساء»، للإمام النسائي كتب عليه اسم الدار التي اصدرته وهي (دار البخاري - السعودية - بريدة).

وهذا من العجائب أن تصل منشورات تلك الدار في بريدة إلي هذه المدينة النائية في الإتحاد السوفيتي.

ولو كان المسلمون هنا في السابق يحجون كما يحج غيرهم من سائر المسلمين لكان احتمال الحصول عليه من مكتبات مكة المكرمة أوالمدينة المنورة وحمله مع الحجاج أمراً ظاهراً.

وقد احببت أن أنوه بصفة خاصة للشيخ كامل إمام وزوجته تسمع بأن (بريدة) هذه هي بلدتي التي ولدت فيها، وأنني سررت لوجود مثل هذا الكتاب الذي صدر عن دار فيها عندكم، وأن هذا يوضح أن المسلمين مهما تباعدت ديارهم يرجعون إلى أصل ثقافي واحد، ألا وهو الأصل الإسلامي الرفيع.

ثم أرانا بيته من الداخل وهو من الخشب وفواصل الغرف فيه من رقائق الخشب المضغوط، ولكنه نظيف ومرتب وحدثني الأخ كامل أنه يستعد لاداء الحج بعد يومين هو وزوجته (فاليه) وذلك في أول حجة يحجها أفراد من شعب الإتحاد السوفيتي منذ ثلاث وسبعين سنة.

عودة إلى الجامع المرجاني :

طلبت العودة إلى المسجد لالتقاط صورة له من الخارج لم نتمكن من التقاطها في أول الأمر كما أردت أن اطلع عليه من غير أن يكون مشغولاً بالمصلين.

وقد صورت منارته الخضراء التي وضعوا فوقها شاهداً من النحاس ليس لامعًا فوقه وهلال ليس في وسطه نجمة، كما صورت المسجد صورة واضحة لأن الجو كان غائمًا.

وقد قدمت أنه أكبر المساجد المفتوحة في قازان ويبلغ عددها سبعة ولاتزال الأكثرية من المساجد بيد الدولة منذ أن صادرها الشيوعيون.

وهو مثل مسجد مدينة أوفا مؤلف من أقسام ثلاثة يدخل من كل واحد منها إلى الآخر بمعنى أن الداخل يدخل إلى مصلى مسقوف هو جزء من المسجد ثم

يجد بابا أو بابين فيدخل إلى جزء آخر من المسجد وهكذا إلى الجزء الثالث الأخير الذي فيه المحراب وهو الذي يلي المسجد من القبلة.



صورة تذكارية مع المسلمين في فناء جامع قازان

على يميني امام الجامع الشيخ عبدالله صفا

وله فناء مكشوف يدخل إليه من الشارع وهو الذي قدمت أنهم يصلون على الجنازة فيه والمدخل من الشارع إلى هذا الفناء ولانقول الصحن لأنه غير مبلط على جانبيه شاهدان عاليان كأنهما المنارتان الصغيرتان فوق كل واحد منهما هلال أصفر لامع وعلى المدخل اسم المسجد بالحروف العربية هكذا (مسجد مرجاني حي قيوم ناصري) وذلك بلغتهم معناه مسجد المرجاني نصره الحي القيوم وقد فرش المسجد بأقسامه الثلاثة المخصصة للصلاة بسجاد جيد ثمين، وفيه عدة ملحقات من مكاتب وغرف للعاملين فيه.

وقد رأينا طوائف من السياح الذين جاؤا لرؤية المسجد، ورؤيته تسر ولله الحمد، إلا أن الذي ينقص في هذا الموضوع هو عدم وجود نشرات صغيرة مختصرة عن الإسلام وأهدافه وأثره في حياة الفرد والمجتمع وبيان الحكمة في

الإسلام في المسائل التي يشنع أعداؤه عليه فيها مثل تعدد الزوجات وتضعيف الإرث للرجل عن نصيب المرأة.

أما المسلمون فإنهم أيضًا كثرة كاثرة يدخلون إلى المسجد ويخرجون منه مما يدل على أهميته في حياتهم، هذا وكانت الساعة عند دخولنا هي السادسة والنصف، ومازال الوقت ظهراً بسبب تأخر غروب الشمس عندهم.

إلى ريف قازان :

كان أول ما استرعى انتباهنا قبل الخروج للريف أن رأينا عاملتين من النساء يعملن في فرش الإسفلت على الطريق، وهو عمل شاق لثقل الأسفلت وقذارته، وخبث رائحته.

وهذا مثل من تحرير المرأة عندهم الذي يعني تحريرها من الراحة ومن أداء وظيفتها في الأمومة المريحة، ثم خرجنا للريف وتنتشر فيه بيوت منفردة من خشب مسنمة السقوف، ويشقه طريق ازفلتي ضيق إلا أنه جيد الزفلتة، وقد غرسوا على جانبي الطريق اشجاراً عالية متصلة حتى صارت للطريق كأنها الحائطان المتدان عليه إذْ يرى الناظر إلى الطريق البعيد وكأنه منهما بين جدارين اخضرين.

والمنطقة التي يمتد فيها الطريق هي غابات كثيفة الأشجار يانعة الخضرة وفي الأماكن التي لايكون على جانبي الطريق غابات تتضح الأعشاب البرية الكثيفة.

ويصل هذا الطريق إلى طريق رئيسي يذهب إلى موسكو وقالوا: كل الطريق ضيق وعندما قارنته بالطرق في بلادنا اتضح لي الفرق الذي كنت عرفته عندما قطعت أكثر من ألف كيلو متر بالطرق البرية في داخل الإتحاد السوفيتي خلال زيارتي قبل أربع سنين وقد ذكرت ذلك في كتاب «زيارة للمسلمين في الإتحاد السوفيتي».

فالطرق في بلادنا - ولله الحمد - واسعة وحديثة بل على أحدث ماتكون عليه الطرق واوسعها واسهلها للمستعملين.

والجو الآن ربيعي جيد بالنسبة إلينا، ولكنه صيفي حسن بالنسبة لهم، لأن الصيف يكون فيه شئ من الحر عندهم غير أنه لاحر الآن.

بلدة يودينا :

وصلنا إلى بلدة اسمها (يودينا) يبلغ عدد سكانها (٤٠) ألف نسمة أكثر مافيها ظهوراً الأبنية الحكومية المتعددة الطوابق التي تكثر في المدن والبلدان الشيوعية لأنها الوسيلة الوحيدة الموجودة عندهم للحصول على مساكن جديدة لعامة الشعب، وقطار طويل وقف في محطة للقطارات في هذه البلدة، وتبعد هذه البلدة (٣٥) كيلو متراً من قازان ولم نقف فيها.

على ضفاف الفولقا :

وهو النهر العظيم الذي عرفه اسلافنا العرب باسم نهر (ايتل) بالتاء، وهي تسمية منقولة من تسمية أهل البلاد له إذْ يسمونه (نهر ايدل) بالدال، أما التسمية الروسية له فهي نهر الفولقا وبه عرفناه في كتبنا واوراقنا الثقافية المتأخرة لأننا نقلناه عن الأجانب نقلاً، ولم يعرف كتابنا ومثقفونا أن أسلافنا عرفوه قبل معرفة الشعوب الأوروبية الغربية له ووصفوه وسموه باسم منهم خاص هو (ايتل).

حتى إن الكاتب ابن فضلان نقل عن الشعوب التي تقطن قرب هذا النهر وما بعده جهة الشمال من مواطن الروس والاسكندنافيين ما يعتبر مصدراً وحيداً للمعلومات عن أولئك الأقوام وبلادهم في تلك العصور يحرص عليه الروس والاسكندنافيون أكثر ممانحرص عليه.

وقد أخبرني أحد مثقفي الروس ممن يتكلمون العربية أن الاطلاع على رسالة ابن فضلان هذا قد أصبح واجبًا مقرراً على كل من يدرس التاريخ الروسي، أو من يدرس اللغات الشرقية وبخاصة العربية.

تركنا بلدة (يودينا) وخرجنا بعدها من الطريق الأزفلتي إلى طريق رملي قد لبده المطر وهو قد مهد أو سوي ولكنه غير مزفلت ولذلك يشق على السيارة أن تسير فيه مسرعة مع وجود حفر معترضة (مطبات) فيه.

وقد ذكرني منظر هذا الطريق وما حوله من رمل أحمر برمل القصيم عندما يلبده المطر فتستطيع السيارة أن تسير عليه دون أن تنشب عجلاتها فيه، ولكنه يجعل سير السيارة غير مريح.

ولكن لاتمكن مقارنة هذه البلاد ببلاد القصيم، إلا في لون الرمل الذي لبده المطر هنا، وكان الثلج قد لبده قبله وغطاه، على حين أن رمل القصيم تحرقه الشمس وتصفعه الرياح، ومع ذلك لم يفقد اي منهما لونه الأحمر المميز.

وشيء آخر وهو أنهم هنا زرعوا هذا الرمل بأشجار من أشجار الغابات أو الأخشاب ولاتزال قصيرة غير شاملة وهي سهلة النمو لكثرة الندى والرطوبة في الأرض، وبعد هذه الأشجار رأيتهم زرعوا الرمل بزراعة لا أدري ماهي ولم يعرفها المرافقون ومنهم سائق السيارة وهو روسي الأصل يعرف هذه البلاد معرفة جيدة.



في ريف قازان

وأمعنا في الطريق الرملي قاصدين نهر (الفولقا) لنرى ضفافه البرية الريفية حتى وصلنا إليه وكانت الشمس قد غامت، وقيامة المطر قد قامت، إلا أن الله نفعنا بالاستظلال بظل جسر كبير كانوا اقاموه على النهر فلذنا به من المطر الذي صار يجود هذه البلاد الندية التي لو لم يكن فيها إلا هذا النهر المتدفق المياه لكفاها فكيف وفيها نهر قريب آخر هو نهر قازان، وفيها وديان وأنهار صغيرة إلى جانب الثلوج الضخمة التي تنزل عليها في الشتاء تم تتحول إلى مياه نافعة للأرض في الصيف.

وقد التقطنا صوراً للنهر من عدة جهات وشاهدنا مكانًا متسعًا فيه يبدو وكأنما هو البحيرة العظيمة.



على ضفة نهر الفولجا بعيد غروب الشمس

وقد افسد علينا هذا المطر ما كنا نريده من التقاط صور واسعة لامكنة بعيدة من ضفاف هذا النهر ومنطقته.

العودة إلى قازان :

كانت العودة إلى مدينة قازان مع طريق آخر غير الذي جئنا منه ومررنا بمتسع

آخر من نهر (الفولقا) لو كان في مكان منفردلصار بحيرة يستحق اسمها التسجيل والتدوين.

ودخلنا في طريق جيد ذي اتجاهين أي أنه مؤلف من طريقين بينهما جزيرة أحدهما للذاهب والآخر للآيب وهو الطريق الرئيسي الذي يذهب إلى مدينة موسكو والطريق الذي سلكناه من قبل وقدمت ذكره ينتهي إليه.

وقد غرست غابات كثيفة من الأشجار على جانبي هذا الطريق الواسع فزادته جمالاً إلى جمال. ورجعنا إلى فندقنا والمطر لايزال ينزل.

على مائدة الإمام :

طلب منا الإمام الشيخ (عبدالله صفا) إمام جامع المرجاني تناول العشاء هذه الليلة في بيته فامتنعنا إلا أنه ألح في ذلك فأجبناه.

وكان الذهاب إليه في التاسعة والمطر ينهمر مدراراً والشوارع والازقة مفعمة بالمياه، وقد حضر إلى فندقنا بعض أصدقائه من المسلمين النشطين فأوصلنا في سيارتين إلى بيته لأنه كان قد دعا عدداً من الإخوة المسلمين بلغوا تسعة أشخاص غيرنا.

وفي بيته الذي يملكه كان الاجتماع مع الإخوة المسلمين المثقفين ومنهم الدكتور على بن يونس وهو استاذ في معهد الطيران في قازان ويعمل رئيساً لجمعية ترقية الثقافة التترية، ولايدل اسم هذه الجمعية على العمل الإسلامي ولكنها تشجع بالفعل على معرفة اللغة العربية وانتشار الثقافة الإسلامية وتوجد لها فروع في كل أنحاء جمهورية تتارستان.

وقد أخبرنا بما سرنا من سعيهم في افتتاح مدارس باسم تعليم اللغة التترية التي هجرها بعض أهلها، ولكنها توضح للناس أصلهم الثقافي الإسلامي وتاريخ الإسلام الناصع في هذه البلاد وقد افتتحوا منذ ثلاثة أشهر ثلاث مدارس للجمعية في قازان.

وقد طلبوا منا المساعدة في الحصول على الكتب الدينية للأطفال بالعربية والكتب التي تعلم العربية لغير العرب فأجبتهم إلى ذلك بالترحيب، وطلبت منهم أن يكتبوا مايريدون كتابة وأن يسلموه إليَّ قبل سفري أو يبعثوه إليَّ في الرابطة.

ثم بحثت معهم أمر المساعدة على إعمار المساجد الجديدة، وترميم المساجد القديمة التي تتم استعادتها واخبرتهم باستعداد الرابطة لذلك منذ الآن، ويمكنني أن أقدم إلى بعض المساجد المحتاجة بعض المال الحاضر.

وكان الاجتماع على هذه المأدبة الكريمة من أخ كريم هو الشيخ (عبدالله بن صفا) إمام الجامع المرحاني فرصة للتحدث مع هؤلاء الإخوة التتاريين المسلمين الذين بعد عهدهم بالإتصال بإخوتهم المسلمين في الخارج وقطعت أواصر الاتصال بثقافتهم الإسلامية الأصيلة بسبب الطغيان الشيوعي الملحد المتعصب.

وقد حصلت الآن لهم فرصة تمثلت في تطبيق مايسمى بالبروستريكا ومعناها: إعادة البناء في الإتحاد السوفيتي، واعطاهم ذلك أملاً في العمل على تجديد ثقافتهم الإسلامية والرجوع إلى أصولهم التاريخية بغية وصل ما انقطع من ذلك والانطلاق منه إلى العودة للدين الإسلامي الحنيف وتنشئة أولادهم تنشئة إسلامية صحيحة.

أما المأدبة فإنها كانت سخية وافرة مثل الموائد التي عرفناها في بلدان التركستان الشرقية والغربية ضمت اصناف الطعام الذي كانت ترفع أوانيه من جهة لتوضع في مكانها على المائدة صحون وأوانٍ أخرى مليئة بأنواع أخرى من الطعام.

وذلك رغم بعد المسافة مابين هذه البلاد التتارية الأوروبية المسلمة وبين تلك التركستانية الآسيوية ومن أقرب مظاهر الشبه بينهما أن أول ماوضعوه على المائدة موائد الفاكهة وهي هنا المشمش والكرز وهو من إنتاج الجنوب أي من

بلاد القوقاز واذربيجان لأنها أقل برداً من هذه البلاد، ولم يرفعوا الفاكهة حتى فرغ الآكلون من أكلهم كله وقاموا منها.

وعادتهم في تناول الفاكهة أن يأكلوا منها في أول الطعام ووسطه وآخره بدون أن يقدم الداعي بيده شيئًا للآكلين، بل يدع لهم حرية أخذ مايريدونه في أي وقت، وغالبًا مايكون ذلك أثناء رفع صحون الطعام لاحضار غيرها.

ومن عادتهم أيضًا أن يكون أول مايحضرونه من الطعام الشربة من لحم دسم فيها قليل من الشعرية ويأتون بها حارة لابد من أن يحترز من يقترب منها من أن يشرب منها وهي حارة.

أما بالنسبة لهم في هذه البلاد الباردة فإن كون الشربة أو الحساء حاراً دسمًا أمر مهم للتدفئة وهي ألزم ما يكون للضيافة في البلدان الباردة.

ومن لطيف ما حصل في آخر المأدبة أن ثلاثة من الإخوة أهدوا لي هدية ولرفيقي الأستاذ أيمن حبيب وكتبوا عليها أنها إهداء مشترك منهم وهديتي ثمينة عندي لأنها مجموعة من أواني الشاي الخزفية وأوانٍ أخرى مصنوعة في هذه المنطقة على طراز تقليدي عريق.

إلا أن الذي كدر علينا بعد الخروج من بيت الشيخ أن السيارة التي ركبنا فيها غاصت عجلاتها في طين الشارع بسبب كثرة المطر إذ بيته يقع في حي جديد من المدينة ليس في بعض شوارعه أزفلت، وكان المطر لايزال يهطل رذاذاً فلم يستطيعوا تخليصها إلا بإحضار سيارة ربطوا بها حبلا وجروها به.

وقد أخبروا أنه ليس من العادة أن ينزل المطر بهذه الكثرة في هذه الأيام، وأنه سبب برودة في الجو غير معهودة لأنه تكون عندهم في الصيف حرارة مؤذية بالنسبة لما تعودوه من برودة الجو في بلادهم.

وقال لنا بعضهم من باب المجاملة: هذا من بركتكم فقلت له: هذا من فضل الله وبسبب نية الإخوة المسلمين الحج وتوجههم إلى مكة المكرمة بعد غد.

يوم الجمعة ٢٩/١١/١٤١٠هـ :

مشكلة الفطور :

ليس في موظفي فندق (بلغار) الذي نسكن فيه أي شخص يعرف الانكليزية فضلا عن العربية، وحتى الموظفة الموجودة في مكتب الاستقبال في الفندق هي من هذه الناحية كالبكماء، وعندما حان موعد الإفطار اليوم نزلنا مبكرين نسأل عنه فلم نجد من يفيدنا حتى نفعتنا لغة الخرس وهي الإشارة بالأخذ باليد، وارسالها إلى الفم فدلونا على مكان هو بمثابة المطعم في الفندق، فلم أر فيه إلا قطعًا من الخبز الذي يقرب لونه للسواد وقطعا من السمك القديم وليس فيه شاي مع أنهم لايفهمون كلامي وهو ضيق وغير نظيف.



في أحد ميادين مدينة قازان مع أحد الإخوة المسلمين من أهلها

وبعد ذلك جاء الفرج بمجيء المرافق الشيخ كامل إمام ومعه بعض الإخوة فأخبرناهم بما رأيناه وقالوا: هذا المطعم ضيق وليس فيه شاي ولا طعام يمكن لنا أن نستسيغ أكله فيكف بكم؟ ثم أخذونا إلى مكان في الخارج كالحانوت الصغير شربنا فيه الشاي الذي جاؤا به ومعه ثفله فليسوا يدققون في صنع الشاي إلى درجة أن يبعدوا عنه ثفله وتناولنا معه بعض الكعك اللين (الكيك).

السوق المركزي :



جانب من سوق قازان

مدينة قازان يبلغ عدد سكانها مليونا من البشر وهي عاصمة جمهورية تتارستان التي تعد خمسة ملايين نسمة ولذلك حرصنا على رؤية السوق المركزي فيها الذي هو الرئيسي لاستكمال الإطلاع على أحوال المدينة وهو سوق كبير ذهبنا إليه بالسيارة.

فكان أول ما رأيناه منه باعة الخضرات، ومن أغلى الاشياء عندهم الخضرات الرخيصة عندنا في البلاد المعتدلة فمثلا البصل الأخضر أغلى مما هو عندنا الآن خمس مرات رغم تدني الدخول بالنسبة إلى ماعندنا أكثر من خمس مرات وصرة البقدونس وهي الحزمة التي تساوي عندنا ريالاً واحداً يبيعونها بروبل واحد، ومن الطريف أنهم اجابونا عندما سألناهم والسائل هو المرافق المترجم الشيخ كامل إمام الدين بقولهم: نصف الصرة بنصف روبل، وذلك لقلة الذين يشترون حزمة واحدة، وكذلك الطماطم أغلى مما هي عندنا وقد أخبرونا أن كل الخضرات

ترخص اسعارها بعد مدة يكون مازرع فيها بعد حلول الدفء ناضجًا صالحًا للاستعمال.



رجل يضع أكياس في السيارة كان يحملها

عل ظهره يتسلمها من امرأتين في سوق قازان

والبطاطس وحبوب عباد الشمس هي أكثر المعروضات للبيع في السوق.

ولم أر عندهم طماطم جيدة كالتي تكون في بلادنا وفي البلدان المعتدلة فهي صفراء اللون وهذا الكلام يشمل كل مارأيناه منها طازجًا في السوق ومع ذلك رأيتهم يبيعون للناس الكيلو الواحد بثلاثة روبلات وتقدم الكلام على الروبل وقيمته وبخاصة إذا نسب إلى دخل الموظف الصغير أو المتوسط.

فهذه الروبلات الثلاثة - تساوي راتب يوم واحد للفراش عندهم.

وهناك قسم مسقوف من السوق للحوم، يوضح أن اللحوم عندهم ليست كالخضرات بل هي متوفرة بأنواعها طازجة جيدة وهي معروضة كما يعرض اللحم الذي ذبح في يومه في بلادنا.

وقد أخبرونا أن هذه اللحوم الجيدة الطازجة هي شخصية بمعنى أنها يبيعها اصحابها، وليست حكومية ولذلك لاتخضع أسعارها للتسعيرة الحكومية ولا تحدد الكمية التي يشتريها المشتري منها.

وسعر هذا اللحم الطازج الجيد ستة روبلات للكيلو، وقد اخبرنا الأخ كامل وهو يحادث القصابين أن هذا اللحم مذبوح ذبحًا شرعيًا وأن القصابين هم من المسلمين.

سوق النساء :

وهذا تعبير مني أردت المطابقة مابينه وبي ماكنا نسميه (سوق الحريم) وهو الذي تجلس فيه البائعات وحدهن دون الرجال يكون بمثابة القسم من السوق ويشتري منهن الجميع من رجال ونساء.

وسوق النساء هنا صف طويل، بل أكثر من صف ولكن في أماكن متفرقة بعضهن يبعن واقفات وبعضهن قد جلسن ولكن ليس بينهن باعة من الرجال فالرجال في مكان آخر وليسوا محجوزين بحاجز مادي من الحكومة أو حتى الناس وإنما هذا هو الذي رأيناه.



بائعات في سوق قازان الشعبي

وبضائع النساء بسيطة جداً، بل قليلة نزرة مثل ألاَّ يكون مع الواحدة إلا ثوب طفل واحد تبيعه، أو خرقة صغيرة، أو نحو ذلك والظاهرأن ذلك راجع إلى النظام الشيوعي الذي يحرم استغلال الغير في التجارة فلا يجيز مثلاً لك أن تبيع لغيرك، وإنما يجيز أن تبيع ماتصنعه أو تنتجه بنفسك.

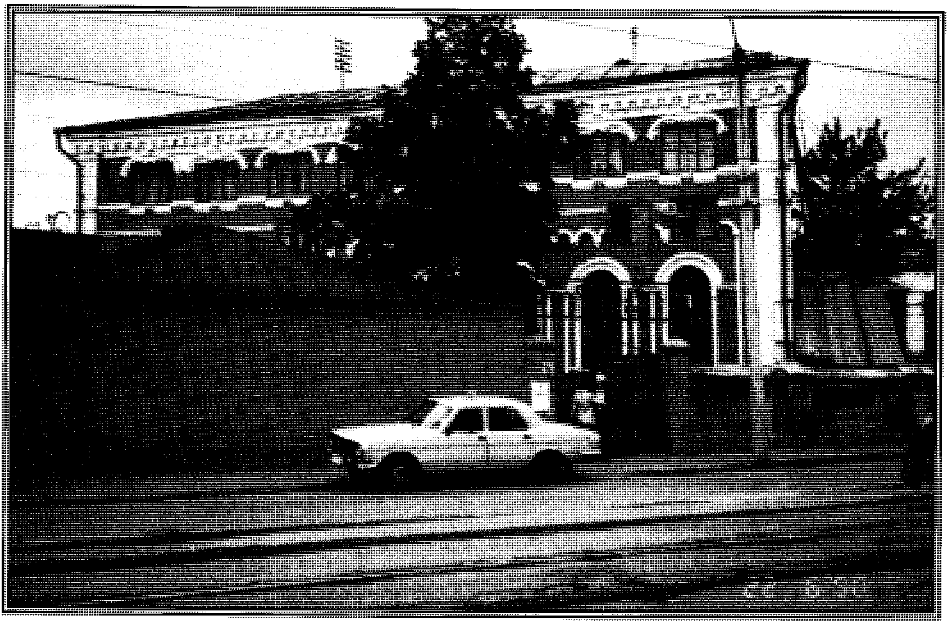
ورأيت عجبًا في قسم من السوق وهو أكياس الفحم يبعونها بكثرة ويحملونها في السيارات، وكذلك بضائع متعددة صغيرة.

ومع ذلك كان إخواننا يثيرون انتباهنا إليها مسرورين على اعتبار أنها علامة على ارتخاء الشيوعية ومرحلة متقدمة عنها إذْ لم يكن ذلك مسموحًا به في الماضي، بل كان كل شيء يباع أو يشترى يجب أن يكون عن طريق المحلات والمجمعات الحكومية.

وقد التقطت صوراً لهذه الأشياء التافهة التي تدل على التأخر ولكن بعض الناس ولا أدري أهم من المسلمين أو من غيرهم والمسلمون يؤلفون النصف من سكان المدينة حاول منعي من التقاط الصورة فنشب بينه وبين الشيخ كامل إمام خصام لفظي، فالشيخ يريدني أن أصور ما أريده وذلك الرجل ومن معه يريدون منعي وربما كان ذلك من واقع ما عرفوه عن السياح الغربيين الذين يتعمدون أن يسجلوا الرديء من الأشياء والمناظر في البلاد ويهملوا الجيد.

مسجد أسير :

تكلمنا على بعض المساجد التي ورد ذكرها عرضا من كونها كانت قد صودرت ونزعت من المسلمين إبان الطغيان الشيوعي ثم أعيدت اليهم بعد ذلك، ولم نطلب الإطلاع على مئات المساجد التي لاتزال منزوعة من أيدي المسلمين لأنها صارت محلات ومنشآءات حكومية أوجهات لايمكن تبرير زيارتنا لمثلها ولكن الأخ الشيخ كامل - جزاه الله خيراً - افادنا اليوم فائدة كبيرة إذْ ارانا مسجداً لايزال أسيراً وزيارته ممكنة دون أن تلفت النظر وذلك أنهم اتخذوه مقراً لمدرسة تقنية.



المسجد الذي حول إلى كلية في قازان

وأول منظر تقززت منه نفوسنا وعمها الأسف الشديد لو كان الأسف ينفع في منع المكروه وهو اننا رأينا صورة كبيرة لزعيم الشيوعية الشهير (لينين) مرسومة في مقدمة المسجد وذكروا أن مصادرته قديمة، إذْ عندما قامت الثورة الشيوعية حولوه إلى كلية وأحيانًا قالوا: مدرسة وأظن أن ذلك هو الصحيح فقسموا المصلى بالخشب إلى غرف دراسية وغيرها مما يصلح للمدرسة.

ثم في وقت متأخر عن ذلك وإبان حكم (ستالين) هدموا منارته حتى لايبقى فيه شعار يدل على أنه مسجد.

قابلنا مديرة المدرسة وهي امرأة روسية في حدود الخمسين من عمرها اسمها (الميرا) ولم تدر من أمرنا شيئًا من قبل قدومنا وإن كنا لانخفيه فأرتنا بعض فصول الدراسة، وقال لها الأخ كامل إمام وأهم الخصال التي عرفتها فيه هي الشجاعة: هؤلاء ضيوفنا من مكة المكرمة جاؤا إلى بلادنا وأريهم الآن هذا المكان الذي كان مسجداً.

ولم يبد عليها أي تأثر من هذا الأمر لا من ناحية التحبيذ ولا الاستنكار.



مدخل المسجد الذي حول إلى كلية والمديرة مع كامل وايمن

وكان اسمه (سلطان مسجد) أي مسجد السلطان ويقع على شارع قوقاي من حي باومن.

جمعة قازان :

حان وقت صلاة الجمعة فذهبنا إلى (جامع المرجانية) الذي سبق ذكره لأداء الصلاة فألفيناه غاصاً بالمصلين الذين كانوا قد ملأوا الممرات وحتى الدرج فيه، ولم يكن بالإمكان أن نجد لنا مؤطيء قدم فضلاً عن مكان نصلى فيه، ولانريد أن نكون خارجه مع أنني لم أر أحداً يصلي في الشارع كما يكون في كثير من بلاد الأمصار المسلمة في صلاة الجمعة في الوقت الحاضر.

إلا أن القوم جزاهم الله خيراً - رأوني فأفسحوا لي يتقدمني أحد العاملين في المسجد حتى اجلسونا عند المحراب إذْ لا يكن إيجاد مكان بين الناس لازدحامهم في المسجد.

ومما يثلج الصدر أن الشبان في المصلين أكثر من المسنين وهذا خلاف العادة الماضية التي كنا عرفناها عن نوع المصلين في الإتحاد السوفيتي من حيث أن الذين كنا نراهم ويراهم غيرنا هم من المسنين بل العجزة .

وفي هذا المسجد لاحظت أن الشبان من رجال وفتيات هم أكثر عدداً من الشيوخ والمسنين مع أن اليوم هو يوم جمعة وهو يوم عمل.

وجدنا المفتي الشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية في القسم الأوروبي وسيبريا يلقي موعظة وهو جالس من مكبر للصوت في المسجد وهو يفسر آيات من سورة آل عمران باللغة التتارية.

وختم موعظته بدعاء طويل اكثره بلغتهم، وهذا أمر جيد خلاف ما يفعله بعض الناس من الوعاظ وأئمة المساجد بأن يدعوا باللغة العربية ويطلبوا من المصلين أن يؤمنوا على دعائهم هم لايفهمون معناه.

ثم اذن لصلاة الجمعة أذان واحد مثل مانفعله في أكثر بلادنا وليس مايفعل في أكثر الأمصار الإسلامية ومنها الحرمان الشريفان بأن يؤذن للجمعة أذانان لايفصل بينهما إلا ركعتا السنة.

ولكنهم بعد الأذان نهضوا جميعًا وصلوا أربع ركعات في تسليمتين لم يخل أحد منهم بشئ من ذلك ثم نهض الخطيب فصعد المنبر، وحمد الله واثنى عليه في خطبتين قصيرتين مسجوعتين بالعربية لايفهمها منهم أحد إلا طلبة العلم من أئمة المساجد على قلتهم وإنما نفهمها نحن العرب وفينا بعض الطلاب العرب في هذه المدينة.

وبعد الصلاة صلوا جميعًا أربع ركعات أيضًا بتسليمتين ثم ابتدأوا سراً بتسبيح وحمد لله ثم سكوت ورفع اليدين بالدعاء ثم تلاوة للقرآن الكريم فدعاء آخر باللغتين العربية والتتارية.

وبذلك اعتبروا أن الصلاة قد انتهت مع أنها منتهية بالتسليم وابتدأ السلام الكثيف على المفتي والإمام ونائبه وبعض المشايخ على رأسهم الشيخ (زكي

حضرة) وهو كبير السن ذكروا لنا أن سنه يصل إلى ٩٠ سنة ونحن وقد كنا واقفين صفا أمام المحراب وهم صفوف متحركة كل يأتي فيسلم وقد دس أحد المسلمين في يد الشيخ زكي قطعة من النقود ودس آخر في يدي أخرى فامتنعت عن أخذها.

وقد استغرق السلام وقتًا طويلاً ونحن وقوف، لأن القوم على كثرتهم سلموا علينا كلهم فيما قدرته وعرفت بعد ذلك أن سبب هذا الزحام الكبير على الصلاة هو حضور بعض الحجاج إلى قازان تمهيداً لسفرهم منها يوم غد السبت.

جمعية المسجد :

لبثنا في المصلى فترة مع بعض الطلبة العرب من فلسطين واليمن ثم نزلنا من المسجد إلى غرفة في الطابق الأرضي هي مقر جمعية المسجد، وذلك من أجل إعطائهم شيئًا من المال للمشاركة في نفقات المسجد المتكررة فوجدناهم قد تجمعوا حول مكتب كبير قد مليء ظهره بالنقود من الفئات المختلفة في كثرة عجيبة لم أكن أظن أنها تصل إليها وقد تجمعوا حولها يصنفونها فيجمعون الأوراق الصغيرة على حدة والكبيرة كذلك من أجل عدها.

وكلها مما تبرع به الناس للمسجد هذا اليوم ومنظرها مما يسر خاطر المسلم، لأنها تدل على السخاء والكرم مع قلة النقود عندهم قلة نسبية.

وقد سألتهم وهم مجتمعون عما إذا كان للمسجد مشروع يحتاج إلى المساعدة فنفوا ذلك واشاروا إلى الكومة الكبيرة من النقود، فقدمت لهم تبرعًا رمزيًا هو ألفًا دولار أمريكي نقداً.

وهو مبلغ ضئيل عندنا ولكنه كبير عندهم بسبب قلة الرواتب، وضعف الدخول.

رواتب أئمة المساجد:

سمعت المفتي الشيخ طلعت تاج الدين يقول في مؤتمر (أوفا) تعليقًا على بعض الفقرات: نرجو منكم أيها المسلمون ألا تعطوا أئمة المساجد تبرعات لأننا

نعطي الإمام راتبًا أعلى مما يأخذه أمثاله من العاملين في الحكومة وكثير من المدن التابعة لادارتنا يريد في القسم الأوروبي وسيبريا ومنه هذه الجمهورية يتقاضي الإمام راتبًا يعادل راتب رئيس البلدية أو أكثر ونزيده على ذلك بأن نوفر له بيتًا وسيارة.

وقد رأيت هذا صحيحًا إذْ اخبرني الشيخ (عبدالله صفا) إمام الجامع هذا أن لديه سيارة من المسجد وأن راتبه اربعمائة روبل وهو يعادل راتب رئيس بلدية قازان، وعلى سبيل المثال فإن المبلغ الذي قدمناه نقداً بالدولارات وهو ألفًا دولار يصرف بالسعر التشجيعي في مصارف الحكومة بثلاثة عشر ألف روبل أي ما يكفي لراتب الإمام مدة ثلاث سنوات وإذا صرفوا الدولار بالسوق الحرة وهي المسماة بالسوداء - إن صرفوه فيها - فإنه يتضاعف مرتين ونصفًا تقريبًا إذ يصرف الدولار فيها مابين خمسة عشر إلى ثمانية عشر روبلاً للدولار الواحد.

كما قدمت للمسجد من الرابطة جهاز تسجيل وشريطًا مسجلاً عليه القرآن الكريم كله، وهذا في غاية الأهمية لهم لأن أجهزة التسجيل عندهم لاتوجد، وإذا وجدت فهي غالية جداً.



لجنة مسجد قازان تحصي التبرعات النقدية

ولجامع السوق :

وبعد ذلك انتقلنا إلى فندقنا الذي نسكن فيه (فندق بلغار) حيث كنا واعدنا المسئولين عن إعمار جامع السوق الذي يقع على شارع كيروف وسبق ذكره وذلك من أجل دفع مساعدة لهم على ذلك وقد حضر الأخ الكريم القائم بهذا الأمر ومعه أحد مساعديه كما حضر إمام الجامع المرجاني الشيخ عبدالله صفا واثنان من الطلبة العرب الذين أدوا صلاة الجمعة معنا وحضرا تسليم المساعدة للجامع المرجاني فدفعنا لجامع السوق ثلاثة آلاف دولار أمريكي نقداً.

مرافقة الحجيج :

كنت حاولت أن أعود مسرعًا إلى مكتبي في الرابطة بسبب موسم الحج الذي يستدعي حضوري لاستقبال العديد من رؤساء الجمعيات الإسلامية والعاملين في الحقل الإسلامي من أنحاء العالم الذين يأتون لتأدية فريضة الحج ومنهم عدد سيحلون ضيوفًا على الرابطة خلال موسم الحج، ولكن لم استطع أن أجد طريقًا للوصول سريعًا وذلك بسبب عدم استطاعتي تغيير تذكرتي من إدارة شركة الطيران السوفيتية (ايروفلوت) في موسكو مع أنها تذكرة عالمية مفتوحة والمشكل أيضًا أنه لابد من المرور بأحد البلدان العربية والأوروبية القريبة وكلها تكون مقاعد الطائرات فيها محجوزة في هذا الوقت من السنة بسبب موسم الحج.

لذلك عرض عليَّ الشيخ المفتي (طلعت تاج الدين) أن ارافق الحجاج السوفييت الذين سينطلقون من مدينة قازان هذه على طائرة سوفيتية مباشرة إلى جدة فذلك أيسر وأريح فترددت في قبول العرض إلى أن قال لي ملحًا على ذلك: إنه لن يكلفنا شيئًا فنحن استأجرنا مقاعد الطائرة كاملة من (ايروفلوت) وقد بقي فيها ستة مقاعد خالية فلماذا تترك ذلك وأنت بحاجة إليه؟

وفي الساعة السابعة من هذا اليوم حان موعد العشاء في مطعم فندق تتارسان الكبير، وكانوا طلبوا من الحجيج التجمع بعد الغداء فيه من أجل

إعداد تذاكرهم والتأكد من حضورهم إلى قازان وعزمهم على السفر غداً.

وقد تلوا اسماء الركاب من مكبر للصوت في الفندق وتلوا اسمي معهم.

يوم السبت ١٤١٠/١٢/١هـ

منظر مؤثر :

كان هذا الحج يتم لأول مرة من هذه البلاد منذ ٧٣ سنة هو تاريخ سيطرة الشيوعيين على السلطة ومنع الناس فيها من الحج.

وكان وفد الحجاج السوفييت قبل ذلك يتألف من بضعة عشر رجلاً من أئمة المساجد والعاملين في الإدارات الدينية لايزيد على ذلك حتى كان عددهم في العام الماضي اثنى عشر رجلاً لم يكن فيهم أي فرد من أفراد المسلمين غير الموظفين رغم تشوق المسلمين لأداء هذه الفريضة العظيمة.

أما في هذا العام فإن عدد الحجاج سيكون ١٥٧٢ شخصًا كلهم من أفراد الشعب، وذلك أمر له أهميته في نفوس المسلمين جميعًا في الإتحاد السوفيتي حتى من لم يحج منهم قبل ذلك.

فغادرنا فندقنا في قازان في الثانية قبل فجر هذا اليوم إلى المطار وكان يصحبني الأستاذ أيمن حبيب لتوديعي والأخ كريم وهو طالب فلسطيني جزاهما الله خيراً، ففتح الموظفون لنا غرفة (الدبلوماسيين) وجلسنا فترة تقاطر فيها الإخوة من الحجيج الذي لبسوا ملابس الإحرام لأول مرة في تاريخ بلادهم منذ ٧٣ سنة.

وكانوا سعداء بارتداء ملابس الإحرام رغم البرد الشديد في هذه الساعات.

وقد تجمعوا وعددهم ١٥٤ راكبًا من الإخوة التتاريين من رجال ونساء وفيهم أطفال إذ اصطحب القادرون منهم أهلهم وأطفالهم معهم رغم الحر الشديد الذي يعرفونه في الحج في هذه الأعوام.

وخرج إلى المطار معهم طائفة من المودعين والجميع قد شرقوا بدموعهم، واختلطت على وجوههم مشاعر السرور والابتهاج بمشاعر الرهبة والجلال.

القران والتلبية في الطائرة الشيوعية :

كان من المقرر أن تقوم الطائرة في الرابعة والنصف فجراً، إلا أنها لم تقم إلا في السادسة وذلك سببه ركوب هذا العدد العديد من الركاب في رحلة غير معتادة، وأكثرهم إن لم يكونوا كلهم لم يغادروا الإتحاد السوفيتي قبل ذلك.

وقد أعلن مكبر الصوت في الطائرة أن الطيران سيكون إلى (لارنكا) في قبرص لمدة أربع ساعات تتزود الطائرة فيها بالوقود ثم تغادر إلى جدة.

وأعلنوا اسم قائد الطائرة وهو مسلم وأكثر المضيفين فيها هم من أبناء المسلمين وذكروا كلهم أن هذه هي أول مرة يصلون فيها إلى المملكة.

وقد تكلم المفتي الشيخ طلعت تاج الدين من مكبر الطائرة بمقدمة قليلة بالتتارية ثم بالعربية لكي أفهمها أنا لأنني العربي الوحيد بينهم، ثم انطلق يلبي (لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك، لبيك اللهم لبيك).

وتابعه جميع الركاب بالتلبية الجماعية مما اهتزت له أركان هذه الطائرة التي صنعها الملحدون لخدمة الكفر والإلحادبزعمهم فصارت لخدمة الإسلام والمسلمين في هذه الرحلة التاريخية المباركة.

ثم صار يتكلم بذلك وقد تكلم مشكوراً بكلمات شكرني فيها على مصاحبة أول وفد من الحجاج السوفيت من بلادهم إلى جدة.

وكانت هذه الطائرة بالفعل هي أولى الطائرات التي تهبط بالحجاج السوفييت إلى جدة، وقد تبعتها طائرات أخرى قادمة من موسكو ومن طشقند في تركستان و(باكو) في أذربيجان ومن مدن سوفيتية أخرى.

ثم أخذ الإخوة المسلمون يتناوبون تلاوة القرآن الكريم من مكبر الطائرة والسائد فيها هو الخشوع والخضوع لله تعالى بعد أن كان مطلوبًا منهم دائمًا أن يخضعوا بالقول والفعل لشياطين الكفر والالحاد من حكام الشيوعيين الطغاة.

في مطار لارنكا :

قبيل اتمام أربع ساعات من الطيران أعلنت المضيفة من مكبر الطائرة قرب الهبوط في مطار (لارنكا) القبرصي، فنظرنا من النافذة في نقلة للبصر مناسبة بين أرض الصحراء في جدة والأرض الخضراء في قازان عاصمة جمهورية التتار.

وكان الجو كذلك إذْ أعلنوا أن درجة الحرارة في مطار لارنكا (٢٤) درجة وكانت ثمان درجات عندما غادرنا مطار قازان.

مظاهرة إسلامية :

هبطت الطائرة في المطار فضجت أرجاءُها بالتلبية، وفتحت أبوابها فانطلق التكبير من افواه عطرة بذكر الله، ومن اعماق قلوب مؤمنة.

ولما ركبنا الحافلات من الطائرة إلى المطار امتلأت الحافلة بالتلبية مما جعل مضيفة أرضية قبرصية كانت تصحبنا تصاب بذهول عظيم لهذا المشهد الذي هو مشهد رجال شقر أو بيض بياض الأوروبيين قد لبسوا ملابس الإحرام البيضاء الموحدة وتنطلق السنتهم بهذه الجملة المنسقة، الجماعية: (لبيك، اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك لبيك)!

ولما رأوا استغرابها وذهولها قال الذين يلونها: مسلمان، مسلمان، فقال من بعدهم في الحافلة مسلمان مسلمان، أي مسلمون مسلمون.

ثم دخلوا إلى قاعة العابرين ملبين، وكانت غاصة بالمسافرين، إلا أنهم ذهلوا مما رأوا فيها من البضائع الأجنبية التي لم يروا مثلها من قبل فهي لاتوجد في بلادهم ولا تصل إليها أخيلتهم وكلها أو أكثرها من الكماليات التي أصبحت عند كثير من الناس كالضروريات.

ولكنهم لم يستطيعوا أن يشتروا من المطار أي شيء حتى ولا شربة ماء أو زجاجة شراب غازية، لأنهم لايملكون العملة الصعبة التي يقبل بها البائعون فعملتهم الروبل كالشيوعية ساقطة في خارج بلادهم وقد بدأت السقوط في داخلها أيضًا.

ولم تعطهم حكومتهم إلا ثمانمائة دولار لكل واحد منهم لاتكفي للضروريات في مكة المكرمة إلا أنهم لصفاء نياتهم قد وفروها أو وفروا أكثرها فاشتروا بما وفروه بعد ذلك هدايا والآت نافعة عادوا بها إلى بلادهم وذلك أن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز ملك المملكة العربية السعودية أصدر بعد ذلك أمره بأن يكون جميع الحجاج السوفييت ضيوفًا على المملكة العربية السعودية طيلة موسم الحج في مكة المكرمة والمدينة المنورة إلى مغادرتهم مطار جدة عائدين إلى بلادهم احتفاء بقدوم أول حجاج من الإتحاد السوفيتي بعد أنقطاع استمر ٧٣ سنة.

الوصول إلى أراضي المقدسات :

إستأنفت الطائرة تحليقها مقلعة من مطار لارنكا قاصدة مطار جدة في الساعة الحادية عشرة ضحى بتوقيت موسكو الصيفي الذي هو توقيت قازان الصيفي أيضًا ويتقدم ساعة واحدة على توقيت المملكة وأعلن مكبر الصوت في الطائرة أن الطيران إلى جدة سيستمر ساعتين ونصفا.

ثم قدموا ضيافة جيدة نظيفة وافرة الكم، جيدة النوع فيها ثلاث من الشطائر (الساندويشات) والكعك اللين (الكيك) وعصير البرتقال محفوظًا في علب نظيفة وحلوى وسكر في الأكياس الورقية الصغيرة المعتادة عندنا وهي لاتوجد عندهم وإنما يقدمون السكر قوالب خشنة قليلة التحلية.

وذلك كله من أجل مجاراة ماتفعله شركات الطيران العالمية.

وقبل الهبوط في مطار جدة عندما بدأت الطائرة تتدنى اشرأبت الأعناق واتسعت الأحداق وانطلقت الألسن بالتلبية والتكبير وأسبلت الدموع من العيون فهذه الأمنية التي لم يحصل عليها الأجداد من المسلمين في تلك البلاد قد واتت الأحفاد وهي رؤية بيت الله الحرام والاجتماع مع أمة الإسلام عند المشاعر العظام، وفي جوار الركن والمقام!.

★ ★ ★ ★

المحتويات

المحتويات	الصفحة
المقدمة	٥
الأقاليم المسلمة الملحقة بجمهورية روسيا الإتحادية	٩
المشاهدات.	
من جدة إلى دمشق	١٩
في مطار دمشق	٢٠
إلى الجامع الأموي	٢٢
مستشفى نور الدين	٢٣
ممثل السفارة السعودية.	٢٤
تأخير في مطار دمشق	٢٥
مشكلة النقود	٢٥
ولكن...	٢٧
من دمشق إلى موسكو	٢٨
فوق مطار موسكو	٢٩
في مطار موسكو	٣٠
استراحة في موسكو	٣٣
فندق زاريا	٣٤
ومشكلة العشاء	٣٥
من موسكو إلى أوفا	٣٦
جمهورية بشقردز (بشكيريا)	
في مطار أوفا	٤١
إلى مدينة أوفا	٤١
إفتتاح المؤتمر الإسلامي	٤٣
شعرة الرسول ولبن الخيل	٤٥
الحفل الخطابي	٤٦
فترة استراحة	٤٩
غداء المؤتمر	٥٤
الجلسة الثانية	٥٥

المحتويات	الصفحة
حفلة الفن الشعبي	٦٠
المؤتمر تستمر أعماله.	٦١
عطلة الجمعة للعمال	٦٢
الرثاء بالغناء	٦٣
مشروع النظام الداخلي للنظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي في الاتحاد السوفيتي وسيبيريا.	
المعلومات العامة	٦٧
مؤتمر مندوبي خدمة الدين	٦٨
المجلس الأعلى للنظارة الدينية	٧١
المفتي	٧٤
مجلس الشيوخ للنظار الدينية	٧٧
مجلس العلماء	٨٠
لجنة التفتيش المركزية	٨٢
مؤسسات النظارة الدينية	٨٣
لجان التفتيش للمحتسبات	٨٦
المساجد	٨٧
الأئمة والخطباء	٨٨
إجتماع المسجد	٨٩
المؤذن	٩١
التولية	٩٢
لجنة التفتيش للمسجد	٩٤
الأموال والممتلكات	٩٦
الضمان الاجتماعي التقاعدي	٩٧
حول الأختام والطوابع	٩٨
حول عمل النظام الحالي وتعديلاته	٩٨
نزهة في نهر الفولجا (إيتل)	٩٩
عقد الزواج	١٠٠

المحتويات	الصفحة

جلسة المباحثات الرسمية ١٠٣
الجلسة الختامية ١٠٨
البيان الختامي ١٠٩
زيارة مجلس السوفييت الأعلى. ١١١
كلمة الوفود ١١٣
صلاة الجمعة ١١٥
مأدبة تتارية ١١٧
لقاء التلفزة والإذاعة ١١٩
مغادرة روسيا الإتحادية ١٢٠
العودة إلى موسكو ١٢٠
موقف مؤثر ١٢١
نصر جديد أو شيء جديد ١٢٣
إلى موسكو ١٢٤
أمثلة سوء ١٢٦
عودة إلى الحديث عن الطائرة ١٢٨
فوق موسكو ١٢٨
الهبوط في موسكو ١٣٠
في مدينة موسكو ثانية ١٣١
فندق كييف ١٣٦
فندق أوكرانيا ١٣٧
المجمعات الإستهلاكية ١٣٨
عشاء مع أعضاء مجلس الشعب ١٤٠
الميدان الأحمر ١٤١
استبدال الحرس ١٤٣
إطلالة على موسكو ١٤٣
أوقات الصلاة ١٤٤
السوق السوداء ١٤٥
محطة كييف ١٤٥
إلى جامع موسكو ١٤٨
المسجد المصادر ١٥٢
النهار الطويل ١٥٣
الفيزا من الاتحاد السوفيتي إلى الاتحاد السوفيتي ١٥٤

المحتويات	الصفحة

أيوم كأيام الجزيرة؟ ١٥٦
لقاح الأزهار ١٥٨
مشكلة المطعم ١٥٩
العامل النائم ١٦١
السعي لتغيير التذكرة ١٦٢
البلاد التي لا تغيب عنها الشمس
وبلاد الظلام: ١٦٨
مطار الشمال ١٦٩
من موسكو إلى مورمانسك ١٧٠
رحلات الأماني ١٧١
فوق منطقة قطبية ١٧٤
في مطار مورمانسك ١٧٥
استقبال رسمي ١٧٦
أول من جاء من المسلمين ١٧٧
حديث عن الإسلام ١٧٧
في مدينة مورمانسك ١٧٩
مدينة الشاطئ الشمالي ١٧٩
أقزام الأشجار ١٨٠
ولا زراعة ١٨١
قرية كوالا ١٨١
الفندق القطبي ١٨٣
الثلج الأزلي ١٨٤
الليل والنهار سواء ١٨٥
عشاء أهل الدين ١٨٦
حديث عن الدين ١٨٨
جولة في مدينة مورمانسك ١٩٠
معهد الصيادين ١٩٢
اللعب المركزي ١٩٣
أول بيت في المدينة ١٩٣
العادة الروسية ١٩٥
تمثال الجندي المجهول ١٩٦
الميناء الشمالي ١٩٩

لا حر إلا بعد الإنصراف ٢٠١
مدينة مورمانسك ٢٠٢
وادي الرياضة ٢٠٣
فواكة الغابة ٢٠٥
عشب غريب ٢٠٦
وماذا عن الإسلام ؟ ٢٠٨
والصيام؟ ٢٠٩
هل في مورمانسك مسلمون؟ ٢١٠
أوقات العمل في مورمانسك. ٢١١
الظهر بعد منتصف الليل ٢١٣
بلاد الظلمات ٢١٥
أعظم الأعياد عندهم ٢١٥
إستئناف الجولة ٢١٧
خط العرض البعيد ٢١٨
الصلبان والشيوعيون ٢١٩
العين الفضية ٢٢٠
ووقفة في غابة ٢٢٠
الطوابير حتى في هذه البلاد ٢٢٠
مغادرة مورمانسك ٢٢٣
موسكو بلاد الشمس والعبوس ٢٢٤
عود إلى موسكو ٢٢٤
دخول موسكو ٢٢٥
الخروج إلى مطار الجنوب ٢٢٦
في قاعة الدبلوماسيين ٢٢٧
جمهورية تتارستان
من موسكو إلى قازان ٢٣١
بلاد الشفق والغسق ٢٣٢
في مطار قازان ٢٣٥
مدينة قازان ٢٣٥
جولة في مدينة قازان ٢٣٦
ميدان الحرية ٢٣٨
نصف السكان مسلمون ٢٣٩
القلعة الإسلامية ٢٤٠
المسجد الذي حولوه إلى كنيسة ٢٤٢
المنارة الشامخة ٢٤٣
ملتقى النهرين ٢٤٤
قلب المدينة ٢٤٥
جامع المرجانية ٢٤٧
غداء تتاري ٢٥٠
ميناء قازان ٢٥١
مسجد السوق ٢٥٤
ملعب كرة القدم ٢٥٥
مسجد قراوي ٢٥٥
بيت تتاري ٢٥٧
عودة إلى الجامع المرجاني ٢٥٩
إلى ريف قازان ٢٦١
بلدة يودينا ٢٦٢
على ضفاف الفولجا ٢٦٢
العودة إلى قازان ٢٦٤
على مائدة الإمام ٢٦٥
مشكلة التطور ٢٦٨
السوق المركزي ٢٦٩
سوق النساء ٢٧١
مسجد أسير ٢٧٢
جمعية قازان ٢٧٤
جمعية المسجد ٢٧٦
رواتب أئمة المسجد ٢٧٦
والجامع السوق ٢٧٨
مرافقة الحجيج ٢٧٨
منظر مؤثر ٢٧٩
القرآن والتلبية في الطائرة الشيوعية ٢٨٠
في مطار لارنكا ٢٨١
مظاهرة إسلامية ٢٨١
الوصول إلى أراضي القداسات ٢٨٢